سلسلة كتب «العنقاء»



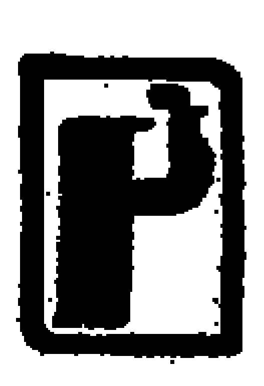
ثلاثية باجين

التيار الجارف

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

ثلاثية باجين

التيار الجارف



سلسلة كتب «اللقاء»

الطبعة الاولى .... عام ١٩٩٠

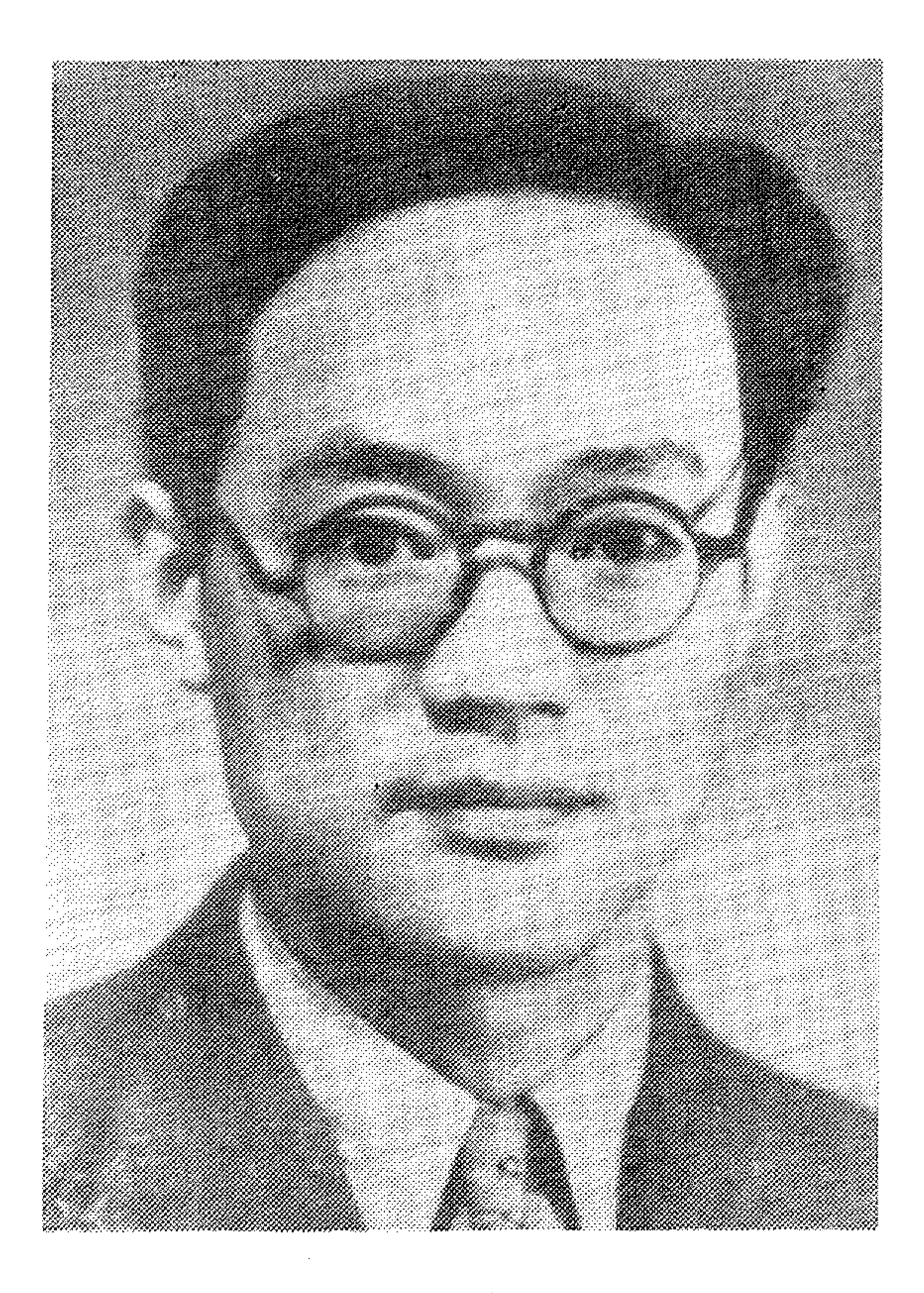
ترجمة : رضوان ليو لين روى

رسم : تشن جين رونغ

٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٣٧

ISBN 7-119-01142-1

طبع فى جمهورية الصين الشعبية



با جين

في شانغهاي عام ١٩٤٠

سلسلة كتب «العنقاء»
ثلاثية با جين «التيار الجارف»

المؤلف فى سطور

با جين كاتب مبدع عظيم فى تاريخ الادب الصينى الحديث (١٩١١ – ١٩٤٩) . واسمه الاصلى لى ياو تانغ ، ولقبه لى فى قان . ولد عام ١٩٠٤ فى بيت موظف كبير بمدينة تشنغدو حاضرة مقاطعة سيتشوان بجنوب غربى الصين . دخل عام ١٩٢٠ مدرسة اللغات الاجنبية . ثم هجر بيته خفية عام ١٩٢٣ وسافر الى شانغهاى حيث انضم الى دورة تكميلية فى احدى المدارس ، ثم سافر الى باريس عام ١٩٢٧ ، ومكث فيها الى عام ١٩٢٨ .

انجز با جين « الهلاك » عام ١٩٢٧ ، وهى اول رواية له . ثم واصل كتابة الروايات ، حتى بلغ ما انجزه خلال عشرين عاما ، من ١٩٢٧ الى ١٩٤٧ ، عشرين رواية ، اهمها ثلاثية « الثورة » : « الهلاك » « الشمس التى ماتت» . « الحياة الجديدة » ، وثلاثية « الحب» : « الضباب» « المطر» « البرق » ، وثلاثية « التيار الجارف» : « الاسرة » « الربيع» « الخريف» ، ورواية « الليل البارد » ، ورواية « حديقة تشى» . كما نشر فى تلك الفترة احدى عشرة مجموعة قصصية قصيرة ، وقرابة عشرين مجموعة من النثر

الفني والمقالات والتعليقات .

وترجم في تلك الفترة ايضا كثيرا من الاعمال المشهورة في الآداب الاجنبية ، اهمها « مجموعة من القصص القصيرة لمكسيم غوركي» و« الآباء والبنون » لتورجينيف .

ومنذ عام ١٩٤٩ ، عقب تأسيس الصين الجديدة ، واصل با جين الكتابة الى جانب عمله القيادي في مجال الادب والفن . وقد نشر له كثير من القصص القصيرة ، والتحقيقات الصحفية ، والنثر الفني ، والمقالات والتعليقات . كما اصدر بضع عشرة مجموعة من هذه الاعمال .

ثم لزم بيته منذ عام ١٩٧٨ متفرغا للكتابة .

وفي عام ١٩٨٦ نشر مجموعة من النثر تقع في ٥ اجزاء بعنوان « خواطر» .

انتخب با جين عدة مرات عضوا في المجلس الوطني لنواب الشعب ، وعضوا في المجلس الوطني للمؤتمر الاستشاري السياسي . كما انتخب عضوا في اللجنة الدائمة للمجلس الوطني الخامس لنواب الشعب ، وعضوا في مجلس اتحاد الاوساط الادبية والفنية في الصين . كما تولى منصب نائب الرئيس لاتحاد الكتاب الصينيين ، ثم منصب رئيس الاتحاد ، ومنصب رئيس فرع هذا الاتحاد في شانغهاي .

مقدمة

ان با جين من اعظم الكتاب فى تاريخ الادب الصينى الحديث (١٩١١ — ١٩٤٩) ، لمع اسمه لأول مرة فى حقل الادب وهو فى الخامسة والعشرين . وقد كتب منذ ذلك الحين حتى الوقت الحاضر اكثر من عشرين رواية ، واكثر من مئة قصة قصيرة . ومن رواياته الرائعة ثلاثية « التيار الجارف » : « الاسرة » « الربيع » « الخريف » . وتعتبر رواية « الاسرة » من ابرز اعماله ، وهى التى خلدت له مكانته فى تاريخ الادب الصينى الحديث .

يرجع نجاح با جين فى ثلاثية « التيار الجارف » ، فضلا عن براعته الفنية ، الى المامه بأحوال الاسرة الاقطاعية الكبيرة فى الصين فى ذلك العهد .

ولد با جين ، واسمه الاصلى لى ياو تانغ ولقبه لى فى قان ، عام ١٩٠٤ فى اسرة موظف كبير بمدينة تشنغدو ، حاضرة مقاطعة سيتشوان الواقعة بجنوب الصين الغربى . كان كل من جده وابيه موظفا فى حكومة اسرة تشينغ الملكية التى سقطت عام ١٩١١ . وكانت اسرته تملك اراضى زراعية شاسعة ، وتقيم فى دار فخمة عظيمة . ويقول با جين عن اسرته انها " تضم قرابة عشرين شخصا من الجيل المتقدم ، واكثر من ثلاثين من الاخوة والاخوات ،

وعشرات من الخدم . " وكان يطبق فى اسرته التى تعيش اربعة اجيال منها معا فى دار واحدة ، نظام ابوى صارم . فجده هو رب الاسرة وحاكمها المطلق السلطة ، يتحكم فى السادة الشباب وفى السادة الكهول ، الا ان هؤلاء الكهول يتحكمون بدورهم فى جيل الشباب فى الوقت الذى يبدون فيه امام رب الاسرة طائعين خاشعين . اما الخدم والجوارى وحمالو المحفات فليسوا اكثر من آلات ناطقة .

وكانت اسرته تبدو فى اعين الناس اسرة ادب وعلم ، ابناؤها مثقفون مؤدبون . ولكن الواقع ان الصلات بين اعضاء الاسرة ، بين الاخوة ، وبين السلائف ، وبين الرجل وابن اخيه ، وحتى بين الرجل وابنه ، وبين الزوج والزوجة ، انما تقوم على المخادعة والمراوغة والتطاحن ، حيث ان بعضهم يكيل لبعض ، ويتشاجرون بلا انقطاع .

تألم الفتى با جين كثيرا حين رأى بعينه صلة القربى الزائفة التى تربط بين افراد اسرته ، ورأى مساوئ النظام الابوى وما سبب لاخوته واخواته من الكبت والالم النفسى ، والمظالم التى يتعرض لها الخدم والجوارى فى ظل هذا النظام .

ولما شب با جين تأثر بـ "حركة رابع مايو" ١٩١٩ الداعية الى الديمقراطية والعلم الحديث ، والى مناهضة القواعد المسلكية الاقطاعية . فتحول من فتى يمقت نظام الابوة الاقطاعى الى شاب يحس برغبة قوية فى الثورة وفى هجر اسرته . واخيرا غادر بيته عام ١٩٢٣ وهو فى التاسعة عشرة ، فسافر الى شانغهاى ونانجينغ للدراسة ،

ثم سافر الى فرنسا عام ۱۹۲۷ ، حيث تأثر اكثر بالفكر الديمقراطى، فزاد ذلك من بغضه لنظام الابوة الاقطاعى وحنقه على نظام الاسرة الاقطاعية الكبيرة ، وتولدت لديه رغبة فى فضح هذه المساوئ بقلمه . فكتب حول هذا الموضوع ثلاث روايات رائعة : « الاسرة » و« الربيع » و« الخريف» ، وجعل منها ثلاثية « التيار الجارف» ، اودع فيها عطفه على اخوته واخواته وخدم اسرته وجواريها لسوء المصائر التى انتهوا اليها ، كما عبر فيها عن سخطه على نظام الابوة الاقطاعى وعن تعطشه الى الديمقراطية .

وصف با جين فى هذه الروايات الثلاث ، عبر تصدع اسرة اقطاعية كبيرة وانهيار كيانها ، آثام نظام الابوة فى ازهاق روح الشباب الناضر ، ويقظة جيل الشباب ونضالهم ، وحتمية انهيار القواعد المسلكية الاقطاعية فى نهاية الامر .

فضح با جين فى « الاسرة » التى نشرت عام ۱۹۳۱ زيف النظام الابوى ووحشيته من خلال سلسلة التناقضات والصدامات فى اسرة قاو بين الجد والابناء والاحفاد .

فى اسرة قاو التى تعيش اربعة اجيال منها سويا فى دار واحدة ، كانت تطبق مجموعة كاملة من القواعد المسلكية الاقطاعية تفرض على جيل الابناء والاحفاد انواعا من القيود والاغلال ، وتكبت حريتهم . منها انه لا يجوز لأى فرد من اعضاء الاسرة مخالفة ارادة ذويه الكبار ، وانه يحرم على البنات دخول المدارس ، ولا يسمح للشاب او الشابة بالحرية فى الحب والزواج . وهكذا وقعت فى هذه الاسرة كثير من المآسى فى ظل هذا النظام ، بدأت

بانتحار الجارية مينغ فنغ الجميلة الطاهرة القلب التى رفضت ان تقدم كهدية الى رجل عجوز ليتخذها محظية له ، ثم موت قريبة الاسرة الاخت مي الهادئة الطباع التى حرمت من حرية الحب والزواج ، ثم موت زوجة الحفيد الاكبر نتيجة الظلم من ذويها الكبار ، ثم اضطرار الحفيد الثالث الى هجران البيت خفية سعيا وراء الحرية .

ومن اعظم ما تمتاز به « الاسرة » واقعيتها وقوة تأثيرها . فقد صورت هذه الرواية تصويرا دقيقا سيطرة القوة المستبدة على الاسرة وتحكمها فى الضعفاء ، وعكست بشكل معقد صيحات الشباب المتعطش الى الديمقراطية فى ظل استبداد رب الاسرة الاقطاعى ، صيحات تمثل صوت عامة ابناء الشعب فى الصين القديمة . وهكذا اكتسبت « الاسرة » بواقعيتها وجمال اسلوبها ثناء الجم الغفير من القراء .

ثم انجز با جين رواية « الربيع » عام ١٩٣٨ ، الا انه بدأ فى حبك الرواية وفى كتابتها قبل ذلك بعدة اعوام . فقد قال فى ١٩٣٥ ان فى نيته الكتابة عن " اسرة بطلتها فتاة حاولت الانتحار ، وحاولت الهرب ، وناضلت بشتى الطرق حتى نالت حقها فى طلب العلم وفى الحرية ، ومن ثم غادرت اسرتها الكبيرة التي تحكمها قوة مستبدة متعفنة . " وهذه الفتاة هي شو ينغ بطلة رواية « الربيع » .

استخدم با جين بنجاح اسلوب المغايرة عند وصف تطور الفتاة شو ينغ من الطاعة العمياء الى اليقظة ثم هجران البيت خفية احتجاجا على ابيها الذى حاول تزويجها قسرا بمن لا تحب . فقد عرض قصة الفتاة هذه بجانب قصة قريبتها الاخت هوى

التى تزوجت مع من لا تحب طاعة لأمر ابيها ، ثم ماتت كمدا .
بهذا الاسلوب استطاع الكاتب ان يثير فى نفوس القراء العطف البالغ على الفتيات اللائى يتعرضن للأذى والاضطهاد فى ظل نظام الابوة الاقطاعى ، وان يمهد فى الوقت ذاته لهرب شو ينغ من البيت حتى يبدو عملها هذا امرا معقولا ونتيجة محتومة ، وهو فوق ذلك يمكن القارئ عبر المقارنة من ان يرى الطريق الواجب سلوكه على الفتاة التى تريد ان تحيا .

واستعان بأسلوب المغايرة ايضا فى وصف الرجال من شخصيات الرواية ، اذ يمكن للقارئ ان يلاحظ فى « الربيع » انه حين بدأ الشاب جيويه مين واخوه الاكبر جيويه شين يستيقظان ويحاولان التخلص من سيطرة القواعد المسلكية الاقطاعية ، كان عمهما الثالث ، الذى اصبح رب الاسرة الكبيرة ، لا يزال متمسكا بنظام الابوة مثل والده الراحل فى محاولة يائسة لانقاذ هذه الاسرة التى كانت تنحدر فى طريق الانهيار .

اما رواية « الخريف » فقد انجزها با جين خلال سبعة اشهر من اكتوبر ١٩٣٩ الى مايو ١٩٤٠ . صور فيها نهاية اسرة قاو : مات السيد الثالث رب الاسرة من شدة الغيظ والحنق على اخويه العابثين المبذرين ، ثم بيعت الدار الكبيرة ، وانهار كيان الاسرة وتشتت شملها .

نجد فى « الخريف » ان شباب الاسرة الذين قاوموا وناضلوا قد نجح بعضهم فى نضالهم ونالوا ما يأملون . فقد تم عقد الخطبة بين جيويه مين وحبيبته تشين ، ودخلت شو هوا المدرسة ...

ما أن نشرت ثلاثية «التيار الجارف» : «الاسرة» «الربيع» «الخريف» فى ثلاثينات هذا القرن على التوالى ، حتى اظهرت قوة تأثيرها وخاصة فى ايقاظ الشباب الصينى للنضال ضد الاقطاعية .

ولكى يطلع قراء العربية على معالم هذه الروايات الثلاث يسر دار النشر باللغات الاجنبية ببكين ان تقدم اليهم الترجمة العربية لمختصر هذه الروايات ، الذى قام باعداده معهد اللغات فى بكين ، والذى راجعه با جين .

تقع الروايات الثلاث فى مليون من المقاطع الصينية ، فجاء «المختصر» فى مئة الف مقطع فحسب ، الا انه على ايجازه حافظ على معالم الاصل من حيث الشخصيات الرئيسية ومصائرهم ، وما تخلل حياتهم من افراح واتراح ، ومن حيث المراحل التى مرت بها اسرة قاو فى طريقها الى التصدع والانهيار . ويستطيع القارئ الكريم التعرف ، من خلال هذا المختصر ، على عمق الموضوع الذى عالجه الكاتب فى ثلاثيته ، وتذوق جمال اسلوبه .

المحرر

١٩٨٧/١٠/٨

الأســرة

شخصيات رواية « الاسرة »

الخالة : المدام تشيان
ابنتها : مى
صهرها : تشاو
السيد الكبير قاو
محظيته : السيدة تشن
(الفرع الاول)
السيد الاول : كه ون
ارملته : السيدة تشو
اولاده :
الابن الاكبر : جيويه شين
زوجته : لى روى جيويه
ابنه : هاى تشن
الابن الثانى : جيويه مين
الابن الثالث : جيويه هوى
ابنته : شو هوا
الخادمات : تشانغ
خه

الجوارى : مينغ فنغ

(الفرع الثانى)

(الفرع الثالث)

السيد الثالث : كه مينغ

زوجته : السيدة تشانغ

الجوارى : وان ار

(الفرع الرابع)

السيد الرابع : كه آن

زوجته : السيدة وانغ

(الفرع الخامس)

السيد الخامس : كه دينغ

زوجته : السيدة شن

العمة : المدام تشانغ

ابنتها : تشين

البغاء : "يوم الاثنين"

فنغ ياو شان : رئيس الجمعية الكونفوشية ، الصديق الحميم للسيد الكبير قاو

١ ـ جيل الشباب فى اسرة قاو

الريح تعصف بشدة ورقاقات الثلج تتطاير فى الفضاء ، فيخيل الى الانسان امام هذا المشهد كأن الربيع لن يعود الى الدنيا ثانية .

بدأ الظلام ينشر جناحيه على الكون ، الا ان مصابيح الشوارع لم تضأ بعد .

فى هذا الجو المعتم البارد كان شابان يسيران فى الطريق ، كل منهما ينشر مظلة فوق رأسه ، وهما منهمكان فى نقاش حاد ، نسيا معه تماما ما كانا فيه من برودة الجو والظلام .

سارا فى خطى متعثرة الى ان وقفا امام دار كبيرة تنتظم حول فنائها الغرف من الجهات الاربع . ولما دخلا لقيتهما جارية فحيتهما قائلة :

ــ عدتما يا سيدى الثانى وسيدى الثالث ؟ العشاء قد بدأ ، هيا ، فعندنا اليوم ضيوف .

كانت الجارية ، واسمها مينغ فنغ ، فى السادسة عشرة تقريبا ، والشاب الذى دعته السيد الثالث يسمى جيويه هوى ، والشاب الآخر هو اخوه الثانى ، ويسمى جيويه مين ، وهما من طلاب مدرسة اللغات الاجنبية بالمدينة حاضرة المقاطعة . سأل جيويه هوى الفتاة فى صوت خافت :

ـ ضيوف ؟ من هم ؟

اجابت :

ـ عمتك المدام تشانغ وابنتها الآنسة تشين . اسرعوا من فضلكم .

قالت ذلك واستدارت متجهة الى الجناح الذى تقيم فيه ارملة ابيهما واخوتهما .

وقف جيويه هوى يحملق فى ظهر الجارية الى ان غابت داخل الجناح . وعندها حثه اخوه جيويه مين قائلا :

ـ هيا لنسرع بالدخول !

كان فى صدر القاعة مائدة مربعة جلس اليها ستة اشخاص : فى الجهة المقابلة للباب حيث مقاعد الشرف جلست ارملة ابيهما الراحل السيدة تشو ، وعمتهما المدام تشانغ ، وعلى الجانب الايسر جلست الآنسة تشين ابنة عمتهما ، ولى روى جيويه زوجة اخيهما الاكبر جيويه شين ، وعلى الجانب القريب من الباب جلس الاخ الاكبر وشقيقتهم الصغرى شو هوا .

سلم الاخوان على الحاضرين ، واتخذا مجلسهما فى المقعدين الخاليين بالجانب الايمن ، وسرعان ما احضرت لهما الخادمة تشانغ طاسين من الرز .

سألتهما السيدة تشو ارملة ابيهما فى رقة :

ـ ما الذى اخركما اليوم الى هذا الوقت ؟

قال جيويه مين :

ـ كنا نتدرب على اداء تمثيلية بعد الظهر .

وقالت عمتهما المدام تشانغ فى لطف :

ــ كان الثلج ينزل بغزارة قبل قليل ، لعل الجو بارد فى الخارج . هل عدتم فى محفات ؟

فقال جيويه هوى على عجل حين سمع كلمة "محفات" :

ــ رجعنا سيرا على الاقدام . نحن لا نستخدم المحفات ابدا .

فقال جيويه مين موضحا :

ــ اخى الثالث يخشى ان يقال عنه انه يركب المحفة ، لأنه من دعاة الانسانية .

فضحك الجميع . وقالت الآنسة تشين فى دهشة موجهة حديثها الى جيويه مين :

ــ تمثلون باللغة الانجليزية يا اخى ؟ متى تقدمون التمثيلية ؟ ان الآنسة تشين تدرس فى مدرسة المعلمات التابعة للمقاطعة . وهى تصغر جيويه مين ببضعة اشهر .

ــ نعم بالانجليزية . اعتقد ان التمثيلية تقدم فى الربيع القادم حين يبدأ الفصل الدراسى الثانى ، لأنه لم يبق من الفصل الدراسى الحالى الا اسبوع او اكثر .

ــ ولكن العطلة الشتوية بدأت فى مدرسة المعلمات من الاسبوع الماضى ، ذلك لأن المدرسة يعوزها المال اللازم كما يقولون ...

وقبل ان تتابع تشين كلامها قال جيويه هوى فى سخط :

ــ سمعت ان جميع الاعتمادات المخصصة للتعليم فى المقاطعة انفقت على الجيش ، وان حاكم المقاطعة العسكرى

هو الوحيد الذى اغتنى ، وهو لا ينفق الا بعض المال على جنوده الذين لا هم لهم الا العربدة فى الشوارع ، بينما نجد جميع المدارس تعانى من ازمة مالية .

قال الاخ الاكبر جيويه شين فى هدوء :

ــ ما دامت المدارس مفتوحة امامكم فلا ضير فى ان تتعطل فى وقت مبكر .

ونظرت زوجته روى جيويه فى حب وحنان الى الاخوين الثانى والثالث ، ولم تقل شيئا .

وبعد العشاء نهضت السيدة تشو ، ودعت المدام تشانغ للاستراحة فى مخدعها .

وعند ذاك اسر جيويه مين الى الآنسة تشين بنبأ بالغ الاهمية ، سرت الاخيرة منه سرورا عظيما ، وسألت قائلة :

ــ أ حقا ما تقول ؟ مدرستكم ستقبل بنات ؟ متى ؟

قال جيويه مين :

ــ لا اكذب عليك ، يمكنك ان تسألى الاخ جيويه هوى ان لم تصدقى .

فقال جيويه هوى الذى كان واقفا بجانبهما :

ــ النبأ صحيح ، ولكن هناك مصاعب فى تحقيق ذلك . العقلية المحافظة عميقة الجذور فى مجتمعنا ، ولا شك ان المحافظين سيعارضون اختلاط الاولاد بالبنات فى المدارس .

ــ ومهما يكن ، فانى سأكون اول فتاة تسجل اسمها للالتحاق بمدرستكم .

قالت تشين ذلك وتطلعت الى جيويه مين بعينيها الواسعتين المتألقتين ببريق الذكاء كأنها تسأله : هل تؤيدني يا اخي ؟

٢ ـ الجارية مينغ فنغ

تأخر الليل . وقد انصرفت المدام تشانغ والآنسة تشين ، واطفئت المصابيح الكهربائية وساد الدار الكبيرة ظلام دامس .

في غرفة الخادمات كانت الاخت خه والاخت تشانغ مستغرقتين في النوم بينما بقيت الجارية مينغ فنغ ساهرة ، تجلس على حافة سريرها ، وتحملق شاردة الذهن في المصباح الزيتي الشاحب . لقد انقضى يوم آخر من العمل المرهق بعد ان نامت سيدات الدار وآنساتها ، الا ان الصيحات الآمرة والشتائم لا تزال تطن في اذنيها . وفجأة اهتز ضوء السراج ، فأدركت ان الزيت يوشك ان ينفد وان السراج سينطفيء ، وانه حان لها ان تنام ، تنام الآن لتعاود غدا حياة تتلقى فيها الاوامر ، وتتعب وتذرف الدموع ، حياة عاشتها سبع سنوات في هذه الدار ، ولا تدرى الى متى تستمر فيها .

في الخارج كانت الريح تعصف بشدة ، احست مينغ فنغ معها كأن الظلام احدق بها من كل الجهات . راحت تفكر في حظها التاعس والمصير الذى ينتظرها ، وهى تقول في سرها : ليتني لم اولد في بيت فقير ولم تمت امى ، وكان حظى مثل حظ الآنسات ، ألبس الملابس الجميلة وانام في غرفة دافئة ،


家

وانعم بحب الابوين ، ويعجب بى شاب من السادة ، آه !
لكن هذا مستحيل . ان المصير الذى ينتظرنى هو ان تستدعينى
سيدتى ذات يوم وتزوجنى برجل لا اعرفه ، ولكن من اى صنف
سيكون زوجى المنتظر يا ترى ؟ قد يكون مدمن خمر ومقامرا سىء
الخلق ، يثور غاضبا ، ويكيل لى الضربات لأتفه الاسباب ،
اما انا فأغسل له ، واطبخ ، وألد له اولادا ، ثم اعود الى الخدمة
فى بيت غنى كما تفعل هذا الاخت خه والاخت تشانغ .

اشتدت الريح ، وراحت تلطم الورق الملصق بشعرية الشباك
محدثة صوتا مزعجا ، وترجرج ضوء السراج مرة اخرى ، وما لبث
ان انطفأ . وفى الظلام تراءى امام عينيها شاب يرنو اليها باسم
الثغر ، شاب يلقاها دائما بهذه النظرة الباسمة ، انه سيدها الصغير
جيويه هوى ! ها هو اقبل نحوها مادا ذراعيه ، انه مثل ضوء
الشمس ينير لها الطريق ويبعث فى قلبها الدفء ، فتقدمت اليه . . .

ثارت الريح مزمجرة ، ومزقت ورق الشباك ، فهجمت على
مينغ فنغ دفقة ريح باردة اقشعر لها بدنها ، وبغتة اختفى وجه
سيدها الصغير .

٣ ـ اضراب الطلاب

ساد حاضرة المقاطعة جو من التوتر فى الايام الاخيرة ، اذ
ترددت اشاعات بأن السلطات ستلجأ الى العنف مع الطلبة الذين
ساءتها نشاطاتهم الوطنية . وفعلا وقع حادث اعتداء عليهم من بعض

الجنود .

كان طلاب بعض المدارس يقدمون تمثيلية فى احد المسارح ، فجاء جنود ودخلوا بلا تذاكر . ولم يكتفوا بذلك ، بل تعمدوا اطلاق صيحات استهجان واثارة ضجة فى اثناء المشاهدة . فتقدم اليهم بعض الطلاب ، يرجو منهم ان يلزموا الهدوء . فثار هؤلاء ، وانقضوا على الطلبة ، وكالوا لهم الضربات ، كما اتلفوا معدات المسرح . ولكن السلطات بدلا من ان تعاقب الجنود المعتدين ، اتهمت الطلبة بأنهم يثيرون الاضطرابات .

حين سمع جيويه هوى وزملاؤه بذلك انتابتهم سورة غضب . فقد عرفوا ان هذا الحادث من تدبير السلطات ، وهو اول خطوة لجأت اليها ضدهم .

فى مساء ذلك اليوم قام الطلبة بمظاهرة . خرجوا من مدارسهم فى حشود عظيمة ، واخترقوا الازقة والشوارع ليتجمعوا فى الساحة امام مقر حاكم المقاطعة العسكرى ، فواجهتهم الحراب اللامعة ، فامتلأت قلوبهم حنقا وغيظا ، وزفعوا اصواتهم فى هتافات ارتجت لها جنبات الساحة .

غلت الدماء فى صدر جيويه هوى واغرورقت عيناه بالدموع من شدة الانفعال . لم يكن يرى فى الساحة الا رؤوسا تتحرك واذرعا تعلو وتهبط . فلم يستطع امام هذا المشهد ان يكبح جماح نفسه الثائرة ، واحس بأنه يوشك على الاختناق من شدة الغيظ ، فتساءل : ألم يعد فى هذا العالم مكان يجد فيه الانسان العدل والانصاف ؟ الجنود الاوغاد هم الذين ضربوا الطلبة ولكن الطلبة اصبحوا هم

الجناة ! هل معنى ذلك ان دماء الطلبة الجرحى سالت هدرا ؟ ! يا للوقاحة ! يا للسفالة !

لم يكف الطلبة عن النضال ، فقد ألف طلبة مدرسة اللغات الاجنبية وغيرها من المدارس التى لم تتعطل الدراسة فيها ، اتحادا عاما للطلبة ، واصدروا باسم الاتحاد بيانا اعلنوا فيه الاضراب .

وتكررت الاعتداءات ، وظلت النفوس مبلبلة .

كان الجنود يضربون الطلبة كما يشاءون ، والجنود الجرحى المسرحون اشد عتوا ، يعيثون فى الشوارع فسادا دون ان يجرؤ احد على التدخل ، فى حين بقى الحاكم العسكرى ساكنا كأن لم يحدث شيء ، وانهمك فى الاستعداد للاحتفال بعيد ميلاد والدته .

كثرت التعليقات ازاء هذا الوضع ، فمن الناس من يقول ان الطلبة هم الذين جنوا على انفسهم . ومنهم من يقول ان الجنود اوغاد وقحون . وساد المدينة حالة من الفوضى .

ولكن الطلبة لم يكونوا يقبلون الضيم ، فقد هبوا فى شجاعة وشنوا " حملة دفاعية للحفاظ على كرامة الطلبة " ، واخذوا يوزعون المنشورات ويلقون الخطب فى الشوارع ، كما ارسلوا برقيات مفتوحة الى انحاء البلاد لكسب تأييد الرأى العام وتوسيع اثر حركتهم الى اقصى حد .

وراح جيويه هوى يعمل بحماسة فى سبيل قضيتهم ، يكتب المقالات ويصدر المطبوعات حتى انه لم يعد يذكر الفتاة مينغ فنغ إلا نادرا .

٤ – توبيخ

استدعى جيويه هوى ذات يوم الى غرفة جده عقب عودته من اتحاد الطلبة .

تقدم جيويه هوى الى جده الذى كان مستلقيا على كرسى خيزرانى مغمض العينين ، ووقف امامه فى وجل . مرت لحظات والجد على حاله ، فلم يجرؤ جيويه هوى على الكلام ولا على المغادرة . كان يشعر فى هذه اللحظة بأن جو الغرفة ثقيل ، وانه يكاد يختنق ، كأن كتلة من الرصاص تجثم على صدره .

وفجأة فتح جده عينيه ، وسأله قائلا :

– اين كنت ؟ بحثوا عنك فى كل مكان ، ولم يجدوك .

فوجىء جيويه هوى بهذا السؤال غير المنتظر ، فوقف متحيرا ، ثم قال بعد لحظة صمت :

– كنت ازور بعض زملائى .

تأفف الشيخ استياء وقال :

– كنت تزور بعض الزملاء ؟!

ثم سدد الى حفيده نظرة صارمة واضاف :

– طلاب المدارس يشاكسون الجنود فى هذه الايام ، وانت واحد منهم ، هل تظننى اجهل ذلك ؟ السيدة تشن اخبرتنى منذ برهة ان بعضهم رآك توزع المنشورات فى الشوارع ؟

اخذ جيويه هوى يلعن فى سره السيدة تشن محظية جده قائلا : اللعنة على هذه المرأة ! انها دائما ما تطلى وجهها بالمساحيق ،

وتتطيب بعطر قوى ، لا ادرى ما الذى يعجب جدى فيها ...

وقطع عليه تفكيره صوت جده وهو يتابع حديثه :

— الحقيقة ان الطلبة ذهبوا بعيدا فى طيشهم وعبثهم ، اليوم يفتشون المخازن التجارية بحثا عن البضائع اليابانية ، وغدا يخرجون الى الشوارع فى مظاهرات ، زاعمين ان هذه حركة وطنية . كل ما يهمهم هو اثارة المتاعب دون ان يفكروا فى الدرس والتحصيل .

هم جيويه هوى ان يشرح لجده الامر ، الا ان هذا الاخير استطرد قائلا :

— مدارس هذا الزمن غير صالحة ابدا ، انها لا تصنع الا مشاغبين ! لم يكن من رأيى ارسالكم الى المدارس الحديثة . انظر الى عمك الخامس ، انه لم يدخل المدرسة ، بل اكتفى بالدراسة فى البيت ، ولكنه درس الادب القديم جيدا ، وخطه اجمل من خط اى منكم . عمك يقعد فى البيت طول اليوم يقرأ ويكتب ، بينما تقضى النهار خارج البيت تثير المتاعب ! اذا بقيت على ذلك ، فستعرض حياتك للخطر !

لم يستطع جيويه هوى ان يحتمل اكثر من هذا ، فرد على جده بقوله :

— لسنا نحن الذين نثير المتاعب ، بل ان الجنود ضربوا زملاءنا دون مسوغ ، فدافعنا عن انفسنا ، هذا كل ما فى الامر ...

— تجادلنى ؟ ! اعتب عليك ، فلا تسمع كلامى ؟ اسمع ! من اليوم فصاعدا لن اسمح لك بالخروج من البيت واثارة المتاعب ! تعالى يا ست ، اذهبى واستدعى اخاه الاكبر ...

وعاودته نوبة سعال شديد فلم يستطع ان يكمل حديثه .

اقبلت السيدة تشن من الغرفة المجاورة ، وراحت تدق على ظهر العجوز بخفة وتمسح صدره .

استشاط الجد غاضبا ، وصاح فى محظيته :

ــ اذهبى واستدعى اخاه الاكبر !

ــ انظر ايها السيد الثالث الى اى حد اغضبت جدك . . .

قالت السيدة تشن ذلك ، وغادرت الغرفة وهى تهز خصرها .

واغمض الجد عينيه ثانية .

يدخل جيويه هوى الى غرفة جده مرتين فى اليوم ليقدم اليه تحية الصباح وتحية المساء حسب التقليد المتبع ، ولكنه لم يقف امامه قط على هذه المسافة القريبة . راح يحدق فى وجه جده الاصفر القاتم ، فخيل اليه ان هذا الطاغية الجبار الماثل امامه ليس جده ، بل ممثل جيل من الرجال . هذا الشيخ وحاكم المقاطعة العسكرى من فئة واحدة . عمه الرابع وعمه الخامس والسيدة تشن كلهم من هذه الفئة ، وكذلك العجوز المدعو فنغ ياو شان رئيس الجمعية الكونفوشية . كل هؤلاء ظالمون لا غاية لهم فى الحياة سوى معاداة الشباب انصار الافكار الجديدة . واحس بأن الذى حدث له ليس مما يحدث بين رجل وحفيده ، بل هو شبيه بما يحدث بين عدوين . . .

وما ان قاده تفكيره الى هذه النقطة حتى زخمت انفه رائحة عطر نفاذ ، فوجد محظية جده قد دخلت ، ووراءها اخوه الاكبر جيويه شين .

رفع الجد جفنيه ، وصوب نظره الى حفيده الاكبر وهو يقول :

ـ اسلم اليك شقيقك الاصغر جيويه هوى ، عليك ان تهتم بأمره ، ولا تدعه يغادر البيت . وان خرج ، فأنت المسؤول !

اجاب جيويه شين فى ذل وخضوع : نعم ! بينما غمز اخاه بعينه يرجو منه الا يجادل .

ومضت فترة صمت طويلة ، ثم اضاف الجد فى صوت واهن :

ـ خذه معك ! لقد سبب لى ما يكفى من التعب .

واغمض عينيه ، فأسرعت محظيته تدق على ظهره بخفة .

٥ ـ "سياسة عدم المقاومة"

غادر الاخوان غرفة الجد ، وخرجا من الجناح ، وحين هبط جيويه هوى الدرج الى ارض الفناء شعر بالارتياح ، وقال لأخيه :

ـ الآن اصبحت سيد نفسى ! ما اجمل اشعة الشمس التى تغمر فناء الدار !

وحين عاد جيويه هوى الى غرفته التفت الى اخيه الذى دخل وراءه ، وسأله فى لهجة صادقة :

ـ ما العمل الآن ؟

فقال جيويه شين فى هدوء :

ـ تنفذ اوامر جدنا وتبقى فى البيت ، هذا كل ما فى الامر .

فقال جيويه هوى ، وهو يكاد يقفز على قدميه من شدة الانزعاج :

– غير ممكن ! حركة الطلاب فى اوجها ، وانا اقبع فى البيت ؟ !

– وما حيلتنا ما دام السيد الكبير يريد ذلك ؟

– شيء جميل ! عدت الآن الى "سياسة عدم المقاومة" ؟ طول اليوم لا تفارق شفتيك كلمات : "السيد الكبير" و"الجيل المتقدم" . خير لك اذا صفعك احد على خدك الايسر ان تدير له خدك الايمن !

وصب جيويه هوى جام غضبه على اخيه الاكبر ، الا ان هذا الاخير ظل هادئا . وقال وعلى شفتيه بسمة باهتة :

– وماذا يجديك ان تشتمنى ؟

فقال جيويه هوى ، وهو يضرب الارض بقدميه من شدة الاهتياج :

– لا بد ان أخرج ! سأخرج فى هذه الساعة لأرى ماذا يستطيع جدى ان يفعل بى !

فقال جيويه شين فى اسى :

– انت بتحديك لجدك انما تضعنى فى موقف محرج ، ولكن هذا لا يهم كثيرا . اذا اصررت على الخروج ، فكل ما يحصل لى هو ان يوبخنى جدى مرات اخرى .

لاذ جيويه هوى بالصمت ، وقال فى نفسه : لماذا احرج اخى ، وجدى هو الذى اصدر هذا الامر ؟

وقال له جيويه شين فى لطف محاولا تهدئة ثورته :

— من الانصاف ان نقول ان جدك حينما يمنعك من الخروج انما يفكر فى مصلحتك انت . الجنود اوباش لا يتورعون عن فعل اى شىء ، فاذا وقع لك حادث ، فماذا نعمل ؟

وتريث قليلا ، ثم اضاف :

— انت صغير السن قليل الصبر : حين يوبخك جدك لبعض الامور فيما بعد ، ما عليك الا ان تسمع ، حتى اذا ما شبع من التوبيخ يكفى ان تقول له : " نعم " وينتهى الامر . اما المناقشة معه فلا فائدة منها ابدا .

وسادت لحظة صمت ، قال جيويه هوى بعدها :

— قررت ان ابقى فى البيت فى هذه الايام ، لا طاعة لجدى ، بل لأجنبك المتاعب .

سر جيويه شين من نجاحه فى اقناع اخيه ، وقال مبتسما :

— شكرا جزيلا . الواقع انك اذا اردت الخروج ، فليس بوسعى ان امنعك ، لأنى لابد ان اذهب الى العمل كل يوم ، ولا اعود الا فى وقت متأخر ، وقد احسست اليوم بشىء من التعب فعدت مبكرا ، فصادفت مشكلتك هذه . ان عدم الخروج خير لك ولى وللجميع .

قال ذلك وعاد الى غرفته .

ضرب جيويه هوى على المكتب بقبضته ضربة شديدة ، وهو يردد فى نفسه قول اخيه : " خير لك ولى وللجميع " ؟ ولكن هل هناك خير يرجى ؟ ! انا احب اخى الاكبر ، ولكنى انكر

عليه فلسفته فى الحياة . ان القوى المحافظة قد آذته كثيرا ، لذا يميل الى الفكر الجديد ، ويعطف على حركة الطلاب ، ولكنه لا يجرؤ على المقاومة . انه يعانى تناقضا نفسيا ، يفعل كل يوم ما يخالف ارادته . . . وانا ؟ كم اتمنى ان اطير الى ما وراء هذه الجدران العالية لأشارك زملائى فى الدعوة والنضال لتحطيم كل ما يجب تحطيمه ، ولكنى لا استطيع . لقد تنازلت ووعدت اخى بألا اخرج من البيت خلال الايام القليلة القادمة ، فأنا الآخر افعل ما يخالف ارادتى ، انا ايضا اعانى تناقضنا نفسيا !

٦ ـ غابة زهرة الشتاء

ان جسم الانسان يمكن ان يحبس ، اما قلبه فلا يمكن حبسه . قرأ جيويه هوى خبرا سارا فى نشرة « الحركة الطلابية » الصادرة من اتحاد الطلاب العام والتى حملها اليه اخوه الاكبر : لان موقف الحاكم العسكرى فأرسل من زار الطلاب الجرحى ، واعتذر الى اتحاد الطلاب ، بل امر بمعاقبة الجنود الذين ضربوا الطلاب . اذن فقد هدأ الوضع المضطرب بالتدريج ، ولكن جيويه هوى ازداد ضجرا ، واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا كأنه نمر فى قفص .

وصاح فى ألم :

ـ بيت ؟ اى بيت هذا ؟ انه ليس سوى قفص !

فضحك اخوه الثانى جيويه مين الذى يشاركه الغرفة ، فاستاء

من ذلك وسأله فى حدة :

— ما الذى يضحكك ؟ آه ، انت مسرور بطبيعة الحال ، لأنك تخرج كل يوم !

— هل السرور حرام والضحك ممنوع ؟

— نعم ، ممنوع ! ألف ممنوع !

لم يجادله اخوه وغادر الغرفة .

— اريد ان اخرج ! لا بد ان اخرج ! سأرى من يستطيع ان يمسنى بسوء !

وعلى الفور خرج من الغرفة . ولكنه حين نزل الدرج لمح السيدة تشن محظية جده وزوجة عمه الرابع تتحدثان امام شباك غرفة الجد ، فتردد قليلا ، ثم سار صوب حديقة المنزل .

كانت مينغ فنغ تقطف فى الحديقة زهرة فى عنفوان تفتحها تدعى زهرة الشتاء . وحين وقع نظر جيويه هوى عليها غشيه الارتياح ، فتقدم اليها وقال :

— دعينى اساعدك .

التفتت اليه الفتاة ، فابتسمت لمرآه وهى تقول :

— هذا انت يا سيدى الثالث !

— من الذى طلب منك قطف الزهر ؟

— السيدة زوجة ابيك . قالت ان عمتك المدام تشانغ تريد بعض الزهر . والسيد الثانى جيويه مين سيحمله اليها بعد قليل .

ومدت يدها لتمسك غصنا محملا بالازهار ، فلم تستطع لقصر قامتها ، فأسرع جيويه هوى ، وقطع الغصن ، وناولها اياه .

سرت الفتاة كثيرا وقالت :

— آه ، جميل جدا .

ثم اردفت تقول مقطبة الجبين :

— ولكن لا تقل لسيدتى انك ساعدتنى فى قطف الزهر .

— لم تخافين من زوجة ابى ؟ هى ليست قاسية كما اعرف . هل وبختك فى الايام الاخيرة ؟

— وهل تجد جارية لا تتعرض للتوبيخ والشتم ؟ آه ، يجب ان اعود الآن . لقد جمعت ما يكفى من الزهر .

واستدارت على عقبيها تهم بالانصراف ، فاستوقفها وقال :

— لم تتعجلين الانصراف ؟ يخيل الى انك اصبحت تخافين منى فى هذه الايام ، فلا تتكلمين معى الا قليلا.

— لست اخاف منك ، بل انا مشغولة طول النهار ، لا اجد وقتا للدردشة .

— ولكنى وجدتك كثيرة الكلام مع البنت "وان ار" ، اما اذا رأيتنى ، فانك تسيرين مبتعدة .

— انا جارية وانت سيد ، كيف اجرؤ على الكلام الكثير معك ؟

— كنا فى الماضى ...

فقاطعته قائلة :

— الماضى هو الماضى . اما اليوم فالحال مختلف ، فكلانا قد كبر .

فسألها فى عناد :

ـ اذن هل يجب ان يتجاهل احدنا الآخر بعد ان كبرنا ؟ !

ـ اذا التقينا كثيرا كما كنا نفعل ، فان الناس سيثرثرون في غيابنا . وانت تعلم ان الثرثارين كثيرون فى البيوت الكبيرة . هناك زوجة عمك الرابع وزوجة عمك الخامس والسيدة تشن وغيرهن ، ألا تخاف ؟

ـ لا اخاف !

وجلس على مقعد حجرى ، وامسك بيدها فأجلسها بجانبه ، فلم تمانع . ثم سألها وقد رسم على وجهه امارات الاسى وخيبة الامل :

ـ لم لا تتكلمين ؟ ألا تحبينني الآن ؟

ثم تابع فى فتور حين وجدها صامتة :

ـ اعرف ان هذه الدار لم تعد تسعك بعد ان كبرت . سأطلب من زوجة ابى ان تزوجك فى اقرب فرصة وتصرفك .

ـ أحقا ما تقول ؟

اتسعت عيناها رعبا ، وانهمرت الدموع على وجهها ، فندم كثيرا ، وقال على عجل بصوت خافت :

ـ انا امزح معك ، فلا تأخذى قولى مأخذ الجد !

قالت منتحبة :

ـ ما يدريني ان كنت تمزح او تقول الجد ! فانتم السادة وابناء السادة تتصرفون على هواكم . ادركت من وقت بعيد انى لن انجو من مثل هذا المصير . ذهبت الكثيرات من امثالى فى هذا الطريق ، فلا يمكن ان اسير فى طريق آخر . ولكن لم يخطر

ببالى ايضا ان تعاملنى هذه المعاملة ...

اشتد به الجزع وقال على عجل :

ـ قلت انى لم اقصد الا المزاح ، ولكنك لا تصدقين . لن ادعك تغادرين هذا البيت !

ـ ولكن اذا ارادت سيدتى ، فما العمل ؟

ورفعت عينيها الصافيتين ، ونظرت اليه فى حب صادق ، فشد على يديها بقوة وهو يقول :

ـ لا يمكن . سأقول لها انى اريد ان اتخذك زوجة ...

صاحت مينغ فنغ مذعورة ، وسحبت يدها من قبضته ، ووضعتها على فمه وهى تقول :

ـ لا تفعل ذلك ابدا ! سيدتى سترفض بكل تأكيد . فان فعلت افسدت كل شيء ! ارجو ألا تقول شيئا . اننى احس بمشاعرك ، انت منقذى ، هكذا يقول لى قلبى . كلما خلوت الى نفسى بالليل هتفت باسمك سرا . اما بالنهار وامام الآخرين فلا اجرؤ على ذلك .

ـ كلامك يخجلنى كثيرا . انا اعيش فى راحة وسرور ، وانت تعانين مرارة الحياة وقسوة العمل فى بيتنا . انا احس بالذنب .

ـ لا داعى لذكر الذنب او غيره ، كل ما ارجو هو ألا تصرفنى من البيت . يسرنى ان اكون جاريتك طول الحياة ، اخدمك وابقى بالقرب منك . اشعر احيانا بأنك مثل القمر الذى فى السماء ، اراك ولا اقدر الوصول اليك .

امسك بيديها مرة اخرى وقال :

— نحن متساويان . لن اخيب املك فى ، لابد ان اتزوجك !
وبغتة سحبت يدها وقالت :
— جاء شخص ! يجب ان انصرف الآن .

٧ — صوت المزمار فى ليلة مقمرة

انتصف الليل وجيويه هوى لا ينام .
كانت صورة مينغ فنغ بعينيها الصافيتين لا تبرح مخيلته ، آه ، ما اصفى سريرة هذه الفتاة ، وما اطيب قلبها ! لو ولدت فى بيت غنى لدخلت المدارس مثل غيرها ...
ارتدى ملابسه ، وتسلل من الغرفة ، ورفع بصره الى السماء يتطلع الى القمر المضىء شارد الفكر تائه اللب .
ولم يدر كم مضى عليه ، وهو فى موقفه ، حين سمع صوتا يقول :
— أ لم تنم بعد يا اخى ؟
كان اخوه الثانى جيويه مين الذى يشاركه الغرفة قد وقف الى جانبه دون ان يشعر .
— لم استطع النوم .
— لم تستطع النوم انت الآخر ؟
ثم سارا فى فناء الدار يتمشيان .

قال جيويه مين :

— ابنة عمتنا ذكية وشجاعة ، تريد ان تتخذ من نولا* قدوة لها . تقول ان عليها ان تقرر امور نفسها بنفسها . وهكذا صممت على التقدم الى الامتحان لدخول مدرسة اللغات الاجنبية . هل تظن عمتنا توافق ؟

لم يجب جيويه هوى .

— دائما ما اتحدث اليك عن تشين ، لا اظناك تضحك منى .

— ابدا ، اعلم انك تحبها كثيرا . ينبغى ان تكون شجاعا . اتمنى لكما السعادة من صميم قلبى .

فقال جيويه مين فى تأثر :

— ما الطفاك يا اخى !

وفجأة تناهت الى سمعهما نغمات حزينة باكية ، فوقفا ، وتساءل جيويه هوى فى دهشة واستغراب :

— من هذا الذى ينفخ فى المزمار فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

— اخونا الاكبر ينفخ كل ليلة فى الايام الاخيرة .

— النغمات حزينة تفتت الاكباد . ولكن ما الذى يؤلمه ؟

قال جيويه مين فى اسى :

— هل نسيت ابنة الخالة مى ؟ كانت رفيقة الصبا لأخينا

---

* نولا : اسم بطلة مسرحية « بيت الدمية » للكاتب المسرحى النرويجى هنريك ابس .

الاكبر ، يحب كل منهما الآخر منذ الصغر : ولكن وقع خلاف بين زوجة ابينا وبين الخالة ، فخطبوا لأخينا على عجل بأمر ابينا وجدنا مفرقين بذلك بينه وبين الاخت مى . مسكين اخونا !

— ولكن كل ذلك قد مضى . اخونا الاكبر يعيش اليوم مع زوجته فى وئام ، وابنهما هاى تشن قد تجاوز الرابعة ، اظن ان اخانا قد نسى الاخت مى من زمان .

— ليس الامر بالبساطة التى تتصورها ، ليس من السهل نسيان الماضى . لعلك تذكر حال اخينا يوم العرس ، كان مثل التمثال لا يضحك ولا يبكى ، وكنت شديد القلق عليه . ومن حسن الحظ ان زوجته امرأة لطيفة شديدة الحنو عليه .

وبعد صمت قصير واصل جيويه مين حديثه قائلا :

— لا شك ان اخانا قد سمع بعودة الاخت مى الى حاضرة المقاطعة مؤخرا . لقد مرت سنوات لم يمس فيها مزماره .

— قد يكون الامر كما تقول . احب اخى الاكبر ، ولكنى انكر عليه مبدأ عدم المقاومة الذى يلتزمه فى الحياة . انه يلتزم هذا المبدأ فى كل الامور ، حتى انه ترك غيره يتحكمون فى قضية زواجه دون اية مقاومة ، وكانت النتيجة . . .

—كانت النتيجة انه حطم نفسه ، وحطم حياة الاخت مى .

فى هذه اللحظة اختفى القمر وراء السحب ، وخيم الظلام على فناء الدار .

اطلق جيويه مين آهة طويلة ، ثم قال :

— انا شديد الخوف يا اخى ، لا اعرف طعم النوم الهانئ في هذه الليالى . يخيل الى ان الحان مزمار اخى نذير شؤم بالنسبة لى : فان حالى مع ابنة العمة تشين لا يختلف كثيرا عما كان عليه اخونا مع الاخت مى . اخشى ان ينتهى بى الامر الى ما انتهى اليه امر اخى .

اصغى اليه جيويه هوى ، وقد تراءت فى مخيلته صورة مينغ فنغ بعينيها السوداوين .

— مستحيل ! لا يمكن ان ينتهى بنا الامر الى تلك النهاية ، لا انت ولا انا ، لأن الزمان قد تغير .

قالها جيويه هوى فى ثقة تامة وقد بدا على محياه البشر والسرور فى ضوء القمر الذى اقتحم كتل الغيوم ، وغمر الارض بنوره الفضى .

٨ — حياة السجن

انفرجت ازمة الصدامات بين الطلاب والجنود اخيرا ، وانتهت بانتصار الطلاب فى ظاهر الامر .

الاخ الاكبر جيويه شين يذهب كل يوم الى مكتبه كالمعتاد . والاخ الثانى جيويه مين يذهب كل مساء الى بيت عمته ليعطى تشين دروسا فى الانجليزية . اما جيويه هوى فلا يزال سجين الدار ، يعانى الوحدة والسآمة ، يتصفح الصحف فلا يجد ما كان ينشر فيها من انباء ومقالات حول الحركة الطلابية ، فما

كان منه الا ان امتنع عن قراءة الصحف .

كان عليه ان يذهب الى غرفة جده صباح مساء ليحييه ، وليرى وجهه الاصفر ووجه محظيته المطلى بالاحمر والابيض ، ووجه عمه الخامس الذى ينطق بالخبث واللؤم ، وليرى وجها آخر فى بعض الاحيان ، وجها شديد الشبه بوجوه الموتى ، هو وجه فنغ ياو شان رئيس الجمعية الكونفوشية .

ثم يهتف فى نفسه ساخطا متذمرا : " انتظروا ! سوف يأتى يوم ، احطم فيه كل شىء هنا ، واتخلص من حياة السجن هذه ! "

واخذ يتهرب من لقاء افراد الاسرة ، وقد زاد من سخطه وضجره ان مينغ فنغ صارت تتهرب من لقائه كما خيل اليه ، فلم تسنح له اية فرصة لينفرد بها . فراح يتساءل : ما الذى يحرم على ان احبها علانية ؟ ألأنها جارية ؟ أليست الجارية انسانة مثل الآخرين ؟ آه ، اللعنة على هذا البيت ! على هذه المقبرة !

كان يشعر فى قرارة نفسه كأنه يعيش فى صحراء مقفرة موحشة ، فلم يجد خيرا من ان يلجأ الى دفتر يومياته ، يتحدث فيه الى نفسه :

" لما خرجت من غرفة جدى صباح اليوم ذهبت الى حديقة الدار فى خطى متثاقلة . كانت روى جيويه زوجة اخى الاكبر تقطف فيها زهرة الشتاء ومعها ابنها هاى تشن . وادركت انى مكتئب النفس ، فدعتنى الى لعب الشطرنج عندها . غلبتها فى اللعب ثلاث مرات متتالية ، ولكنها لم تتضايق . حدثتنى طويلا لتخفيف الحزن عنى : " دع عنك الكآبة يا اخى ، اعرف انك متألم

فى هذه الايام بعد ان منعوك من الخروج : يجب ان تواجه الامر بصدر واسع . ينبغى ان تهتم بصحتك فلا تغتم كثيرا . اذا احسست بالضيق يمكنك ان تأتى عندى لندردش ، او تتمشى فى الحديقة . بعد يومين او ثلاثة ، عندما تهدأ نفس جدك ، سيسمح لك بالخروج بطبيعة الحال . " فامتدحت وقوفها الدائم الى جانبنا نحن الطلاب فى قضايا المظاهرات ، وتوزيع النشرات ، واشدت لها بعطفها ورقة قلبها ، وادركت عندها لماذا يحبها اخى الاكبر هذا الحب الشديد .

الواقع ان زوجة اخى هى الشخص الوحيد فى هذه الاسرة الكبيرة الذى لا يضع على وجهه قناعا . فحتى جدى يحبها ، بل يحبها الجميع من سادة وخدم باستثناء السيدة تشن محظية جدى وزوجة عمى الرابع وزوجة عمى الخامس اللاتى كثيرا ما حاولن ايذاءها . آه ، حتى هذه الانسانة الطيبة لا تنجو من حقد بعضهم !

انصرفت من عند زوجة اخى شاكرا ، ثم تمشيت وقتا طويلا فى الحديقة ، حتى جاءت مينغ فنغ تدعونى الى الغداء . وقفت بعيدة وصاحت : " سيدى الثالث الغداء جاهز ! " ثم ارتدت على عقبيها . فأسرعت اليها وسألتها : " لماذا تهربين منى ؟ " نظرت الى طويلا ، ثم اطرقت رأسها وقالت : " اخاف كثيرا . . اخاف ان تعرف سيدتى وغيرها بالامر . " فوضعت رأسها بين يدى ، ونظرت الى عينيها وقلت : " لا تخافى ، انت طاهرة . وحبنا طاهر . " ثم تركتها تنصرف وانا اتساءل : " لماذا يمكن

للسيدة تشن التى يثير مرآها الغثيان ان تلزم جدى علانية طول اليوم ، بينما لا استطيع انا ان ابادل مينغ فنغ الحديث الا فى الخفاء ؟ "

كنت اتحدث مع اخى الاكبر بعد العشاء حين جاءت الجارية " وان ار" التى تخدم اسرة عمى الثالث تقول ان سيدتها ترجو من اخى ان يذهب ليشارك فى لعب الماجونغ مع والدتها. تنهد اخى ولم يسعه الا الذهاب مع الجارية . اخى رجل ضعيف يطيع كل من يكبره سنا فى الاسرة كائنا من كان ، انى اعطف عليه وارثى لحاله ، ولكنى لا ارضى عنه ، بل انى لا افهمه . اريد ان اكون رجلا مختلفا عنه كل الاختلاف ، اريد ان اقاوم واناضل ، اريد ان اخرج من البيت على الرغم من اوامر جدى . لا بد ان اخرج !

٩ ــ من اجل هذه الاسرة

اقترب عيد رأس السنة القمرية الجديدة ، وكانت اسرة قاو مثل سائر الاسر الغنية قد بدأت الاستعدادات منذ ايام كثيرة للاحتفال بالعيد ، وبدا طيف ابتسامة على وجه السيد الكبير الاصفر الشاحب ، الا انه لا يزال يمضى اوقاته خارج البيت كعادته . فهو اما ان يذهب الى مسرح من المسارح ، او يلعب الماجونغ فى بيت صديقه فنغ ياو شان ، او يجتمع بأصدقائه فى بيت احدهم ليمتعوا ابصارهم بما يقتنيه صاحب الدار من التحف واللوحات الفنية الرائعة .

فى اليوم السابق لعشية العيد زار جيويه مين وجيويه هوى اخاهما الاكبر فى مكتبه . فارتسمت على وجه جيويه شين علامة الدهشة حين وقع نظره على جيويه هوى ، وكف عن عملياته الحسابية على المحسب وسأل :

ـ خرجت من البيت ؟ ماذا نعمل اذا عرف جدى ؟

قال جيويه هوى مزهوا :

ـ لا اخاف اذا عرف ، لقد بدأت اخرج منذ بضعة ايام .

قطب جيويه شين جبينه ، وقال فى شيء من الحيرة :

ـ جدى سلمك الى ، واذا ما اكتشف انك غائب عن البيت ، فسيحاسبنى .

فقال جيويه مين محاولا تلطيف الجو :

ـ لا تقلق يا اخى . جدى مسرور فى هذه الايام . اظن انه قد نسى الموضوع تماما .

وقال جيويه هوى فى عناد :

ـ العيش فى مثل هذه الاسرة انما هو فى الواقع مضيعة للشباب وهدر للحياة ! ينبغى للانسان ان يكون حرا فى الحياة ، فما معنى الحياة من دون حرية ؟

غمغم الاخ الاكبر قائلا :

ـ الحرية ؟ ! لم انعم يوما بالحرية ، ولن انعم بها ابدا .

قال جيويه هوى :

ـ وهل حرمانك من الحرية يلزم الآخرين بعدم النضال فى سبيلها ؟!

ثم اضاف متجاهلا اشارة جيويه مين الخفية :

— لم لا نهب معا نحن الاخوة الثلاثة لنقاوم ؟

— نقاوم ؟ انت تجهلنى كل الجهل ! ان حياتى قد انتهت من زمن بعيد !

صمت جيويه هوى ، ولم يقل شيئا ، وقد تذكر هو واخوه الثانى فى نفس اللحظة تقريبا تلك النغمات الحزينة الباكية التى سمعاها فى تلك الليلة المقمرة .

واردف جيويه شين قائلا :

— كنت شابا نشيطا مثلكم ، وكانت لى احلامى وامنياتى ، الا انها تحطمت جميعا بسبب هذه الاسرة . كنت اريد دراسة الكيمياء ، فاذا بى اجلس هنا طول اليوم احرك خرزات المحسب فى عمليات حسابية لا نهاية لها . احببت الاخت مى ابنة الخالة ، ولكنى تزوجت من غيرها . وضعت على عاتقى اعباء الكبار ، وانا شاب صغير . انتما لا تحبان هذه الاسرة ، وانا ايضا لا احبها ، ولكنى اختلف عنكم فى شىء واحد هو انى اخوكم الاكبر . من واجبى ان افكر لخير هذه الاسرة ليل نهار ، وان ابذل حياتى من اجل الحفاظ على كيان هذه الاسرة وترميم ما قد يصيب بناءها من خلل . زوجنى ابى وهو على فراش المرض ، كان يتلهف ان يرزق بحفيد ، وكان جدى يرجو ان يرى فى حياته تمام بركة الاسرة بأن تعيش اربعة اجيال منها معا . كيف يطاوعنى قلبى على المخالفة وانا الابن البكر والحفيد البكر ؟ ثم لما اشتد بأبى المرض ، امسك بيدى وقال : " لم يعد لى امل فى الشفاء ،

اوصيك بزوجة ابيك وباخوتك واخواتك ، فلا تخيب املى ! "
ما كان يجوز لى ان اتجاهل وصية ابى ، فلا اعبأ بمستقبل اخوتى واخواتى سعيا وراء حريتى الخاصة ، لذلك آثرت التضحية طائعا . تعلمون ان عمنا الثانى مات فى سن مبكرة ، وهكذا نجد اسرتنا الكبيرة تضم اليوم أربعة فروع : فرع ابينا الراحل وفروع اعمامنا الثلاثة . عمنا الثالث رجل سليم الطوية ، اما العم الرابع والعم الخامس فهما ينظران فى شراهة الى ثروة جدنا ، وينظران بحنق الى انا الذى اشرف على شؤون الاسرة المالية بوصفى الحفيد البكر من فرع الابن البكر . ان اكبر مشكلة هى موقف زوجة العم الرابع ، لا ادرى ما الذى اغضبها من زوجة ابينا حتى راحت تخاصم فرعنا ، فتلفق الاكاذيب ضدنا ، وتخلق لنا المشاكل بالتواطؤ مع زوجة العم الخامس والسيدة تشن محظية جدنا . تقولان انى لا اقاوم ، ولكن ما فائدة المقاومة ؟ يستحيل ان نتفاهم مع نسوة بهذه الاخلاق وهن من جيل ابينا وجدنا ، ولا يمكن ان ننتصر اذا حاربناهن ، والويل لنا اذا اغضبناهن ! انكم لا تعرفون كم قاسيت من الآلام والكبت فى هذه الاسرة . ما احببت هذه الاسرة يوما ، ولكنى احبكم انتم ، ولا يسعنى الا ان ابذل التضحيات ، التزاما منى بواجباتى !

كانت الدموع تنهمر من عينيه وهو يتحدث .

قال له جيويه مين مواسيا :

– لا تحزن يا اخانا الاكبر ، نحن نحبك مثل ما تحبنا .

اما جيويه هوى فقد ندم على تسرعه فى معاتبة اخيه . فى

حين كفكف الاخير دموعه واستطرد يقول :

ـ اعمل من اجل هذه الاسرة بلا توقف ، ولكنى اتعرض للوم والتوبيخ من الجميع بلا توقف ايضا . لست اعمل سعيا وراء سعادة شخصية ، ولكن لا بد لى ان اعمل ، لأنى لا ازال حيا . . .

وامسك عن الحديث بغتة اذ سمع سعلة خارج النافذة ، فالتفت الى جيويه هوى ، وقال مذعورا :

ـ جدى جاء ! كيف تعمل ؟

وقبل ان يجيب جيويه هوى كان السيد الكبير قاو قد دخل ، فقال وعلى وجهه الاصفر بسمة خفيفة :

ـ آه ، كلكم هنا ، يمكنكم ان تعودوا الى البيت فى وقت مبكر ، سنقيم الليلة مأدبة لاستقبال السنة الجديدة .

ثم التفت الى حفيده البكر وقال :

ـ خرجت اليوم لشراء شىء من لوازم العيد ، تعال معى لنقوم بجولة فى السوق .

اوما جيويه شين برأسه فى خشوع ، وخرج وراء العجوز .

ضحك جيويه مين فى مرح ، وقال :

ـ نسى موضوعك فعلا .

وقال جيويه هوى :

ـ لو كنت مطيعا مثل اخى الاكبر لبقيت محبوسا فى البيت حتى الآن . اقدر المصاعب التى يواجهها اخى ، ولكنى لن اكون مثله .

١٠ ـ انا المذنب

بدأت مأدبة " اجتماع شمل الاسرة " التى تقام سنويا لاستقبال السنة القمرية الجديدة . جلس الى المائدة الرئيسية السيد الكبير ومحظيته ، والى جانبيهما جلس الجيل الثانى من افراد الاسرة على الترتيب التالى : السيدة تشو ارملة والد جيويه شين ، فالسيد الثالث كه مينغ وزوجته السيدة تشانغ ، فالسيد الرابع كه آن وزوجته السيدة وانغ ، فالسيد الخامس كه دينغ وزوجته السيدة شن ، فالمدام تشانغ ابنة السيد الكبير ، ومجموعهم عشرة اشخاص . وجلس الى مائدة اخرى الجيل الثالث من الاسرة : جيويه شين واخوته وابناء اعمامه وبناتهم وزوجته روى جيويه وابنة عمته الآنسة تشين ، ومجموعهم اثنا عشر فردا . وجلس الى المائدة كذلك الطفل هاى تشن ابن جيويه شين تلبية لرغبة السيد الكبير فى ان يجتمع على مائدة العشاء السنوية الاجيال الاربعة من الاسرة .

قام على خدمة كل مائدة ثلاثة من الخدم يملأون للطاعمين الاقداح ، ويقدمون اطباق الطعام ، ووقفت الخادمات والجوارى بجانب المائدتين استعدادا لتلبية اى طلب .

بدا السيد الكبير مسرورا ، لا يفتأ يحث الحاضرين على الشراب ، فساد المائدة الرئيسية جو من السرور والمرح ، ثم ما لبث السيد الرابع والسيد الخامس ان بدأا رهان الكفين * ، وكذلك

* رهان الكفين : رهان يجرى على مائدة الشراب بين شخصين بأن يجلسا وجها لوجه ، وان يمد كل منهما فى لحظة واحدة وفى حركة

فعلت السيدة تشن وزوجة السيد الرابع .

وكان الجو اكثر مرحا على مائدة جيل الشباب ، حيث راحوا يشربون وهم يتحدثون ويتضاحكون .

واستمر العشاء الى ساعة متأخرة من الليل .

عندما استيقظ جيويه مين وجيويه هوى صباح اليوم التالى كانت الشمس قد ارتفعت الى كبد السماء . فاقترح جيويه مين على اخيه ان يقوما بجولة فى الحديقة . دخلا الحديقة من الباب المستدير المسمى "باب البدر" ، وسارا فى الممر المسقوف ، ثم عبرا جسرا مقنطرا واتيا امام مقصورة مبنية على شاطئ البحيرة ، فتوقف جيويه مين يستريح من السير .

احب جيويه هوى ان يدخل المقصورة ليطل من الطابق العلوى على مناظر الحديقة ، ولما صعد فوجئ بأخيه الاكبر راقدا فيها ، فصاح مندهشا :

— هذا انت يا اخى ؟ كيف تنام هنا ؟

فتح جيويه شين عينيه ونظر الى اخيه ، ثم قال وعلى شفتيه بسمة متكلفة :

— اردت ان اخلو الى نفسي بعض الوقت . تعبت كثيرا فى

سريعة احدى كفيه مبرزا عددا من اصابعها ، ويذكر فى الوقت ذاته رقما محاولا ان يطابق رقمه مجموع الاصابع التى يبرزها هو ونديمه . وتتكرر هذه العملية الى ان يأتى رقم احدهما مطابقا مجموع الاصابع المبرزة فيعتبر هذا رابحا فيعاقب الخاسر بشرب كأس من الخمر ، ثم يعودان الى الرهان . وجدير بالذكر ان الارقام تذكر غالبا فى صيحات عالية .

هذه الايام ، لقد ازعجوني بكل كبيرة وصغيرة فى الاستعداد للعيد ، حتى انهارت قواى ، فجئت هنا انشد بعض الراحة .

قال جيويه هوى فى لهجة صادقة :

ــ ما كان ينبغى لك ان تشرب كثيرا على العشاء امس ، فليس من عادتك ان تكثر من الشراب .

فقال جيويه شين وهو يبتسم فى مرارة :

ــ واقع الحياة يؤلمنى كثيرا ، فاذا شربت وسكرت ، نسيت كل شيء .

احب جيويه هوى ان يخفف من حزن اخيه ، الا انه لا يدرى ماذا يجب ان يقول له ، فاستدار يهم بالانصراف .

ــ لا تذهب يا اخى الثالث ، احب ان اسألك هل رأيت الاخت مى بنت خالتنا ؟

اندهش جيويه هوى من هذا السؤال ، فقال :

ــ الاخت مى ؟ كيف عرفت انها عادت الى المدينة ؟

فقال جيويه شين كأنه يحدث نفسه ، او كأنه يستعرض ما جرى له فى ذلك اليوم :

ــ انا رأيتها . نعم رأيتها قبل ايام امام دكان للاقمشة .

حدق جيويه هوى الى وجه اخيه وهو يقول فى نفسه : ما اشد تعس اخى ، لم يأت هذا المكان للراحة وانما خلا الى نفسه ليتعذب !

ــ كانت واقفة امام واجهة الدكان تتفرج مع امها على الاقمشة ، فعرفتها من اول نظرة ، وكدت اهتف باسمها ، وقد رأتنى بالمثل

ونظرت الى طويلا ، واختلجت شفتاها كأنما تريد ان تتكلم ، ولكنها لم تقل شيئا ...

وتوقف قليلا ثم اضاف :

– هذا اللقاء اعاد الى ذهنى كل ما مضى : ادركت اليوم انه يستحيل على ان انساها ، يستحيل ان انساها مهما شربت .

كان تبدو عليه امارات الالم الشديد ، كأن هناك شيئا ينهش قلبه .

وفى هذه اللحظة اقتحمت النافذة دفقة ريح قارصة اقشعر لها جسم جيويه هوى ، فقال لأخيه وقد تذكر نغمات المزمار الحزينة فى تلك الليلة :

– خير لك ان تنسى الماضى . علينا ان ننظر اكثر الى الحاضر ، وان نفكر اكثر فى المستقبل . لا تعذب نفسك . ربما نسيتك هى من وقت طويل .

– لا يمكنها ان تنسى ، ليس من السهل على المرأة نسيان الماضى . مات زوجها وهى فى عنفوان شبابها ، وعادت اليوم الى بيت امها وحيدة بلا معين . انا المذنب فى كل ما حل بها . ولكن لم يكن لى حول ولا قوة . كيف لا افكر فيها الآن وهى فى حالتها هذه ؟ ولكن زوجتى تحبنى حبا شديدا ، وسأحس بالذنب نحوها ان انا افكر دائما فى غيرها . سأجنى على هاتين المرأتين معا اذا بقيت على هذه الحال . انى ابكى واحقد ، ابكى على حظى لتعسه ، واحقد على نفسى لضعفها ، واشرب لأنسى !

– كل شىء سيتحسن . ينبغى لك ألا تبتئس . المشكلة ستحل

اذا احبت الاخت مى رجلا آخر وتزوجت منه ، ألا ترى ذلك ؟

فقال جيويه شين فى يأس :

ـ هذا مستحيل . انت تهتم بقراءة الكتب الحديثة ، ولكنك لا ترى الواقع ، ولا تفكر فيه .

وارتفعت خارج المقصورة ضحكات صاخبة ، فأطل جيويه هوى من النافذة ، فرأى اخاه جيويه مين واخته الصغرى شو هوا وغيرهما يلعبون ، فناداهم ، وبادلهم بعض الاحاديث ، ثم تراجع من امام النافذة ليجد اخاه الاكبر قد انسل من المقصورة .

١١ ـ حزن دفين

ما ان خيم الظلام فى ذلك اليوم حتى دوت المفرقعات النارية هنا وهناك .

سجد اهل الدار امام مذبح الاسلاف ، ثم خرج اعمام جيويه شين الثلاثة فى محفات الى بيوت الاقارب والاصدقاء للمعايدة ، بينما اعدت مائدة للعب الماجونغ فى جناح السيد الكبير .

كان جيويه هوى منشرح الصدر ، فقد جاءته مينغ فنغ وهنأته بالعيد ، فأدخلت على نفسه سرورا لا يوصف بتمنياتها القلبية الصادقة وبسمتها الطاهرة ونظرات عينيها الصافيتين .

وقال له جيويه مين فى صوت هامس :

ـ لنذهب معا الى بيت الاخت تشين لنهنئ عمتنا بالعيد .

فى بيت عمتهما لقيا الاخت مى على غير انتظار ، وجداها

كعهدها السابق رشيقة القوام فاحمة الشعر بعينين واسعتين نجلاوين ، الا ان ضفيرتها الطويلة قد اختفت ، وحلت محلها كعكة شعر شأن المرأة المتزوجة ، وان تجعدات جبينها بدت اعمق مما كانت .

وجم الثلاثة لا يدرون ماذا يقولون فى هذا اللقاء غير المتوقع .

فقطعت الاخت تشين حبل الصمت بقولها :

ــ ما لى اراكم صامتين ؟

وعندها قالت مى بصوت متقطع :

ــ اخى الثانى ، واخى الثالث .. كيف حالكم ؟ فى هذه السنوات ...

قال جيويه هوى :

ــ كلنا بخير يا اختى ، وكيف انت ؟

فقالت مى بجهد :

ــ انا .. كالسابق كما ترون . الذى استجد هو زيادة حزنى فى السنوات الاخيرة . ولا عجب فى هذا ، فان من طبعى سرعة التأثر والحزن . كثيرا ما اشتقت اليكم منذ افترقنا .. لقد عشت هذه السنوات كأنى فى حلم ، فلما افقت ، لم اجد حولى شيئا .

قالت لها تشين :

ــ يجب ألا تتشاءمى يا اختى . الزمن قد تغير ، العصر الجديد سيأتيك بالسعادة .

ــ ليس فى وسعى مسايرة تطورات الزمن . ظللت تحت رحمة القدر ، ولم اكن يوما سيدة نفسى . العصر القديم حطمنى .

ولكن اين العصر الجديد ؟ لم يبق لى اى امل ! انا اغبطك كثيرا يا اختى تشين : انت جريئة حازمة ، لست مثلى ...

وقبل ان تتم مى عبارتها الاخيرة تدخل جيويه هوى فى الحديث وقال بادى الانفعال :

– على الانسان ان يناضل مهما يكن من امر ، على الانسان ان يسعى الى السعادة بجهوده الخاصة !

وقال جيويه مين :

– الواقع يا اختى انك لا تختلفين عن الاخت تشين الا فى شيء واحد ، هو انك تزوجت وكأنك رأيت فى المنام حلما مزعجا . الدنيا فى الحقيقة واحدة ، ولكنك تنظرين اليها نظرة تشاؤم ، وهذا سبب كآبتك وحزنك . اما الاخت تشين فهى تنظر الى الدنيا نظرة تفاؤل ، لذا ترى الحياة حافلة بالآمال .

وقال جيويه هوى وهو يظن ان الكتب الحديثة تساعد على حل جميع المشاكل :

– يحسن بك ان تقرئى الكتب الحديثة .

– ما فائدة الكتب لأمثالى ؟ لم يعد فى الامكان تدارك ما فات . اخذت من عند تشين اعدادا من مجلة « الشباب الجديد » وقرأتها ، ولكن القراءة زادت من آلام نفسى . ان مثلى فى ذلك كمثل متسول يتضور جوعا ، مر امام بيت غنى ، فشم رائحة الاطعمة الشهية ، وسمع الضحكات المرحة ، فلم يزده ذلك الا احساسا بوطأة الجوع القاتل ...

واصابتها نوبة سعال ، فتوقفت عن الحديث ، وعندما هدأت

قليلا اضافت :

– اسعل كثيرا فى هذه الايام ، صدرى يؤلمنى ، ولا انام فى الليل .

فقالت لها تشين فى اشفاق :

– ارجو ان تنسى الماضى يا اختى ، وألا تعذبى نفسك . فكرى فى صحتك . لعلك تسعدين غدا .

– غدا ؟ ان ما مضى من حياتى قد نقش على صفحة قلبى ، فلا يمكن محوه ، اما حياتى الحاضرة فانى لا اجد فيها احدا اتحدث اليه . اخى الصغير منهمك فى دراسته ، وامى مشغولة عنى بلعب الماجونغ وزيارة الصديقات . اننى اليوم كشجرة كانت ملتفة الاغصان ، فلما اقبل عليها الخريف ، بدأت اوراقها تتساقط . كل واحد منكم له غد ، اما انا فلا رجاء لى فى غد ، كل ما عندى هو الامس المنصرم !

هنا التفتت الى جيويه مين ، وسألته بلا مقدمات :

– كيف حال الاخ الاكبر ؟ لعله بخير !

وجم جيويه مين امام هذا السؤال المفاجئ ، وكان جيويه هوى اكثر فطنة فأسرع يقول :

– هو بخير ، قال انه رآك .

– وانا ايضا رأيته . لقد تغير كثيرا ، ومع ذلك فقد عرفته فى الحال ، ربما غضب منى لأنى اعرضت عنه ، والحقيقة انى شديدة الشوق الى رؤيته . جاء هنا قبل قليل .

ولاحت على محياها اشراقة السرور ، الا انها سرعان ما تلاشت .

— لم اكن املك الشجاعة على مواجهته . انتظرت حتى استأذن بالانصراف ، فاختلست النظر اليه من شق الباب وهو يسير مبتعدا ...

واخرجت منديلها ووضعته على فمها لكبح نوبة سعال .

وقاطعتها تشين فى رجاء :

— آه ، كفى يا اختى ! جئت باك الى بيتى لتقضى العيد فى سرور ، ولكن الذنب ذنبى حيث اخبرت الاخوين بوجودك هنا ، فأثار لقاؤكم هذه الذكريات المؤلمة .

فابتسمت مى قائلة :

— كلا ! بل اجد راحة فى الحديث عن هذه الامور ، انتم لا تعلمون كم اعتز بتلك الذكريات !

قال كل من الشقيقين فى نفسه : ما اشد حب الاخت مى لأخى الاكبر !

وسارا صامتين فى طريق العودة ، فكل منهما مشدود الى ما يشغل ذهنه .

١٢ — ما العمل

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلا حين عاد الاخوان من بيت تشين . وكانت دارهما لا تزال تعج بالحركة . ولقد تناهت الى سمعهما ، وهما على مسافة من الدار ، اصوات منبعثة من الداخل ، تمتزج فيها الضحكات الصاخبة بصيحات الشاربين

وهم يتراهنون بالاكف . ثم الفيا بوابة الدار مفتوحة على مصراعيها . كان السادة والسيدات فى اسرة قاو يمرحون ويتسلون عشية العيد ما طاب لهم المرح والتسلية .

لم يدخل جيويه هوى الجناح الرئيسى مع اخيه . اذ لم يكن يرغب فى لعب الماجونغ ، ولم يكن فى حالة نفسية تسمح له بالمرح والفرح . كان فناء الدار فى تلك الساعة يسرده جو من الهدوء التام ، ولكن جيويه هوى اعتقد ان هذا الهدوء يخفى وراءه بركانا ، قد يثور بين لحظة واخرى .

سار جيويه هوى الهوينى فى فناء الدار على غير هدى. ابتعد عن الجناح الرئيسى حيث يقامر اعمامه ويصخبون ، ومر امام احدى الغرف ، فاستوقفه صوت مألوف لديه يقول :

- سمعت انهم سيختارون منا واحدة ...

كان الصوت صادرا من الغرفة ، عرف فيه صوت الجارية وان ار التى تخدم عند عمه الثالث .

- سيختارونك بلا شك ، لأنك اكبر منى .

كان هذا صوت مينغ فنغ ، فانتبه جيويه هوى اكثر ، وجلس على كرسى تحت نافذة الغرفة .

قالت وان ار فى غضب :

- اكلمك بجدية وانت تهزئين منى ؟ يا لك من عديمة الضمير !

فقالت مينغ فنغ عابثة :

- اهنئك ، وانت تقولين انى عديمة الضمير !

ـ ومن تحب ان تكون محظية ؟!

عادت مينغ فنغ تقول فى مرح :

ـ الواقع ان حياة المحظية لا بأس بها . انظرى الى السيدة تشن محظية السيد الكبير ...

فتحولت وان ار الى الهجوم قائلة :

ـ انت تتظاهرين بعدم المبالاة . حسنا ، سوف نرى . ربما اختاروك انت ، فلا داعى لأن يختارونى انا بالضرورة .

انتظر جيويه هوى جواب مينغ فنغ فى لهفة شديدة ، الا انه مرت فترة طويلة قبل ان تقول :

ـ اذا اختارونى فعلا ، فماذا اعمل ؟

ـ فى هذه الحال لا يسعك الا الطاعة ، فما حيلتنا ، ونحن جوار لسوء حظنا ؟!

فقالت مينغ فنغ فى جزع شديد :

ـ لا ، لا ، لن اذهب حتى ولو قتلونى !

فقالت وان ار تطمئن مينغ فنغ ، وكأنها بذلك تحاول طمأنة نفسها :

ـ لا تقلقى ، عند ذاك يمكننا ان نطلب المساعدة من سيدتك او من سيدتى . ثم ان هذا الخبر قد يكون غير صحيح ، لا يعقل ان يتخذ السيد فنغ محظية جديدة وهو فى هذه السن . ربما اخترع بعضهم هذه القصة بقصد تخويفنا .

ثم خفت صوت الفتاتين ، ولم يعد جيويه هوى يسمع بوضوح ، الا انه بقى جالسا مكانه ينتظر ، وهو يلعن فى سره هذا البيت

البغيض وليلة العيد المشؤومة .

ثم غادرت وان ار الغرفة تلبية لنداء بعضهم ، فنهض جيويه هوى واقفا وراح ينقر زجاج النافذة وهو ينادى فى نفاد صبر :

ـ مينغ فنغ ! مينغ فنغ !

ـ من ؟

رفعت مينغ فنغ ستارة النافذة ، وهى تسأل . فلما وقع نظرها على جيويه هوى ، صاحت فى ذعر :

ـ سيدى الثالث ؟ ماذا تريد ؟

قال فى انفعال :

ـ انا سمعت حديثك مع وان ار .

ـ سمعت حديثنا ؟ ولكنا كنا نمزح .

ـ تمزحان ؟ ولكن ما العمل اذا اختاروك ؟

اجابت مينغ فنغ فى حزم :

ـ لن اذهب ! لن اتزوج شخصا آخر . انا اقسم لك !

ثم قالت فى ضراعة :

ـ سيدى الثالث ، اذهب بسرعة ارجوك ، حتى لا يروك هنا .

الا أنه قال فى اصرار :

ـ لا اذهب الا اذا اخبرتنى بالحكاية كاملة !

ـ حسنا يا سيدى العزيز . يقولون ان السيد فنغ ياو شان يريد اتخاذ محظية ، ويرغب فى ان تكون من جوارى هذه الدار . وسمعوا ان سيدنا الكبير ينوى اختيار واحدة منا انا ووان ار لترسل

اليه . سمعت وان ار هذا النبأ من سيدتها فى الفرع الثالث ، فأسرعت الى واخبرتنى . وقد سمعت رأيى منذ قليل ، ارجو ان تنصرف بسرعة لئلا يراك احد هنا .

قالت هذا ، واسدلت ستارة النافذة فى حركة عنيفة . ووقفت وظهرها الى النافذة ، واغمضت عينيها ، تاركة جيويه هوى يقرع النافذة ويناديها دون ان تجيب بكلمة اخرى .

وسالت الدموع ساخنة على وجنتيها .

١٣ - مجىء الاخت مى الى اسرة قاو

كانت النفوس لا تزال نشوى بفرحة العيد حين وقعت الحرب بين حاكم المقاطعة العسكرى وقائد احد الفيالق . القتال يجرى فى شوارع المدينة وضواحيها ، والرصاص ينهمر على سطوح المنازل ، وقذائف المدافع تشق الفضاء مزمجرة ، وتسقط على بعض المبانى فتهدها .

وفى دار السيد قاو خرج الجميع من غرفهم ، ووقفوا فى الفناء يتشاورون .

فى هذا الوقت بالذات اقبلت المدا م تشانغ بابنتها الآنسة تشين ومعهما الاخت مى ، وقالت :

— ظننت ان هذه المنطقة اكثر امنا ، فجئنا نلوذ ببيتكم .

كانت مى عندنا حين وقع القتال ، ولم تستطع العودة الى بيتها لانقطاع المواصلات فى تلك الناحية ، فجاءت معنا . . .

وقبل ان تتم عبارتها مرت فوق الرؤوس قذيفة مدفع ، فلم يجدوا خيرا من اللجوء الى الحديقة موقتا كما اقترح جيويه شين .

وحين دخلت مى الحديقة امسكت بيد تشين وقالت :

ـ مضت خمس سنوات على آخر مرة زرت فيها هذه الحديقة .

ثم اضافت ، والدموع تترقرق فى عينيها :

ـ ولكن ماذا يفيدنى اللجوء الى هنا ؟ هذه المناظر هى نفس المناظر السابقة ، كل زهرة او شجرة هنا ، كل تلة او جدول تبعث فى ذهنى ذكرى مؤلمة .

فقالت لها تشين فى اشفاق :

ـ لم تعذبين نفسك يا اختى ؟

قبل ان تجيب مى طرق سمعهما وقع اقدام . فالتفتت تشين الى الوراء لتجد روى جيويه زوجة الاخ الاكبر مقبلة نحوهما ، وهى تمسك بيد ابنها هاى تشن . وقالت ضاحكة الوجه :

ـ فيم تتهامسان هنا ؟

تحولت اليها مى محمرة الوجه ، ولم تحر جوابا ، بينما بادرت تشين تقول :

ـ جئت فى الوقت المناسب ، لقد كنا نتحدث عنك ، ونعدد نواقصك .

فأسرعت مى تقول :

ـ لا تصدقيها يا أختى !

ـ اعرف يا اختى مى انى دون الاخت تشين فى نواح كثيرة ،

هى تقرأ كثيرا ، وستدخل مدرسة جديدة ، ثم انها جميلة وشجاعة . . .

فسألت تشن فى جدية ظاهرة :

ـ وماذا ايضا ؟

فقالت روى جيويه ضاحكة :

ـ وفى نواح اخرى ايضا .

ثم غيرت مجرى الحديث وقالت لمى :

ـ منذ وقت طويل وانا احب ان اراك . لطالما سمعتهم يتحدثون عنك ! ولكن لم اجد اية فرصة للقائك . واليوم سعدت برؤيتك على غير موعد .

ابتسمت مى ، وامسكت بيد الولد وسألت :

ـ هذا هو هاى تشن ؟

اجابت روى جيويه مبتسمة :

ـ نعم .

ثم قالت للولد :

ـ قل مرحبا يا عمة !

فأطاع الولد ونادى " عمتى " مرتين .

انحنت مى وحملت الولد ، ثم قالت ، وهى تمرر يدها على وجهه الصغير :

ـ هو كثير الشبه بأخى الاكبر وخاصة عينيه .

ثم تحدثن طويلا . وشعرت روى جيويه بارتياح كبير لمى ، فقد وقعت الاخيرة من قلبها موقع الرضا .

١٤ ـ بجوار التلة الاصطناعية

كان السيد الكبير قاو وابنته المدام تشانغ وآخرون جالسين حول مائدة الماجونغ فى مقصورة بحديقة الدار حين دخل جيويه شين ، ووقف امام جده منتصب القامة ، ونقل اليه ما سمع من انباء الحرب . ثم تسلل من المقصورة حين وجدهم منهمكين فى اللعب .

سار فى الحديقة ، فرأى طائرين فى الجو ، وتمنى لو انقلب الى طائر صغير ليسبح حرا طليقا فى اجواز الفضاء الشاسع . توقف عن السير ، واستند الى شجرة يحدق امامه الى لا شيء .

فجأة ، ظهرت امرأة من وراء تلة اصطناعية ، تمشى مطرقة الرأس ، وفى يدها غصن صفصاف رفيع . ورفعت هذه المرأة رأسها ، فرأت جيويه شين . وقفت مترددة بعض الوقت ، واختلجت شفتاها كأنما تريد ان تقول شيئا ، الا انها سرعان ما استدارت على عقبيها ، وسارت فى الطريق الذى اتت منه دون ان تنبس بكلمة .

رآها جيويه شين حين ادارت له ظهرها ، فانتابته رعشة باردة من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، وتساءل فى حيرة : " لم هربت منى ؟ " . غير انه لم يتردد طويلا ، بل اسرع وراءها ليستوضحها الامر .

انعطف الى ما وراء التلة ، فوجدها واقفة تحت شجرة خوخ ، فلم يتمالك ان هتف : " مى ! " فرفعت اليه بصرها ، ولم تهرب منه .

تقدم اليها وسألها فى انفعال :

ـ مى ! لم تهربين منى ؟!

نكست رأسها ، ولم تجب .

ثم سألها والالم يعتصر قلبه :

ــ الى الآن لم تصفحى عنى ؟

هنا رفعت رأسها ، ونظرت اليه برهة . ثم قالت فى هدوء :

ــ لم تفعل لى ما يستوجب الصفح يا اخى الاكبر .

فقال فى صوت حزين :

ــ هذا يعنى انك تأبين الصفح .

لاحت على شفتيها بسمة باهتة ، ولانت نظراتها ، وقالت بصوت خافت ، وهى تضغط بيدها على صدرها :

ــ ألا تعرف ما فى قلبى يا اخى الاكبر ؟ متى حقدت عليك انت ؟

ــ ولكن لماذا تتجنبيننى ؟ لقد افترقنا سنين عديدة ، ولما اتيحت لنا فرصة اللقاء ، ابيت التحدث معى . لو لا انك تحقدين على . . .

ولم يستطع المتابعة من شدة الحزن .

خفضت مى رأسها ، وقالت متمهلة :

ــ ما حقدت عليك ابدا . ولكن اخشى ان اقابلك ، فأتذكر الماضى .

راح جيويه شين ينظر اليها شارد الفكر ، لا يدرى ماذا يقول لها ، فى حين تحركت مى وهى تقول :

ــ انا ذاهبة الآن يا اخى لأشاهد لعبة الماجونغ .

وقبل ان تنعطف عند نهاية التلة ناداها رغما عنه : " مى ! "

فوقفت ، واستندت الى بعض صخور التلة ، واطرقت برأسها .
فقال لها ، وهو يجهش بالبكاء :
— قد تغادرين غدا فلا نجد فرصة اخرى للقاء . أيطاوعك قلبك ان تنصرفى دون توديعى ولو بكلمة واحدة ؟
تلاحقت انفاس مى على الرغم من بقائها صامتة .
— مى ! انا اخطأت معك . . ولكن الامر لم يكن بارادتى !
كان يبكى . فأخرج منديله ، الا انه لم يجفف دموعه ، بل تركها تسيل على وجنتيه ، واستمر يقول :
— عرفت انك قاسيت كثيرا فى هذه السنوات ، وكل ذلك بسببى انا . كيف يمكننى ألا اقلق عليك كلما فكرت فى ذلك ؟ انا ايضا قد عانيت الكثير ، ومع ذلك تأبين ان تقولى كلمة صفح !
رفعت اليه عينين مغرورقتين بالدموع ، ثم لم تتمالك نفسها عن البكاء . وقالت فى صوت متقطع :
— ذهنى مشوش يا اخى ، ماذا تريدنى ان اقول ؟
لم يطق رؤيتها فى هذا الحزن الطاغى ، فأخذ يجفف دموعها بمنديله ، فلم تمانع فى البداية ، غير انها ابعدت يده اخيرا وهى تقول :
— لا تفعل هذا . عليك ان تجنب نفسك الشبهة .
وهمت بأن تبتعد ، فأمسك بيدها وقال :
— اية شبهة اتجنب الآن ، وانا اب لطفل ؟ كيف تنصرفين ، وانت على هذه الحال ؟
عندها تناولت من يده المنديل وكفكفت دموعها ، ثم ردته

اليه وقالت :

ــ ما مر على يوم طوال هذه السنين ولم افكر فيك . لا تعلم كم فرحت حين نظرت اليك ، وانت تنصرف من بيت الاخت تشين عشية العيد . منذ عدت الى حاضرة المقاطعة ، وانا ارجو ان اراك . ولكنى فى الوقت ذاته اخاف ان اراك . تحاشيت مواجهتك ذلك اليوم امام دكان الاقمشة . ثم ندمت . لقد فعلت ذلك مكرهة . معى امى ، ومعك زوجتك ! ثم ان زوجتك طيبة جدا ، حتى اننى احببتها انا الاخرى . لا احب ان اذكرك بالماضى . ان حياتى قد انتهت ، ولكنى لا احب ان اسبب لك الالم ، او اسبب لزوجتك الالم . امى لا تفهم همومى . افضل ان اموت على ان اعيش هذه الحياة .

وتنهدت من الاعماق ، فى حين وضع جيويه شين يده على صدره ، اذ احس بألم شديد فى قلبه .

وقفا يتبادلان نظرات صامتة . واخيرا ابتسم فى اسى ، وراح يسترجع ذكريات الماضى ، ويتحدث عن الايام التى كانت مى تقيم فيها بهذه الدار ، تتعلم معه على يد مدرس خصوصى .

وقالت مى بصوت خفيض :

ــ أعيش اكثر اوقاتى على الذكريات . ان استعراض ذكريات الماضى ينسى المرء كل شىء فى بعض الاحيان . ليتنى عدت الى عهد الطفولة ، ولكن الزمن لا يسير القهقرى . ينبغى لك يا اخى ان تهتم بصحتك جيدا ...

وتوقفت عن الحديث حين سمعت وقع اقدام تقترب .

اقبلت روى جيويه زوجة جيويه شين ومعها طفلها . وعندما رأت مى حزينة تقدمت اليها ، وقالت :

ـ لا تحزنى يا اختى . تعالى معى نتمشى قليلا فى مكان آخر .

ثم سارت بها بعد ان تركت الولد فى رعاية زوجها .

١٥ ـ قلبان طيبان

وبعد ايام عادت المدام تشانغ وابنتها تشين الى بيتهما . وابدت مى رغبتها فى العودة الى بيت امها ، الا ان السيدة تشو ارملة والد جيويه شين الحت عليها بالبقاء فبقيت .

وجاءت السيدة تشيان والدة مى بعد ظهر ذلك اليوم على غير توقع لزيارة ابنة عمها السيدة تشو ، فرحبت بها هذه الاخيرة ، وقد تناستا ما كان بينهما من سوء تفاهم بعد ان افترقتا هذه السنين .

جلست الاختان تلعبان الماجونغ . وشاركتهما مى وروى جيويه فى اللعب . وعندما عاد جيويه شين من العمل نهضت روى جيويه عن المائدة مخلية المكان لزوجها ففعل .

كان جيويه شين ومى يجلسان متقابلين غير انهما قلما يتحدثان او يتبادلان النظرات . وشرد ذهن جيويه شين فبات يخطئ فى اللعب كثيرا . وحين لاحظت روى جيويه منه ذلك وقفت وراءه تقدم له المشورة . وكان يلتفت وراءه بين الفينة والفينة ،

يبادل زوجته نظرات كلها حب وحنان . لم يغب ذلك عن عينى مى ، فتألمت كثيرا ، وقالت فى سرها : لو ان امى فهمت مشاعرى لما انتهيت الى حياة الوحدة والوحشة التى اعيشها اليوم ! واخيرا لم تطق البقاء فى مجلسها ، فنهضت ، ورجت من روى جيويه ان تجلس مكانها زاعمة انها ستغيب قليلا لبعض الشؤون ، نظرت الاخيرة اليها فى حنان ، وجلست دون ان تقول شيئا . غير انها رفعت نظرها الى مى مرة او مرتين وهى تغادر الغرفة .

عادت مى الى مخدع شو هوا اخت جيويه شين الصغرى الذى تشاركها فى سكناه هذه الايام . لم يكن بالغرفة احد . فاستلقت على السرير ، وراحت تفكر فيما مضى من حياتها وفيما هى عليه اليوم ، فلم يزدها التفكير الا حزنا واسى . وشرعت تبكى فى صمت ، ثم احست بالتعب ، وما لبثت ان استسلمت للنوم .

استيقظت على صوت حنون ينادى : يا اختى مى ! فتحت عينيها لتجد روى جيويه واقفة امام سريرها .

سألتها روى جيويه فى لطف :

ـ كنت تبكين ؟

تكلفت مى الابتسام واجابت :

ـ رأيت فى المنام حلما مزعجا ، فبكيت .

جلست روى بجوارها ، وامسكت بيدها ، ثم قالت فى صوت كله عطف ومحبة :

ـ لا شك انك مهمومة يا مى . لم تكتمين عنى الحقيقة ؟ ألا تصدقين انى احباك . وانى ارغب فى مساعدتك رغبة صادقة ؟

فقالت مى وهى تهز رأسها اسفا :

— ليس فى مقدورك ان تساعدينى يا اختى !

وعادت تبكى بكاء صامتا . فربتت روى على كتفها ، وقالت فى صوت باك :

— لقد ادركت سبب آلامك يا اختى مى . اعرف انكما كنتما متحابين . ما كان ينبغى له ان يتزوجنى . . لماذا لم تتزوجيه يا اختى ؟ . . لقد اخطأنا نحن الثلاثة جميعا . . ثقى اننى ارجو ان اتمكن من الانسحاب لأدعكما تعيشان معا حياة سعيدة .

رفعت مى رأسها وقالت :

— انت اسأت الفهم يا اختى . الواقع انه لا داعى لأن اخفى عنك الحقيقة . ان والدتى وزوجة ابيه هما اللتان فرقتا بيننا ، حصل بينهما خلاف لسبب تافه ، ففرقتا بينى وبينه . . ايه ! ولكن ما جدوى الكلام الآن فى كل ذلك ؟ اننى اغبطك ، وارجو لكما السعادة .

اعتملت فى نفس روى جيويه شتى المشاعر ، وهى تصغى الى مى التى استمرت تقول :

— ثم تزوجت . لم اكن راضية عن هذا الزواج ، ولكن الامر لم يكن بيدى . عشت فى اسرة زوجى تشاو سنة واحدة ، كانت الحياة جحيما ، لا ادرى كيف استطعت تحملها . اعتقد انى لو بقيت عندهم سنة اخرى او سنتين لما عشت حتى اليوم لأراك هنا . ارجو ألا تتألمى من اجلى . كنت قد قررت بينى وبين نفسى ألا اراه ثانية ، ولكنى اشعر كأن شيئا غير مرئى يجذبنى

اليه ، واشعر فى الوقت ذاته كأن هناك شيئا آخر يقصيني عنه ، ارجو ألا تؤاخذيني . . والآن صممت على العودة الى بيت امى .

تألمت روى كثيرا . وضعت يديها على كتفى مى ، وقالت فى ود صادق :

– لم اكن اعرف اناك عانيت كل هذه الآلام . الذنب ذنبى حيث اثرت الموضوع ، وجررتك الى هذا الحديث . انت تعانين اكثر مما اعاني . ارجو ان تزوريني بين حين وآخر . انا احبك من صميم قلبى يا ابنة الخالة . كم ارجو ان انتزع قلبى من صدرى واعرضه عليك لترى حبى الصادق لك . انت اكبر منى بسنة ، ارجو ان تعتبريني شقيقة صغيرة لك . عديني ان تزوريني دائما ! بذلك تثبتين انك لا تكرهينني ، واناك قد صفحت عني .

قالت مى فى تأثر شديد :

– لا ادرى كيف اشكرك يا عزيزتى !

امسكت روى بيدى مى بقوة ، وخفق قلباهما الطيبان خفقانا شديدا ، دون ان تستطيع صاحبتاهما الافصاح عن مشاعرهما بالعبارات .

١٦ – مينغ فنغ تقاوم

انقضت ايام الحرب ، وعادت الحياة فى حاضرة المقاطعة الى مجراها الطبيعي . وصرح الحاكم العسكرى الجديد بأنه سينتهج سياسة جديدة . وفعلا طرأ بعض التغيرات على حياة المجتمع .

عاد الطلاب الى نشاطهم السابق ، فأصدر الاخوان جيويه مين وجيويه هوى بالتعاون مع زملاء آخرين مجلة اسبوعية سموها « مجلة الفجر » . وساهم جيويه هوى فى اعمال المجلة بكل حماسة .

وذات ليلة ، وبينما كان جيويه هوى منصرفا بكل اهتمامه الى مراجعة مقالات معدة للنشر فى المجلة ، دعيت مينغ فنغ الى المثول بين يدى السيدة تشو زوجة والد جيويه هوى . بدأت السيدة تشو حديثها بروية :

ـ اشتغلت يا مينغ فنغ سنين طويلة فى هذا البيت ، وفى هذا ما يكفى .

ثم اندفعت تقول :

ـ لاشك انك ترغبين فى مغادرة الدار فى اقرب فرصة . لقد اصدر السيد الكبير اليوم امره باهدائك الى السيد فنغ الكبير لتكونى له محظية . وغدا سيبعث السيد فنغ من يأخذك .

بكت مينغ فنغ بحرقة ، وهى تجد املها قد تبخر تماما حين سمعت كلام سيدتها الذى اصاب قلبها بطعنة نجلاء .

ـ ما بك يا مينغ فنغ ؟ لم تبكين ؟

ـ لا اريد ان اذهب يا سيدتى . لم اخدم هنا الا ثمانى سنوات . . لا ازال صغيرة ، ارجو ألا تهدونى اليه . . ارحمينى يا سيدتى . . .

وخانها النطق . واستمرت تبكى كأنها وجدت فى البكاء ما يخفف من حزنها . ثم جثت على ركبتيها وامسكت بيد سيدتها وقالت فى ضراعة :

ــ انقذيني يا سيدتي !

هزت السيدة رأسها فى اسى وقالت :

ــ ما باليد حيلة يا مينغ فنغ ! ليس فى وسعى ان ابقيك . هذه اوامر السيد الكبير ، لا اجرؤ انا الاخرى على المخالفة . . انهضى ، واذهبى للنوم !

لم تجد مينغ فنغ ما يدعوها للبقاء ، فغادرت الغرفة فى خطى متثاقلة . كان فناء الدار غارقا فى ظلام دامس ، وعندما اقتربت من غرفة الاخوين جيويه مين وجيويه هوى تسالل الى نفسها بصيص من الامل ، اذ رأت ضوءا ضعيفا ينبعث من الغرفة . تقدمت فى حذر ، ونقرت النافذة ونادت فى صوت خافت : سيدى الثالث ! ثم تراجعت خطوتين وانتظرت . ومرت دقائق دون ان تسمع حركة .

تذكرت حينئذ قول جيويه هوى قبل ايام : " سأتخذك زوجة . " وقولها له : " لن اتزوج شخصا آخر ، انا اقسم لك . " فأحست بالألم ينهش قلبها ، واخضلت عيناها بالدموع .

كانت مينغ فنغ تنتظر بقلب واجف رؤية جيويه هوى . الا ان هذا كان منهمكا حينذاك فى الكتابة تحت ضوء المصباح الكهربائى . ولما طال بها الانتظار ، دلفت الى الغرفة ووقفت بجوار مكتبه ونادت بصوت خافت :

ــ سيدى الثالث !

رفع رأسه وقال فى دهشة :

ــ أ هذه انت يا مينغ فنغ ؟

ثم ابتسم فى وجهها وسأل :

ـ ما الذى جاء بك هنا ؟

ـ اردت ان اراك . . .

فقال على عجل قبل ان تتم كلامها :

ـ لعلك عاتبة على لأنى لم اتحدث اليك فى هذه الايام ، فظننت انى تعمدت ذلك . دعى عنك هذه الشكوك ! انا مشغول جدا فى المدة الاخيرة ، اقرأ واكتب ، ولدى اعمال اخرى .

ثم اضاف وهو يشير الى مسودات المقالات المكدسة امامه :

ـ ألا ترين كثرة اعمالى ؟ غدا سيتحسن الحال ، سأنتهى من هذه الاعمال غدا .

ـ غدا ؟

غمغمت فى صوت يائس ، وهى تدرك تماما ماذا تعنى هذه الكلمة بالنسبة اليها .

قالت وهى تحبس دموعها بكل جهد :

ـ سيدى الثالث . اريد ان اقول لك كلمتين . . .

ـ ألا ترين انى جد مشغول يا مينغ فنغ ؟

ـ اذن انا ذاهبة .

قالت ذلك فى استسلام ، وسارت نحو باب الغرفة . ثم توقفت وسألته قائلة :

ـ هل ستذكرنى يا سيدى ؟

قال جيويه هوى فى لطف :

ـ ما هذا الكلام السخيف يا مينغ فنغ ؟ لن انساك طول الحياة ، انا احبك . . اطمأن قلبك الآن ؟ طيب ، اذهبى ونامى !


家

نقلت مينغ فنغ خطواتها صوب الباب وهى تغمغم :

— حسنا ، انا ذاهبة . . هذه المرة انا ذاهبة بالتأكيد !

دخل جيويه مين بعد قليل ، وابتدر جيويه هوى قائلا :

— جاءت مينغ فنغ قبل قليل ؟

— نعم .

— يا لها من فتاة مسكينة ! قرر جدى تقديمها الى العجوز فنغ ياو شان ليتخذها محظية له !

— ماذا ؟ فنغ ياو شان ؟ يتخذ محظية وهو فوق الستين ؟ !

صاح جيويه هوى وقد ادرك غرض مينغ فنغ من زيارتها . نهض فى الحال ، وانطلق خارجا حتى جاء غرفة الخادمات ، وناداها مرارا ، فلم يرد عليه احد .

لم تعد مينغ فنغ الى غرفتها بعد ان خرجت من عند جيويه هوى . بل اتجهت رأسا الى الحديقة ، وجاءت الى شاطئ البحيرة ، ووقفت تستعيد فى ذاكرتها تلك اللحظات السعيدة التى امضتها مع جيويه هوى فى هذا المكان ، وهى تعلم انها لن تنعم بعد اليوم بتلك السعادة بعد ان لاح لها شبح فنغ ياو شان يتوثب للهجوم عليها بوجهه الشرس .

تملكها الحزن والالم ، واشتد بها اليأس . وبغتة خيل اليها انها تسمع صيحات خافتة صادرة من مكان بعيد تنادى : مينغ فنغ ! مينغ فنغ ! فأرهفت سمعها الا ان الصيحات تلاشت وساد السكون الشامل . لم يعد فى الامكان تلافى ما اعدوا لها . راحت تحملق فى ماء البحيرة الذى كان يتلألأ فى ظلام الليل ، ثم نادت

فى نفسها : سيدى الثالث ! جيويه هوى ! والقت بنفسها فى الماء .

١٧ – "امقت هذا البيت !"

بعد موت مينغ فنغ زوجوا الجارية وان ار للعجوز فنغ ياو شان .

وسرعان ما نسوا فى اسرة قاو مأساة مينغ فنغ . ولكن لم يكن من السهل على جيويه هوى ان ينساها .

حين سمع جيويه هوى بانتحار مينغ فنغ انطلق الى شاطئ البحيرة ، وهناك اخذ يلطم رأسه فى لوعة واسى ، وقد عضه الندم انه لم يساعدها .

واسرع اليه شقيقاه يواسيانه . فقال جيويه شين :

– لقد ماتت ، ارجو ألا تحزن كثيرا .

قال جيويه هوى باكيا :

– هل يمكننى ألا احزن ؟ انا احبها وهى تحبنى . لا شك انها جاءتنى ليلة امس لأساعدها فى ايجاد حل ، ولكنى . . .

وقال الاخ الثانى :

– وما الذى كان فى وسعك ان تفعل لو انها صرحت لك بحقيقة الامر ؟ هل كان فى وسعك انقاذها ؟ هل فى وسعك ان تثنى جدك عن عزمه ؟

هنا امسك جيويه هوى عن البكاء ، وشد قبضته ، وخبط

جذع شجرة كبيرة خبطة قوية ، وصاح :

– انا امقت هذا البيت ! احقد على النظام البالى نظام اكل الانسان لأخيه الانسان ! لا بد ان افضح هذه المساوئ !

ونشر جيويه هوى فى مجلتهم مقالا له ، ندد فيه بمظالم فنغ ياو شان .

١٨ – قضية زواج جيويه مين

بدأت العطلة الصيفية فى المدارس ، فوجد جيويه مين وابنة العمة تشين فرصا اكثر للقاء . كانا اذا فرغا من دروس الانجليزية ، تبادلا الاحاديث عن الطموحات الشخصية والآمال والمستقبل . لم يشأ احدهما ان يفارق الآخر على الرغم مما سمعاه من تقولات . لقد ربط الحب بين قلبيهما .

وفيما كانا يخططان لحياة المستقبل نقل جيويه هوى الى جيويه مين النبأ التالى :

– اخى الثانى ، سمعت ان جدى سيزوجك ببنت من اقارب العجوز فنغ ياو شان ، بنت شرسة الخلق ، لم يجد اهلها من يرضى الزواج بها . وقيل لى ان الاتفاق قد تم على ذلك بين الاسرتين . لا شك ان هذا الامر من ألاعيب العجوز اللعين فنغ ايضا .

كانت الضربة شديدة بلا ريب ، الا ان جيويه مين لم يستسلم . قال لأخيه فى اقتضاب :

ـ يجب ان اكون صاحب الكلمة الاخيرة فى امر زواجى .

ايد جيويه هوى اخاه وشجعه ، وصح عزمهما على ان يشقا فى هذا البيت طريقا جديدا . وكتب جيويه مين من فوره خطابا الى تشين ، قال فيه :

عزيزتى تشين :

ارجو ألا تصدقى اى نبأ تسمعينه عنى ، فان بعضهم خطب لى دون علمى . لقد وعدتك بأن اكون لك ، وانا لن اتراجع عن وعدى ! انت تثقين بى ، ورجائى ان تثقى بى حتى النهاية . سوف ترين كيف اناضل حتى اكتسبك .

جيويه مين

سارت الاستعدادات فى طريقها المعتاد رغم اعتراض جيويه مين لهذا الزواج القسرى الذى يحاول جده ان يفرضه عليه فرضا ، ولكنه حين رأى ان اعتراضه لن يجديه نفعا ، غادر البيت خفية بمعاونة جيويه هوى هربا من الزواج .

ثم ذهب ذات يوم لزيارة تشين . وحين ظهر عند مدخل بيتها صاحت فى جذل مصحوب بالدهشة :

ـ هذا انت ؟

وكادت ترتمى بين ذراعيه .

ـ نعم ، هذا انا يا اختى تشين . كان ينبغى ان آتى لزيارتك قبل اليوم ، ولكنى كنت اخاف ان اقابل عمتى .

طفرت دموع الفرح من عينى تشين ، وهى تقول :

ـ كنت اعرف انك ستأتى .

لم يكن فى البيت احد غيرهما . فجلسا يتحدثان فى جو هادئ . اخبرته تشين ان السيدة تشيان والدة الاخت مى جاءت قبل ايام تخطبها لرجل لا تعرفه . ثم قالت :

ـ لن اتزوج رجلا لا اعرفه مهما كان عظيم الثروة او واسع النفوذ . ان فتيات كثيرات ذهبن ضحايا نظام الزواج القديم . وانا لن اسير فى ذلك الطريق . اريد ان اكون انسانة حرة مثل الرجل ، اريد ان اسير فى طريق آخر ، فى طريق جديد !

سر جيويه مين سرورا عظيما بقول تشين . كانا يشعران فى هذه اللحظة بأن قوة لا تقاوم قد ربطت بينهما ، وان ليس هناك اية مصاعب يمكن ان تفرق بينهما . كانا يجدان فى الحب والثقة المتبادلة ما يشد ازرهما ، ويريان فيه الامل والسلوى .

وراح جيويه مين يرنو فى حب وشغف الى وجه تشين الذى بدا اكثر فتنة من شدة السرور والغبطة ، ولم يهن عليه ان ينصرف .

تأخر الوقت فلم يسع جيويه مين الا ان ينهض قائلا :

ـ ينبغى لى ان انصرف الآن يا تشين . سآتى لأراك فى فرصة اخرى . ارجو ان تهتمى بصحتك . انتظرى الخبر السار منى .

سار مبتعدا ، وهى واقفة امام البيت ، تشيعه بنظراتها .

١٩ ـ نعى مى

ظل يؤلم جيويه شين احساس بالتقصير فى حق اخيه جيويه

مين ، فقد رأى ان من واجبه مساعدته مهما تكن الاحوال . واخيرا ، وبعد طول تفكير ، قرر ان يشفع له عند جده .

لم يستمع الجد لجيويه شين ، بل عنفه ، وهدد بأنه اذا لم يعد جيويه مين الى البيت ، فانه سيعلن فى الصحف انه ينكر انتماء جيويه مين الى اسرته ، ثم يجبر جيويه هوى على الزواج من الفتاة بدلا من اخيه .

ولما عرف جيويه هوى من اخيه الاكبر ما عزم عليه جده ، ضحك ساخرا ، وقال :

ـ لا اخاف ! سأجد وسيلة افضل لمواجهة المشكلة .

ونعت اخاه جيويه شين بالضعف والعجز .

كان جيويه شين جالسا في غرفته ، يرتجف من شدة الغيظ بسبب الاذى الذى تعرض له من جده واخيه الصغير حين دخل عليه احد الخدم وقال له فى صوت لاهث :

ـ توفيت الاخت مى !

خرجت روى جيويه من الغرفة الداخلية مسرعة ، وقد شحب لونها ، وسألت مذعورة :

ـ الاخت مى ماتت ؟ متى ؟

اجاب الخادم :

ـ قالوا ماتت بعد السابعة صباح اليوم .

دقت ساعة الحائط تسع دقات ، وران على جو الغرفة صمت مطبق . ومرت لحظات قبل ان يصدر جيويه شين امره الى الخدم :

ـ اعدوا محفتى فى الحال !

قالت زوجته باكية :

ـ اذهب معاك .

ـ ارجو ألا تذهبى يا عزيزتى . انت حامل ، الحزن يؤذيك . عليك ان تهتمى بصحتك .

ـ احب ان اراها ، اذكر انها عندما زرتها وامها ذلك اليوم ودعتنى امام الباب وامسكت بيدى ، والدموع تملأ عينيها ، ورجت منى ان ازورها بين حين وآخر ، ولم اتصور ان ذلك كان آخر لقاء بيننا . اريد الذهاب اليها لألقى عليها النظرة الاخيرة .

ـ يجب ان تهتمى بصحتك . انت الانسانة الوحيدة التى بقيت لى بعد موت مى ، فاذا حصل لك شىء ، فانى هالك لا محالة .

وصل جيويه شين الى بيت خالته ، وما ان نزل من المحفة حتى سمع اصوات بكاء ، فأسرع بالدخول ، واتجه الى مخدع مى ، فرأى خالته وابنها الصغير ، والاخت تشين يبكون حول جثمان مى . ولما رأته الخالة ، كفت عن البكاء ، وقالت :

ـ كيف اعمل يا جيويه شين ؟

ـ والتابوت ؟

ـ بعثت من يشتريه فلم يعد بعد .. ماتت مى منذ اكثر من ساعتين ، ولم نستطع عمل شىء حتى الآن . انا امرأة لا حول لى ولا قوة ، وابنى لا يزال صغيرا . اننى حائرة مضطربة الذهن .

فطمأنها قائلا :

ـ لا تقلقى يا خالة ، ثقى انى سأقدم كل مساعدة ممكنة .

قالت فى لهجة صادقة :

– انت طيب القلب ، ستكون مى شاكرة لك ايضا فى العالم الآخر .

اضطرب حين سمع كلمة "شاكرة" ، واحس كأن حزمة من الابر اخذت تخز قلبه وخزات شديدة . وقال فى نفسه : "كيف تشكرنى مى ، وقد انتهت الى هذه النهاية بسببى ؟ انا الذى سببت لها المصائب ."

كانت مى راقدة فى سريرها ، وعليها لحاف خفيف ، عيناها شبه مغمضتين ، وشعرها متهدل بجانب مخدتها ووجهها الضامر شديد الشحوب ، وشفتاها منفرجتان قليلا ، كأنها كانت تهم بالكلام حين فاجأها الموت .

وقف بجانب السرير ، وقال فى صوت خفيض :

– جئت لأراك يا مى .

وخنقته العبرات . ثم تساءل فى لوعة وحزن : "أ هكذا افترقنا والى الابد دون ان تتركى لى اية كلمة ؟ لم لم آت قبل الآن ؟ لو فعلت ذلك لأمكننى ان ارى حركة شفتيك ، واسمع صوتك ، واعرف فيم تفكرين ." ومرة اخرى ناداها بصوت خافت :

– جئت لأراك يا مى . انا هنا . ان كان لديك شيء تحبين قوله ، فأنا مصغ .

ولكن مى ظلت راقدة مكانها كصخرة صماء ، وادرك انها لن تسمعه ولو بح صوته من النداء ، وانها لن تستطيع الحراك ثانية . لقد وقف بينه وبينها حاجز ابدى ، ولم يعد بمقدور احدهما

الاتصال بالآخر .

مزق قلبه الندم والحسرة ، وانفجر يبكي يائسا .

فتقدمت اليه تشين ، وقالت :

— ليس هذا وقت البكاء يا اخي . ارجو ان تساعد في ترتيب شؤون الجنازة على وجه السرعة .

تنهد وقال :

— نعم !

وغادر الغرفة مع خالته للتشاور وترتيب ما يلزم .

ثم عادت الام ، وصاحت باكية :

— اراك لا تطبقين شفتيك يا مي ، هل تريدين ان تقولي شيئا ؟ تكلمي انا امك . . انا التي اوديت بك يا مي ! كنت عمياء لا ارى ما في قلبك ، فحلت دون زواجكما ، وسببت لك الشقاء طوال هذه السنين . اليوم ندمت ، وعرفت انى اخطأت . هل تسمعين يا مي ؟ لم لا تردين على ولو بكلمة ؟

جرت مراسم الجنازة بين البكاء والعويل . كان جيويه شين يقف شارد الذهن بجوار التابوت الذى احكم اغلاقه بعد ان ووري فيه جثمان مي ، كان يبكي في صمت ، وكانت تشين تنتحب ، وتقول في نفسها وقد تخايلت امام عينيها صورة جيويه مين : " لا بد ان اناضل ، لن اكون " مي " اخرى ! " اما جيويه هوى فلم يباك ، كان صدره يمتلئ حنقا وغيظا . كان يقول في نفسه : يا اختى مي ، كم اود ان اخرجك من التابوت لتفتحي عينيك ، وتفهمي أنك انما مت مقتولة !

٢٠ ــ موت السيد الكبير

عاشر كه دينغ ، الابن الخامس للسيد الكبير قاو ، رفاق السوء ، فسرق حلى زوجته واتخذ محظية ، اسكنها فى منزل آخر دون علم زوجته . ثم عرفت زوجته ذلك ، وشكته الى السيد الكبير ، فثار ثائر الشيخ ، واستدعى ابنه اليه ، وعنفه وامره ان يصفع خديه بنفسه . فراح هذا يلطم خديه ، وزوجته التى كانت تستمع خارج الغرفة تصب الشتائم على اسرة قاو :

ــ كل الاسرة من كبار وصغار بهائم !

فزاد ذلك من نار الغضب اشتعالا فى صدر السيد الكبير ، وفاجأته نوبة سعال حاد ، احس بعدها بتعب شديد ، وداعب جفنيه النعاس ، فصرف ابنه مستاء ، ونهض وتقدم نحو سريره ، ولكنه ما ان خطا خطوتين حتى غامت عيناه ، واحس بالغرفة تدور وتدور ، فترنح فى مشيته ، واظلمت الدنيا امام عينيه وما لبث ان غاب عن الوعى .

مرض السيد الكبير قاو ولزم الفراش . فدعوا له الاطباء ، لكن لم يظهر عليه اى تحسن .

وذات يوم زاره جيويه هوى ، فقال الشيخ لحفيده وهو يلهث :

ــ هذا انت ؟

ثم اضاف ، وعيناه مغرورقتان بالدموع :

ــ هل رأيت اخاك الثانى ؟ لعله بخير ؟

تأثر جيويه هوى من هذه اللهجة الرقيقة التى لم يعهدها فى

جده ، فأجاب :

— نعم .

— اذهب حالا واحضره لى ! قل له انى سأضع موضوع زواجه جانبا . اخشى ألا اعيش طويلا . أحب ان اراه ، ان اراكم جميعا ...

خرج جيويه هوى من عند جده وذهب فورا الى حيث يقيم جيويه مين ، وانهى اليه الخبر . فسر جيويه مين كثيرا . وذهب هو وجيويه هوى الى تشين ، ونقلا اليها النبأ السار . تحدثوا فى غبطة وسرور ، وضحكوا كثيرا . ثم صاح جيويه هوى فى جذل وهو يصفق :

— ها قد انتصرنا !

وعاد الاخوان من بيت تشين ودخلا غرفة جدهما ، فوجداها مكتظة بالناس ، والمريض جالس فى اريكته مطرق الرأس لاهث الانفاس . تقدم اليه جيويه هوى وصاح :

— جدى ! جدى ! لقد احضرت اخى الثانى !

ونادى جيويه مين :

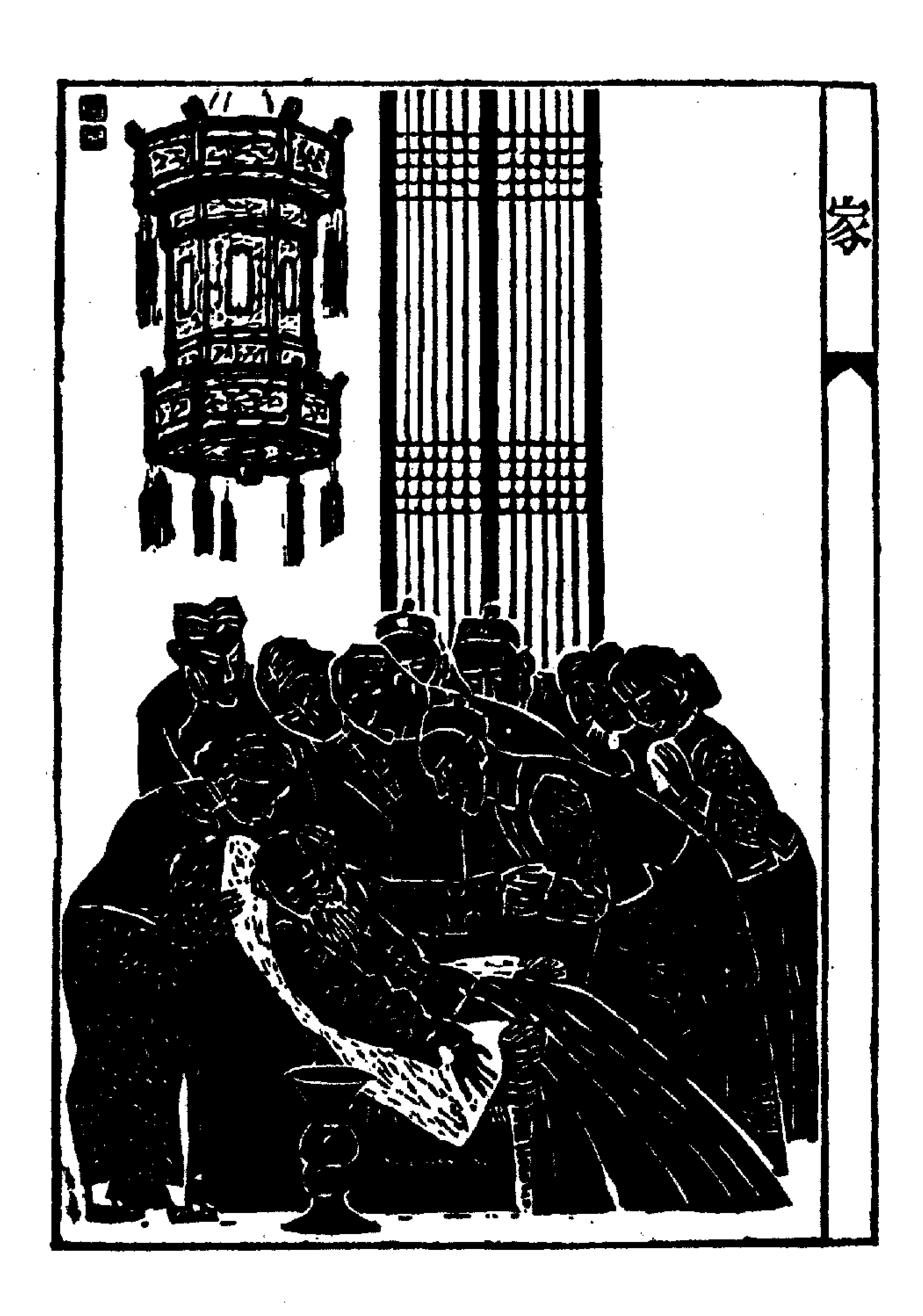
— جدى !

رفع الشيخ رأسه ، وقال فى صوت متقطع :

— عدت .. لن نتحدث بعد اليوم عن موضوع زواجك من اسرة فنغ . عليكما ان تدرسا بجد ومثابرة ...

وتنهد ، ثم اضاف فى صوت واه :

— لا تنسوا كسب المجد لهذه الاسرة .. انا متعب ..



انا ذاهب . . .

ازداد صوت الشيخ خفوتا ، وهو يتكلم ، ثم تدلى رأسه على صدره ، واطبق شفتيه .

تقدم منه ابنه الثالث كه مينغ ونادى :

— ابى !

وكرر النداء ، الا انه لم يسمع جوابا وتحسس يده ، فصاح :

— يده باردة !

وركع الجميع على الارض وانطلقوا يبكون .

ولم تمض دقائق حتى انتشر فى الدار خبر وفاة السيد الكبير .

٢١ — هكذا يقتسمون التركة

حين عاد جيويه هوى الى البيت ذات مساء قالت له اخته شو هوا :

— هل تعرف ان جدى قد مات من شدة الحنق والغيظ على عمى الرابع وعمى الخامس ؟ لقد اتخذ كل منهما محظية وعاش معها فى منزل آخر ، كما ان كلا منهما اخذ من زوجته حليها الذهبية والفضية التى جاءت بها من عند اهلها ، وباعها . لقد افتضح امر العم الخامس يوم وجدت زوجته صورة امرأة فى جيب سترته ، فسألته عنها ، فرفض ان يقول لها من هى صاحبة الصورة . واتفق ان ذهبت زوجته بعد ظهر ذلك اليوم الى مخزن ، ورأت امرأة تنزل من محفة زوجها امام المخزن ، فعرفت فيها صاحبة الصورة .

سألت عنها فعرفت انها محظية اتخذها زوجها حديثا ، وان المرأة كانت بغيا واسمها "يوم الاثنين" . كما عرفت ان زوجها باع بعض حليها ، وخسر بعضها الآخر على مائدة القمار ، واهدى قطعا منها الى "يوم الاثنين" .

وتدفقت الكلمات من بين شفتى شو هوا ، كأنما اذا فتحت فمها ، عجزت عن اغلاقه ثانيا . لم يندهش جيويه هوى لما قالته شو هوا . كان يعرف اكثر مما تعرف اخته . فقد رأى عيانا عمه الرابع يذهب الى وكره السرى ، وكذلك رأى من عمه الخامس مثل ذلك ، وادرك ان هذه الاسرة الاقطاعية الكبيرة ماضية نحو الفساد والانحلال .

انصرفت شو هوا لشؤونها فى حين ذهب جيويه هوى الى الجناح الرئيسى ، فلم يجد فى القاعة احدا . وفجأة انبعث من مخدع جده الراحل صوت عمه الخامس كه دينغ وهو يصرخ :

– هذا لا يجوز ابدا ! يجب اقتسام كل الاشياء ، الاراضى والممتلكات ، وكذلك التحف ولوحات الرسم .

واعقبه صوت عمه الثالث كه مينغ :

– التحف واعمال مشاهير الرسامين والخطاطين كانت اعز شيء لدى ابينا ، بذل الكثير من المال والجهد فى جمعها ، فلا يصح لنا ان نقتسمها ونبعثرها .

ثم ارتفع صوت العم الرابع كه آن غاضبا :

– لا يهمنى مثل هذه الاشياء ، ولكن اذا لم نقتسمها اليوم ، فسيأتى من يبتلعها غدا .

وقال العم الثالث فى غيظ وهو يسعل :

ـ حسنا ، ما دمتم تصرون فلنقتسمها غدا ! ولكن ينبغى ان تعلموا انه ليس فى نيتى الاستئثار بهذه الاشياء .

ضحك كه دينغ ساخرا ، وقال :

ـ طبيعى اناك لا تحاول الاستئثار بها يا اخى الثالث ، فأنت محام كبير وواسع الثراء ، لا يمكن ان تكترث بهذه الاشياء البسيطة .

واعقبت ذلك حركة فى الغرفة ، ثم اصوات نسرة يتكلمن .

وبغتة ازيحت ستارة باب المخدع ، وخرج العم الخامس وهو يغمغم فى سخط :

ـ شيء غريب ! ميراث بموجب الوصية ! هدايا بموجب الوصية ! لا بد ان الوصية مزورة ! القسمة غير عادلة ابدا !

وغادر الصالة على اثر ذلك .

ثم خرج جيويه شين من المخدع مطرق الرأس ، فسأله جيويه هوى هازئا :

ـ اقتسمتم تركة جدنا ؟ متعجلون الى هذا الحد ؟ !

ودخل جيويه مين فى هذه اللحظة ، فسأل على عجل :

ـ وعمتنا ؟

تنهد جيويه شين متحسرا ، واجاب :

ـ حصلت عمتنا على اشياء قليلة واسهم بمبلغ ٥٠٠ يوان . لولا ان جدى اوصى لها بهذه الهدية ، لما نالت شيئا . السيدة تشن محظية جدنا حصلت على دار بموجب الوصية . انت تعلم

ان فرعنا هو الفرع الوحيد من بين فروع الاسرة ، الذى تربطه بعمتنا صلات طيبة . لذلك لم اجد احدا منهم يتكلم فى صالح العمة .

قال له جيويه مين معاتبا :

— وانت ؟ لم لا تتكلم فى صالح عمتنا ؟

وقبل ان يجيب جيويه شين قال الاخ الثالث فى صوت هامس :

— عمى الثالث خارج .

تحركت ستارة الباب ، وخرج كه مينغ فى خطى وئيدة ، وهو يتنحنح .

٢٢ — ضحية اخرى

اقترب موعد وضع روى جيويه .

كان كبار الاسرة قد انتهوا لتوهم من التصارع على تركة السيد الكبير ، فتناسوا خصوماتهم موقتا ليتحولوا الى محاربة جيل الشباب من فرع الاسرة الاول : جيويه شين واخوته .

ووجدوا فى روى جيويه الحامل اول هدف يسددون اليه ضرباتهم . فقالوا لجيويه شين :

— ينبغى لزوجتك مغادرة الدار قبل ان تلد لأن دم النفساء سيؤثر على جثمان السيد الكبير ويتسبب فى نزفه . عليها ان تنتقل الى خارج المدينة ، وان تعبر جسرا . . .

كانت حجتهم فى ذلك هى الحرص على راحة السيد الكبير النائم فى تابوته الذى لا يزال موضوعا فى الدار ، وهى حجة وجيهة بطبيعة الحال .

بوغت جيويه شين بهذه الضربة ، الا انه لم يعارض ولو بكلمة واحدة . انه لم يتلفظ طول حياته بكلمة تدل على المقاومة ، كان يتحمل كل شيء بصبر دون ان يفكر في ان تحمله هذا سيضر بسعادة الآخرين . ولم تنطق زوجته بكلمة تذمر قط ، لأنها تعلم ان زوجها عاجز عن حماية نفسه وعن حمايتها هي .

ولكن اخويه لم يستطيعا السكوت ، فسأله جيويه هوى معاتبا :

ـ هل تنوى حقا نقل زوجتك الى خارج المدينة ؟ هل جننت ؟ أتؤمن حقا بهذه الخرافات ؟

فرد جيويه شين فى ضجر :

ـ لا يسعنى الا الطاعة ، اخشى ان يتهمونى بالعقوق .

فقال جيويه هوى فى سخط بالغ :

ـ استسلمت مرة اخرى يا اخى ! لقد دفعت قبل اليوم ثمنا غاليا ! اعلم ان هذه زوجتك !

واسرعت روى جيويه تقول محاولة تبرئة زوجها من المسؤولية :

ـ ليس هذا رأى اخيك ، بل هو رأيى انا .

صاح جيويه هوى قائلا :

ـ لا ! ليس هذا رأى اخى ولا رأيك انت !

ثم اضاف فى لهجة جادة :

ـ عليك ان تناضل يا اخى !

وضرب له مثلا بأخيه الثانى ، واوضح له ان جيويه مين لو لم يناضل لما استطاع ان ينتصر ، بل كان من المحتمل ان يحطم مستقبله ، ويحطم مستقبل شخص آخر ، ويعنى به الاخت تشين .

– صحيح انكما قاومتما فانتصرتما . ولكن بسبب انتصاركما انهزمت انا ، لقد اسأتما اليهم ، فصاروا يصبون جام غضبهم على انا ، ويتحينون الفرصة للايقاع بى . لقد عانيت منهم كثيرا من جراء مسألة زواجك يا جيويه مين ! يمكنكما ان تتكلما امامى عن المقاومة وعن النضال ، ولكن لمن اقول هذه الكلمات الرنانة ؟

وسالت الدموع على خديه ، فى حين اخذت زوجته تنشج بالبكاء .

اغرورقت عينا جيويه مين بالدموع رثاء لأخيه الاكبر ، اما جيويه هوى فكان فى حالة نفسية مختلفة . تراءت امام عينيه فى هذه اللحظة مياه البحيرة والتابوت الموضوع على شاطئها . كان يحب الآخرين ويساعدهم ، يحترم ذويه الكبار ويعامل الخدم والجوارى فى لطف . ولكنه اكتشف بعد كل هذا تلك السحنة البشعة البغيضة لذويه الكبار ، ورأى كيف نمت قوى الشر فى هذه الاسرة ، وهى تدوس تحت اقدامها الحب الطاهر ، وكيف ذهب كثير من الشباب الناضر المحبوب ضحايا . عندها قال فى سره يشجع نفسه : "مهما يكن من امر ، فلا بد ان اسير فى طريقى الخاص ! "

اضطرت روى جيويه اخيرا الى الانتقال الى بيت خارج

المدينة غير بعيد عن المكان الذى يحفظ فيه تابوت مى . واستمر زوجها فى زيارتها يوميا .

وذات يوم ذهب جيويه شين لزيارتها كالمعتاد . فمنعته بعض النسوة من دخول غرفة زوجته ، لأنه يحرم على الزوج دخول غرفة امرأته وهى تلد حسب القاعدة وبناء على الاوامر المشددة من ذويه الكبار .

وقف امام باب الغرفة المغلق على احر من الجمر .

وبغتة ارتفعت من الغرفة صرخات ثاقبة ، ابى ان يصدق انها صرخات زوجته ، ولكن من يمكن ان تكون صاحبة الصرخات ان لم تكن زوجته ؟ ! وتتابعت الصرخات اشد من الاولى فانقبض قلبه وتملكه اليأس ، ولكن لم يكن بوسعه الا الانتظار .

واخيرا سكنت الصرخات وارتفع بكاء مولود جديد ، فاستبشر . ولكنه فوجىء فى اللحظة التالية بصيحة مروعة اعقبها بكاء نسوى .

لقد انتزع اله الموت الحياة من زوجته !

تملكه مزيج من الغيظ والحزن . لقد كان واقفا خارج غرفتها ، ولكنه لم يستطع انقاذها ، ولم يستطع حتى رداعها فى اللحظة الاخيرة .

لقد اتضح له ان هذا الباب الصغير المغلق هو صورة مجسدة للنظام الاجتماعى البالى والقواعد المسلكية المهترئة التى سلبته شبابه وسعادته ومستقبله ، وسلبته المرأتين اللتين احبهما . ولكنه يعرف ايضا انه لا يقدر على المقاومة ، لأنه رجل ضعيف !

بكى بكاء مرا لا على زوجته فحسب ، بل على نفسه كذلك !

٢٣ ـ وداعا ايها البيت !

دخل جيويه هوى غرفة اخيه الاكبر ، وقال له مهتاج النفس :

ـ لم اعد اطيق البقاء فى هذا البيت اكثر من ذلك يا اخى . لقد صممت على السفر !

فقال جيويه شين مندهشا :

ـ صممت على السفر ؟ الى اين ؟

ـ الى شانغهاى ، او بكين ، او اى مكان آخر . المهم ان اغادر هذا البيت .

تألم جيويه شين حين تصور ان اخاه الصغير سيفارقه . بينما اضاف هذا الاخير بلهجة من يستعد للمشاجرة :

ـ لا بد ان اغادر هذا البيت ، مهما كانت آراؤهم !

ـ لا تذهب يا اخى ، انهم لن يسمحوا لك بذلك .

ـ سأغادر البيت رغما عنهم لأرى ماذا يفعلون !

ـ سيجدون حججا كثيرة لمنعك . ثم انه لا يليق بك ان تغادر البيت وجثمان جدنا لم ينقل منه بعد .

انفجر جيويه هوى غاضبا حين سمع كلمة : جثمان جدنا ، وصاح :

ـ وماذا يعنينى من ذلك ؟ لن يجرؤوا على ان يفعلوا بى مثل ما فعلوا بزوجتك !

تألم جيويه شين كثيرا حين جاء ذكر زوجته ، الا انه ظل

ينصح اخاه بالبقاء . فذكره هذا بزوجته وبالاخت مى وبكل ما سببت له طاعته من مآس ، حتى اقتنع اخيرا ، ووعد اخاه بالمساعدة . وذهب يشاور ذويه الكبار فى الامر .

لم يوافق كبار الاسرة بطبيعة الحال . وقالوا ان السفر محفوف بالمخاطر ، وان شانغهاى مدينة المقاهى والملاهى ، اذا عاش فيها شاب ، فسدت اخلاقه ، وان الجد كان يعارض دخول الشباب المدارس الحديثة ، فما بالك بالدراسة فى مدينة كبرى مثل شانغهاى . . الخ . فهم جيويه شين انهم لن يسمحوا لأخيه بترك البيت ، ليس فقط قبل نقل جثمان الجد من الدار ، بل الى الابد .

وحين سمع جيويه هوى ذلك ، قال بلهجة حازمة :

ـ كلا ! لا بد ان اغادر البيت ، سأريهم اى صنف من الرجال انا !

وبينما كان الاخوان يتحدثان دخل جيويه مين والاخت تشين . ولما عرفا بالخبر ابديا تأييدهما لجيويه هوى . وقالا انهما بدأا ايضا يخططان لمستقبلهما : ستدخل تشين مدرسة اللغات الاجنبية التى بدأت بقبول الطالبات ، وسيتزوجان على الطريقة الحديثة ، وقد يسافران الى شانغهاى ، و . . . و . . .

عند ذاك قال الاخ الاكبر فى نفسه : " اسرتنا فى حاجة الى " متمرد " ! لا بد ان اساعد اخى الثالث على تحقيق امنيته ، وهو بنجاحه سيثأر لى . " ثم غرق فى التأملات ، واخيرا قال وكأنه يخاطب نفسه :

— انتظروا يا جماعة ! سوف ترون ان من يعيشون فى هذا البيت ليسوا كلهم طائعين مثلى !

وبعد بضعة ايام من الاستعداد غادر جيويه هوى البيت بمعاونة شقيقيه واصدقائه ، وطبعا درن عام ذويه الكبار .

ودعه فى الميناء اخوه جيويه مين وبعض الاصدقاء . ولم يحضر اخوه الاكبر الذى رأى من غير المناسب ان يأتى لترديعه .

تحرك المركب ، وسار مبتعدا عن الميناء ، فتضاءلت اشباح المودعين شيئا فشيئا الى ان اختفت فجأة عن ناظرى جيويه هوى .

انتابت جيويه هوى ، وهو واقف فى مقدم المركب ، احاسيس متناقضة ، لا يدرى أهى فرح ام حزن ، غير انه كان يعلم علم اليقين انه قد غادر بيته ، وان هذا الماء الذى يندفع الى الامام دون توقف سينقله الى مدينة كبيرة حيث ينمو كل شىء جديد ، هناك حركة جديدة ، واناس من طراز جديد ، هناك اصدقاء من الشباب ، تم التعارف بينه وبينهم عن طريق المراسلة ، ولم يقابلهم .

كان جيويه هوى فى تلك اللحظة مشغول الذهن عن استعراض حياته خلال الثمانية عشر عاما المنصرمة ، فاكتفى بأن التفت الى الوراء ، وقال فى صوت خافت :

— وداعا ايها البيت !

الفهرس


الربيع

شخصيات رواية « الربيع »

السيدة الكبيرة تشو

الخال	:	تشو بوه تاو
زوجته	:	السيدة تشن
ابنته	:	هوى
صهره	:	تشنغ قوه قوانغ
الخالة	:	المدام تشيان
ابنتها	:	مى

السيد الكبير قاو

محظيته	:	السيدة نشن

(الفرع الاول)

السيد الاول	:	كه ون
ارملته	:	السيدة تشو
اولاده	:	
الابن الاكبر	:	جيويه شين
زوجته	:	لى روى جيويه
ابنه	:	هاى تشن
الابن الثانى	:	جيويه مين

الابن الثالث	: جيويه هوى
ابنته	: شو هوا
الخادمات	: تشانغ
	خه
الجوارى	: مينغ فنغ

(الفرع الثانى)

(الفرع الثالث)

السيد الثالث	: كه مينغ
زوجته	: السيدة تشانغ
ابنته	: شو ينغ
الجوارى	: تسوى هوان

(الفرع الرابع)

السيد الرابع	: كه آن
زوجته	: السيدة وانغ

(الفرع الخامس)

السيد الخامس	: كه دينغ
زوجته	: السيدة شن
ابنته	: شو تشن
محظيته	: شى ار
البغاء	: " يوم الاثنين "
العمة	: المدام تشانغ
ابنتها	: تشين

فنغ ياو شان : رئيس الجمعية الكونفوشية ، الصديق الحميم للسيد الكبير قاو

زوجته

محظيته : وان ار

المحامي تشن كه جيا

الابن الثاني للمحامي

١ – شو ينغ

كانت قاو شو ينغ ، ابنة السيد الثالث قاو كه مينغ الذى اصبح رب اسرة قاو بعد وفاة السيد الكبير ، كانت منهمكة فى القراءة امام النافذة فى مخدعها حين دخلت جارية فرع الاسرة الرابع ، وقالت لها مبتسمة :

– تدعوك سيدتى وانغ الى لعب الماجونغ عندها .

بدا على شو ينغ شىء من التردد ، ثم اعتذرت قائلة :

– اشعر اليوم بتعب ، ليست لى رغبة فى اللعب . سيعود اخى الاكبر جيويه شين ، فيمكن دعوته الى اللعب .

ثم عادت الى القراءة عقب انصراف الجارية ، الا انها لم تستطع تركيز انتباهها على الكتاب ، فقد قفزت الى ذهنها فى هذه اللحظة ، كما حدث لها كثيرا فى الآونة الاخيرة ، صور عن حياتها فى الفترة السابقة والظروف التى تعيشها فى هذه الايام . لقد طرأت على الحياة فى هذه الدار خلال عام واحد تغيرات كثيرة ، ووقعت احداث خطيرة تركت فى نفس شو ينغ اثرا لا ينسى . منها وفاة جدها ، ووفاة زوجة اخيها الاكبر ، وارتحال اخيها الثالث جيويه هوى الى شانغهاى . وقد هزها الحادث الاخير هزة عنيفة ، ذلك لأنها لم تكن تتصور ان شابا يمكن ان يهرب من اسرته كما

يهرب المرء من شبح مخيف . ولكنها فطنت الى انه قد طرأ عليها هي ايضا شيء من التغير ، كان الآخرون حتى قبل عام مضى يقولون انها فتاة مرحة لا تعرف من هموم الدنيا شيئا ، ولكنها اليوم تستطيع ان تمضى الساعات الطويلة فى القراءة ، او تتمشى وحدها فى حديقة الدار غارقة فى تأملات ، او تقف على الجسر المقنطر فيها تطل على ماء البحيرة وتطيل النظر فيه . كانت تحس بأن رغبة مبهمة تلح عليها ، وتحس فى الوقت ذاته كأن شيئا ما قد طار من قلبها مبتعدا . كانت تحس بألم خفى فى قلبها من حين لآخر . وهى تدرك سبب ذلك . انه موضوع يقلقها ، ولكنها لا تملك الشجاعة على التفكير فيه كثيرا ، انه موضوع زواجها .
كان جدها قد وعد بتزويجها للابن الثانى للمحامى تشن كه جيا ، ثم تقرر عقد الخطبة خلال هذا العام . ولكنها سمعت ان اسرة تشن هذه سيئة السمعة ، وان الابن الثانى لذلك المحامى شاب سيء السلوك يدمن القمار وينفق الاموال على ممثلى الاوبرا . لقد عرفت ذلك من الجارية تسوى هوان ، ومن احاديث ابن عمها جيويه مين . انها لا تريد ان تتزوج فى هذه السن المبكرة ، ويؤلمها كذلك ان تتزوج لتعيش فى اسرة كأسرة تشن هذه ، ولكن لا يسعها الا اطاعة ابيها لأنه ليس من حقها ان تسأل عن موضوع زواجها ، وهكذا بدأت تشعر ، وهى فى الربيع السابع عشر من عمرها الغض ، بالعتمة تكتنف مستقبلها .
كان ابواها يجهلان ما كانت تعانى من هموم . وكان عزاؤها ، كلما استبدت بها الهموم ، ان تجلس الى ابناء وبنات اعمامها

تبادلهم الاحاديث ، او تلجأ الى قراءة الروايات الغربية المترجمة والمجلات الجديدة التى استعارتها من جيويه شين . فقد عرفت من تلك الروايات ان فى هذا العالم نوعا آخر من الحياة يختلف كل الاختلاف عن الحياة التى تعيشها هى ، حياة تنعم المرأة فيها بالحرية ، وتحدد مصيرها بنفسها . كانت تقرأ هذه الروايات الغربية بشغف عظيم ، الا أنها لم تكن تستطيع القراءة فى جو هادئ ، فكثيرا ما اضطرت الى ترك الكتاب لمشاركة ذويها الكبار فى لعب الماجونغ او لأمور اخرى .

انها لا ترى فى ظروفها الحاضرة بصيصا من الامل ، ولا تدرى ما الذى قدر لها فى المستقبل .

وضعت الكتاب جانبا ، وخرجت تتمشى فى فناء الدار منقبضة الصدر . وحين مرت امام نافذة غرفة ابنة عمها شو هوا نادتها هذه :

ــ تعالى يا اختى شو ينغ ! جاءتنا الاخت تشين .

دخلت شو ينغ مسرورة ورحبت بتشين فى حرارة اذ لم ترها منذ عدة ايام . ثم رجت من تشين ان تبيت عندهن الليلة ، فوافقتها على ذلك قائلة انها لن تذهب الى المدرسة غدا باعتباره يوم احد . فقالت شو هوا مازحة ان تشين لم ترض بالبقاء استجابة لرغبة شو ينغ ، بل من اجل الاخ الثانى جيويه مين ، فلم تغضب تشين لهذه الدعابة .

وفى عصر اليوم التالى جلست تشين والاخوة والاخوات يتجاذبون اطراف الحديث فى غرفة السيدة تشو ارملة والد جيويه شين ، فقال هذا الاخير لتشين فى صوت منخفض :

ـ جاءتنا اليوم رسالة من اخي الثالث جيويه هوى .

وقبل ان يتكلم الآخرون سألته شقيقته شو هوا :

ـ أين الرسالة ؟ هاتها لنقرأ !

فقال :

ـ عند عمي الثالث .

وعمه الثالث هو كه مينغ والد شو ينغ .

فقال جيويه مين بكل جدية :

ـ اعتقد انه لا داعي لأن تسلم الرسالة الى عمي الثالث ، ان جيويه هوى قد كتب الرسالة الينا .

فقال جيويه شين في اكتئاب :

ـ ولكنه الآن رب الاسرة . وقد اوصاني بهذا ، فلا يصح ان نخالف تعليماته .

والتفتت تشين الى شو ينغ فوجدتها محمرة الوجه تعبث بطرف ثوبها مطرقة صامتة ، ثم ألقت على جيويه مين نظرة سريعة ، وغيرت مجرى الحديث قائلة :

ـ كيف حال الاخ جيويه هوى في شانغهاي ؟ ماذا قال في الرسالة ؟

اجابها جيويه شين :

ـ ارسل الي ايضا مقالا عن انطباعاته عن الحياة في الاسرة الكبيرة .

واضاف موجها حديثه الى جيويه مين :

ـ وكلفني باعطائك المقال لتنشره . انه ما زال معي ، لم

اسلمه لعمى الثالث .

وبغتة قالت له شو ينغ فى رجاء :

– ارجو منك يا اخى الاكبر عندما تكتب الى الاخ جيويه هوى ، ان تكلفه بالاستفسار عن حال المدارس فى شانغهاى .

فنظر اليها جيويه شين فى دهشة وعجب وسأل :

– تريدين اذا ...

رفعت اليه بصرها ، وقالت فى فتور :

– مجرد استفسار لا اكثر .

٢ – حظ المرأة

لم تستمع السيدة تشو الى احاديث الشباب باهتمام ، فقد كانت مشغولة الفكر بأمر اخيها تشو بوه تاو الذى سيعود بعائلته الى حاضرة المقاطعة . تلقت منه رسالة قبل ايام ، قال فيها ان الوضع غير مستقر فى المدينة التى يعمل فيها ، لأن رجال الجيش يثيرون الاضطرابات من حين لآخر ، لذا قرر العودة فى الشهر القادم ورجا من جيويه شين ان يستأجر لهم دارا قبل وصولهم .

وتوقف الشباب عن الحديث اذ ألح الطفل هاى تشن ابن جيويه شين على تشين ان تقص عليه حكاية . فاغتنمت السيدة تشو هذه الفرصة ، واخذت تحدث جيويه شين عن اسرة اخيها . ثم تطرق الحديث الى امر الفتاة هوى ابنة اخيها ، فقالت فى لهجة لا تخلو من استياء :

ـ هى مخطوبة من وقت بعيد لشاب من اسرة تشنغ كما تعلم ، ابو الشاب زميل لأبيها ، واحد رؤسائهما قام بدور الخاطب . وقد تمت الخطبة دون ان يسأل اخى عن شخصية ذلك الشاب ، ثم عرفوا فيما بعد ان الخطيب سيىء الطباع ، فساء ذلك امى وزوجة اخى ، وارادتا فسخ الخطبة . ولكن اخى لم يوافق ، لأنه يرى فى فسخ الخطبة جرحا لكبريائه . وسيعودون الآن الى حاضرة المقاطعة من اجل اتمام الزواج .

كانت شو ينغ تستمع مع الآخرين الى تشين وهى تحكى حكاية للطفل ، فالتقطت اذناها طرفا من حديث السيدة تشو وجيويه شين ، استرعى انتباهها وذكرها بأمور اخرى ، فأرهفت سمعها وليس فى نيتها ان تشاركهما فى الحديث . ولكنها حين سمعت قول السيدة تشو بأن والد هوى لم يوافق على فسخ الخطبة لم تستطع صبرا ، فاستجمعت شجاعتها ، وقالت :

ـ لم لا يفسخون الخطبة يا عمتى ما دامت الجدة وزوجة الخال غير راضيتين بها ؟ أيتركون الاخت هوى تتعذب طول الحياة ؟

دهش جيويه شين من سؤال شو ينغ ، فالتفت اليها ليجدها دامعة العينين توشك على البكاء ، اما السيدة تشو فقد تنهدت وقالت :

ـ كل شىء بقضاء وقدر ، لا لوم على احد فى ذلك . ان من الصعب على المرأة ان تتجنب سوء الطالع . ليست اختك هوى وحدها سيئة الطالع . ألم ترى مصير اختك مى ؟ هل كان فى

وسعنا ان نفعل شيئا من اجلها ؟ كل ما ارجوه هو الا اولد امرأة فى حياتى القادمة .

احست شو ينغ بلطمة قوية استهدفت قلبها ازاء جواب السيدة تشو . ثم تساءلت : لم تكون المرأة اسوأ حظا من الرجل ؟ لماذا يصعب على المرأة تفادى سوء الطالع ؟ لماذا يظلمها القدر دون الرجل ؟

انها لا تؤمن بالقضاء والقدر ، ولكن كيف تفسر هذه الحقائق الماثلة امامها ؟ وانعقد لسانها ، فلم تدر ماذا تقول .

والتقط جيويه مين جانبا من احاديث السيدة تشو ، فقال لها مبتسما بغرض تشجيع شو ينغ :

— ما ما ، انا لا اوافق على نظرتك هذه . الرجال والنساء سواء . . .

لم تغضب السيدة لقول جيويه مين . وانما قالت له فى روية :

— اصبحت بليدا من كثرة ما قرأت من الكتب الحديثة . طبعا انت صاحب افكار جديدة ، ولكن ينبغى ان تعلم ان على المرأة منذ القديم الالتزام بالطاعات الثلاث والفضائل الاربع * . فاذا انت حاولت التجديد واتيت بالبدع عابك الناس .

---

* الطاعات الثلاث هى طاعة المرأة للاب والاخوة الكبار عندما تكون صغيرة ، طاعة الزوج اذ تزوجت ، طاعة الابن الاكبر اذا ترملت . والفضائل الاربع هى ان تكون المرأة فاضلة فى سلوكها وفاضلة فى كلامها وفاضلة فى مظهرها وفاضلة فى اشغالها .

كانت تشين ، وهى تقص الحكاية على الطفل ، تستمع هى الاخرى الى الحديث الدائر بين السيدة تشو وبعض الشباب . واتفق ان استوضحها الطفل بعض تفاصيل الحكاية ، فاغتنمت هذه الفرصة ، وقالت للسيدة فى دلال :

— كلامك يا خالة غير صحيح ايضا . لو لم يكن هناك اناس يدعون الى التجديد فكيف يتقدم العالم ؟

لم تشأ السيدة ان تجادل الشباب ، فقالت محاولة تغيير مجرى الحديث :

— اننى امرأة من الطراز القديم لا افهم مصطلحاتك الحديثة .

دخل احد الخدم وقال للسيدة :

— سيدتى ، جاء خادم من لدن المدام تشانغ ليعود بالآنسة تشين .

— حسنا . دعه ينتظر قليلا .

امسك الطفل بردن تشين ، وتوسل اليها قائلا :

— لا تعودى يا عمتى تشين . اريد ان تبقى عندنا ، وتقصى على الحكايات كل يوم . جيد ؟

— جيد يا صغيرى ، ولكن لا بد ان اذهب الى المدرسة صباح غد .

فكر الطفل قليلا ، ثم قال بجدية :

— الذهاب الى المدرسة جيد . بابا يقول الناس الطيبون لا بد ان يتعلموا فى المدارس . سأذهب الى المدرسة ايضا عندما اكبر . بابا يعلمنى القراءة كل يوم ، ويقول اذا انا اجتهدت فى التعلم

وسمعت الكلام ، فان ماما ستفرح ، ويقول ايضا : ان ماما فى السماء ، هى ترانى كل يوم ، اما انا فلا اراها . اظنها الآن فرحة . لا بد انها مشتاقة الى . سأراها يوما ما ، واقول لها كلاما كثيرا جدا .

قال الطفل هاى تشن ذلك بلهجة جدية ، وليس على وجهه شيء من علامات الحزن ، ولكن كلامه اثار فى نفوس الحاضرين ذكريات مؤلمة ، فى حين تساقطت الدموع من عينى جيويه شين ، وراح يبكى فى صمت .

٣ ــ عودة وان ار

مضت عدة ايام ، ثم حان عيد ميلاد السيدة تشانغ زوجة كه مينغ رب الاسرة ، وساد الدار جو من الفرح . احرقت السيدة البخور ، وسجدت لأرواح الاسلاف . واقبل افراد الاسرة يهنئونها وزوجها ، واعدت فى المطبخ الشعرية الطويلة التى تقدم فى مثل هذه المناسبة رمزا لطول العمر .

وجاءت للتهنئة وان ار التى كانت تخدم السيدة تشانغ ، واهديت محظية للسيد فنغ ياو شان ، الا انها وصلت بعد خروج السيدة تشانغ الى بيت امها وخروج كه مينغ الى مكتبه ، فاستقبلتها ابنتهما شو ينغ ، ورحبت بها قائلة :

ــ كلنا مشتاقون اليك يا وان ار ، ما رأيناك منذ نصف سنة تقريبا .

فقالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

— وانا بالمثل مشتاقة اليكم ، ولكنى لا املك حرية التصرف فى البيت ، ولولا عيد ميلاد سيدتى لما سمحوا لى بالخروج .

وقالت شو هوا التى كانت حاضرة ، والحنق يملأ صدرها :

— لا تخافى منهم ! غاية ما يمكنهم ان يفعلوا بك هو الشتم ، والشتم لا يقتل على كل حال .

ابتسمت شو ينغ ، وقالت لشو هوا فى شبه عتاب :

— هل تظنين يا اختى ان كل واحدة لا تعرف شيئا اسمه الخوف مثلك ؟

— الواقع ان كلام سيدتى شو هوا معقول . وانا ايضا افكر احيانا على هذا النحو ، واقول فى نفسى : لست ابالى ، فليشتموا وليضربوا كما يشاءون ! وهكذا احتملت ، فلم أمت برغم كل ما عانيته على ايديهم .

ثم اطلقت آهة طويلة مفعمة بالحنق . فسألتها شو هوا فى دهشة واستنكار :

— تقولين انهم يضربونك ؟

احمر وجه وان ار ، وتلتفت فيما حولها . ثم رفعت كمها الايسر ، وكشفت عن ذراعها البضة لتجد عليها شو هوا وشو ينغ اثرين عريضين من آثار الضرب ، وعلى الجزء الاعلى من ذراعها آثار اسنان . فقالت وان ار بصوت خافت متهدج :

— هذه جروح حديثة ، اما الجروح القديمة فلا تحصى .

انتصب شعر شو ينغ خوفا وهلعا ، بينما اشتعلت شو هوا غضبا .

واضافت وان ار قائلة :

– السيدة فنغ العجوز شريرة خبيثة بذيئة اللسان ، اذا شتمت لا تتورع عن استخدام اقذر الالفاظ . ولكنها لا تضربنى ، بل تظهر امام الناس فى مظهر بوذا الرحيم . والسيد فنغ هو الذى ترك فى جسمى آثار الضرب هذه ، يضربنى ويعضنى بأسنانه . اذا غضب ثار مثل الوحش الضارى ، انى احقد عليه حقدا هائلا فى بعض الاحيان . ولكن عددهم كبير ، وانا وحيدة بلا معين ، وليس لى اهل ...

فقالت شو هوا مهتاجة :

– لست وحيدة ، كلنا اهلك . سنساعدك فى رفع دعوى عليه ، ونوكل عمى الثالث ليدافع عنك .

هزت وان ار رأسها ، وقالت فى مرارة :

– ارجو الا تتكلمى عن رفع الدعوى على هذا العجوز ، فهو غنى واسع النفوذ ، وبين اصدقائه كثير من كبار الموظفين فى الحكومة . لقد سمعت انه كسب معظم ثروته عن طريق دعوى قضائية .

وقصت على الفتاتين القصة التالية :

– كان لفنغ ياو شان صديق غنى يدعى دينغ ، ثم مات هذا الصديق ، وخلف وراءه ارملته وطفلا صغيرا . فرجت ارملته من العجوز فنغ ان يشرف على شؤونها المالية . لم يكن فنغ واسع الثراء ، فاحتال على الارملة ، واستولى على اموالها وعقارها واراضيها . فرفعت دعوى عليه ، فوكل هو صديقه الحميم المحامى تشن

كه جيا بالدفاع عنه ، وكذلك انفق مبلغا من المال ، فربح القضية ، وصار المال المسروق ملكه ، فى حين خسرت الارملة كل ما تملك فى اثناء المقاضاة التى استمرت عامين ، فاضطرت الى بيع الدار التى تقيم فيها .

ذعرت شو ينغ حين سمعت اسم المحامى تشن كه جيا والد خطيبها . وختمت وان ار حديثها قائلة :

— الغريب ان مثل هذا العجوز موضع احترام الكثير من الناس . ومنهم سيدى الثالث . ولكنى لا ادرى هل يعلم سيدى الثالث افعال العجوز فنغ هذه .

تنهدت شو ينغ حين ذكرت وان ار والدها كه مينغ .

اما شو هوا فقد زفرت فى ضيق . كانت تظن ان الفضائح التى شهدتها فى اسرتها هى اقذر ما رأت فى حياتها ، اما الآن فقد ادركت ان سلوك فنغ ياو شان اشد بشاعة وخسة . وسادت لحظة صمت قطعتها شو ينغ قائلة :

— اغلب ظنى ان ابى يجهل افعال فنغ هذه .

— تشن كه جيا وفنغ ياو شان وغيرهما كلهم ثعالب من جحر واحد . لا اظن ان عمى الثالث يجهل افعالهم .

قالت شو هوا ذلك ردقت الارض برجلها فى حنق ، فرفعت شو ينغ بصرها الى شو هوا مدهوشة .

٤ ـ رئيس الجمعية الكونفوشية

جاءت الى اسرة قاو للزيارة والدة السيدة تشو ومعها كثير من افراد اسرتها ، بينهم حفيدتها هوى . ولما سمعت شو ينغ بذلك ، اسرعت الى غرفة السيدة تشو لتحية الضيوف . كانت الغرفة مكتظة بالناس وهم يتحدثون فى سرور . وما ان دخلت شو ينغ حتى وقفت لها عدة فتيات فى ملابس زاهية الالوان تبهر البصر . سلمت شو ينغ على الكبار ، وعلى الاخت هوى ، ثم جلست بجوار والدتها السيدة تشانغ .

ثم دخلت السيدة وانغ زوجة كه آن ، والسيدة شن زوجة كه دينغ وابنتها شو تشن ، فبادلن الضيوف التحيات والسلامات .

استمر الضيوف يتجاذبون اطراف الحديث مع اهل الدار ، فى حين راحت شو ينغ تتأمل الفتيات الزائرات ، فوجدت هوى التى لم ترها منذ اربع سنوات قد اصبحت فتاة رائعة الجمال ، ذات وجه بيضوى الشكل ، رشيقة القوام ، ترتدى تنورة وردية اللون ، وقد حات محل ضفيرتها كعكة شعر تتدلى من قفاها شأن الفتاة المقبلة على الزواج . كانت هوى تصغى الى حديث السيدة تشو باسمة الثغر ، ولكن شو ينغ لاحظت على وجهها مسحة حزن ، فتذكرت حديث السيدة تشو عن خطيبها ، وحزنت حين تصورت المصير المؤلم الذى ينتظر هذه الفتاة ، وراحت تحملق ، دون وعى منها ، فى هذا الوجه الجميل شاردة الفكر .

كانت احاديث الضيوف تدور حول احوال المدينة التى اتوا

منها ، وحول حياتهم فيها خلال السنوات الاربع الماضية . وكان اهم ما يحبون سماعه هو ما طرأ على حاضرة المقاطعة من تغيرات ، واحوال اقاربهم فيها خلال هذه المدة .

ثم اتجه الجميع الى حديقة الدار حيث لعبوا الماجونغ وتناولوا طعام العشاء فى احدى المقصورات . وحين نهضوا للانصراف رجت شو ينغ واخواتها ان تبقى هوى ، الا انها اضطرت الى الانصراف مع اهلها لعدم حصولها على موافقة والدها مقدما .

عندما مر اهل الدار امام قاعة الاستقبال ، يودعون الضيوف ، تقدم منهم احد الخدم ، وانبأهم بأن السيد الثالث يستقبل فى القاعة السيد فنغ ياو شان .

فنغ ياو شان ؟ وقع هذا الاسم وقوع الصاعقة على رأس شو ينغ ، وكادت شفتاها تفلتان صرخة ذعر . فقد سمعت من وان ار قبل ايام مرارة الحياة التى تعيشها فى بيت هذا العجوز ، وتواطؤ المحامى تشن كه جيا مع فنغ فى تلك الدعوى القضائية ، هنا قالت فى سرها : ان ابوى لا بد ان يكونا على علم بهذه الامور ، ولكن ذلك لم يحل دون ان يعمل ابى برأى العجوز فنغ ليزوجنى بابن المحامى تشن . ان فنغ ياو شان هذا هو اصل البلاء . والآن جاء الينا مرة اخرى ...

لم تطق شو ينغ التفكير فى هذا الموضوع اكثر من ذلك .

— فنغ ياو شان ؟ ما الذى جاء به الى هنا ؟

قالها جيويه مين فى ضحكة ساخرة . انه يعرف ان فنغ ياو شان هذا من وجوه البلد ، وهو رئيس الجمعية الكونفوشية ، وعدو


春

حركة الثقافة الجديدة . وقد حاول جده الراحل ان يزوجه ببنت من اقارب فنغ . ما الذى جاء به اليوم ؟ ربما جاء من اجل موضوع شو ينغ ؟ وعندما وصل به تفكيره الى هذه النقطة ، اجتاحته مشاعر الاشفاق والعطف والحب والحنق معا ، وقال فى نفسه : لا بد ان اساعدها !

قصدت السيدة تشو وسلائفها غرفهن بعد ان ودعن الضيوف . وسارت شو ينغ واخواتها فى الخلف ، فرأوا السيد الثالث كه مينغ والعجوز فنغ مقبلين ، فتنحوا جانبا تفاديا لملاقاة فنغ ، ثم ما لبث ان عاد السيد الثالث بعد ان ودع الضيف ، فسلموا عليه ، وقالت له تشين :

— اعتقد يا خالى ان هذا الزائر هو فنغ ياو شان .

— نعم . أ تعرفينه يا تشين ؟

ابتسمت تشين وقالت :

— القى محاضرة فى مدرستنا ، فاستاءت الطالبات من قوله : جهل المرأة محمدة .

فقال السيد الثالث :

— مهما يكن فان السيد فنغ شيخ سامى الخلق حسن السمعة ، يتمتع بمكانة عالية بين العلماء فى حاضرة المقاطعة .

فقال جيويه مين :

— ولكنه ليس بقدوة حسنة ، فقد أتخذ محظية وهو فى هذه السن الكبيرة ، ثم انه ينفق الاموال على المغنين الملاح ، و . . .

فقاطعه السيد الثالث فى غضب ، وقال :

ـ لا يليق بك ان تقول هذا يا ابن اخي . انه برغم كل شيء اكبر منكم سنا ، فانا نفسي احترمه .

ثم سار مبتعدا فشيعه جيويه مين بنظرة محنقة وهو يغمغم قائلا :

ـ عمل فاسد !

٥ ـ في هذا الجو يعيشون

بينما الاخوة والاخوات يتحدثون في غرفة جيويه مين بعد ان ودعوا الضيوف ، اذا بصوت صحن يتكسر على الارض ، صادر من الجناح المقابل ، اعقبته صيحات وشتائم ، فتبادلوا نظرات الحيرة والارتباك . فقالت خادمة كانت تقوم بخدمتهم :

ـ عاد السيد الخامس يتشاجر مع السيدة شن .

فامتقع وجه شو تشن ابنة السيد الخامس ، واخذت ترتجف كمن اصابه البرد ، بينما لزم الآخرون الصمت .

وبغتة ارتفع صوت غاضب تشوبه رنة حزن ، تبينوا فيه صوت السيدة الخامسة شن :

ـ قل لي بذمتك يا قاو كه دينغ هل يصح ان تعاملني هذه المعاملة ؟ منذ ان غادر اخي هذه المدينة ، ووجدتني وحيدة بلا معين ، اخذت تتنمر علي . سرقت مصوغاتي ومجوهراتي فسكت ، ثم اتخذت محظية واسكنتها في بيت آخر ، فلم اقل شيئا . ولكن لم اتصور ان تمارس الفساد اليوم في هذا البيت ، انك لرجل عديم الذمة !

فصاح كه دينغ مزمجرا :

— آه تشتمينني ؟ ! هذا البيت بيتي ، انا حر في ان أعمل فيه ما اشاء !

فصاحت شن في صوت حاد :

— يا للعار ! البنت شي ار جاريتي انا !

— لا يهم ان كانت جاريتك او جارية غيرك . ما دامت هي راضية ، فلا حق لك في التدخل .

— انا جئت بها من بيت ابي عندما تزوجت ، فهي ملكي . تحمل لقب " السيد " ، ولكن هل يفعل السيد ذلك ، ولم تمض سنة واحدة على وفاة ابيه ولم تنته مدة حداده ؟ انت متعلم ، ولكن التعليم ضاع فيك كأنك بهيمة . ان كان اجدادك عملوا شيئا من الخير فقد ضيعت اجرهم جميعا !

وانتزعت صحنا من على المائدة ، وقذفت به على الارض ، فتهشم محدثا صوتا مزعجا .

صاح كه دينغ :

— حسنا ! تجرئين على تحطيم الاواني ؟ هل تظنينني لا اجرؤ ؟

وتناول بالمثل صحنا ، وقذف به على الارض .

التفتت شو هوا الى جيويه مين ، وقالت :

— هيا نذهب ونرى .

بقيت تشين وشو ينغ في الغرفة تحاولان التسرية عن شو تشن . كانت غرفة كه دينغ ساطعة بالانوار ، وقد وقف خارج

النافذة كثير من الناس ينصتون او يتهامسون . وعندما اقترب جيويه مين وشو هوا من النافذة ، سمعا صوت امرأة اخرى تبكى فى الغرفة .

استمرت السيدة شن تشتم ، وزوجها يصيح متوعدا ، ثم اشتبكا فى عراك ، فأسرع بعضهم الى الدخول لفض النزاع . وما لبث ان اندفعت السيدة شن من الغرفة مشعثة الشعر . واتفق ان اقبل السيد الرابع كه آن وزوجته ، فتشبثت بهما السيدة شن وراحت تشكو اليهما زوجها قائلة :

— كنت فى الحديقة مع الضيوف كما تعلمون . فانتهز فرصة غيابى واختلى بالخادمة شى ار . ولما عدت الى الغرفة وجدتهما فى وضع مزر . ولكنه لم يخجل ، بل شتمنى . أيجوز ان يفعل هذا ؟ . . .

ثم جاءت السيدة تشو والسيدة تشانغ زوجة كه مينغ ، فتحولت السيدة شن اليهما ، وصارت تشكو وترجو منهما ان تحكما بينها وبين زوجها بالعدل . فالتفتت السيدة تشو الى جيويه شين ، وطلبت منه ان يبلغ عمه كه مينغ بالأمر ، ومن ثم اخذت السيدة شن الى غرفتها بمعاونة الاخريات .

وذهب كه آن الى اخيه كه دينغ ، وقال له :

— انت قليل الحذر ، يا اخى ! والآن ارى ان تعتذر الى زوجتك ، وتطرد شى ار من الخدمة ، هذا اسهل حل . لا ارى فى هذه البنت ما يعجب .

ادرك كه دينغ ان اخاه لم يأت ليعاتبه ، فقال له ملمحا الى

انه ليس خيرا منه :

– وهل نسيت ما كان بينك وبين الخادمة ليو ؟

علت حمرة الخجل وجه كه آن ، وسكت . ذلك لأنه كان على صلة غير طبيعية مع خادمة شابة تدعى ليو ، ثم اكتشفت زوجته هذه العلاقة ، وشكته الى ابيه السيد الكبير قاو ، فعنفه كثيرا ، وامر بطرد الخادمة .

– ما هذا العبث يا اخى الخامس ؟ !

ظهر كه مينغ بغتة عند مدخل الغرفة بوجه مكفهر .

– حرام عليك هذا السلوك المزرى وأنت ما زلت حادا على ابينا الذى مات منذ اقل من سنة .

وطلب منه ان يعتذر الى زوجته . ويطرد الخادمة .

فضحك كه دينغ ضحكة ساخرة ، وقال :

– كنت اتساهل معك يا اخى الثالث حين كان والدنا على قيد الحياة . اما الآن ، وقد مات ابى ، وصار كل منا يعول نفسه بنفسه ، فلا داعى لأن تزعج نفسك من اجل شؤونى .

ثم قال انه انما اتخذ محظية لعقم زوجته ، وانه سيجعل من شي ار ايضا محظية له ، زاعما ان الامر متعلق بمسألة ما اذا كان سيولد له عقب ، وانه بعمله هذا يرضى ارواح الآباء والأجداد ، فضلا عن ان والدهم كان له ايضا محظية .

ثم سأل كه مينغ بدوره :

– أ تريدنى ان اكون ابتر يا اخى ؟ !

اربد وجه كه مينغ ، فخبط على المائدة خبطة قوية ، وهب

واقفا ، وتقدم الى كه دينغ ، وصاح فى وجهه :

ـ انت .. انت ...

دون ان يستطيع الافصاح عما يريد ، فقد خانه النطق من شدة الغيظ ، ووقف مكانه جاحظ العينين لاهث الأنفاس ، فتقدم اليه كه آن ، ورجا منه ان يعود ليستريح ، فتنهد متحسرا وانصرف .

عندها قال كه دينغ فى تباه :

ـ ليس فى هذه الدار من اخاف منه بعد ان مات ابى ، فكيف اخاف منه هو . قد يفيده هذا الدرس الذى لقنته اياه . ان اشد ما يبغضنى فيه هو تزمته ووقاره المتكلف .

مرت الزوبعة بسلام بعد ان امر كه دينغ الخادمة شى ار بالسجود لزوجته ، واتخذها علنا محظية مشروعة .

رأى جيل الشباب فى اسرة قاو كل هذا الذى جرى امامهم ، فقال جيويه مين :

ـ ليس فى الامر ما يدعو الى العجب ، فهذه نتيجة كل زواج لا يقوم على اساس حرية الاختيار .

وقالت تشين لشو ينغ :

ـ هذه هى الحياة فى اسرتكم يا اختى . ألم تعيشى مثل هذه الحياة بما فيه الكفاية ؟

وكانت شو تشن مغمومة ، تعانى الخوف والخجل . ولم تشأ ان تعود الى امها ، فباتت عند شو ينغ ، الا انها لم تنم جيدا طول الليل . كانت خائفة من امها التى تصب عليها نار غضبها كلما تشاجرت مع زوجها . ذلك ان امها كانت تتمنى ان ترزق بولد

ذكر يستطيع بعد ما يكبر ان يثأر لها من زوجها الذى يظلمها ، ولكن خاب املها حين رزقت بهذه البنت ، ولم ترزق بعدها بأى مولود . . .

٦ - " اغبطك كثيرا "

قرر جيويه مين وعدد من زملائه واصدقائه ان يجتمعوا فى الحديقة العامة لمناقشة مسائل ذات صلة بمجلتهم الاسبوعية ، وحددوا لذلك موعدا ، وكلفوا جيويه مين بدعوة تشن لحضور الاجتماع .

واقترحت تشين على شو ينغ ان تذهب معها ، فرحبت شو ينغ بهذه الفكرة لأنها تحب ان تتعرف على ذلك النوع من الحياة الذى يعيشه الشباب امثال اخيها جيويه مين ، وان ترى كيف يعقدون الاجتماعات . الا انها عادت فترددت ، اذ وجدت انه لا يليق بالفتاة ان تظهر فى مكان عام امام الغرباء ، كما انها خشيت الا يوافق ابوها على ذلك . واخيرا تفتق ذهن تشين عن حل للمشكلة ، هو ان تجلس شو ينغ فى الحديقة الى طاولة اخرى غير بعيدة عن طاولات المجتمعين . بحيث تستطيع رؤيتهم وهم يتناقشون .

وبينما كان جيويه مين والاختان يتشاورون فى الامر دخلت عليهم شو هوا : وحين عرفت موضوع حديثهم ابدت رغبتها فى الذهاب معهم . عندذاك تشجعت شو تشن ، التى كانت حاضرة ،

وابدت رغبتها هى الاخرى فى الذهاب . وبعد التشاور قررن الذهاب سويا .

وفى اليوم المحدد ذهبت الفتيات الى الحديقة فى محفات . ولكن ما ان رأت شو تشن حولها هذا العدد الكبير من الغرباء حتى تهيبت ، وتشبثت بثوب تشين ، وارادت العودة ، فطمأنتها تشين فى صوت خافت .

اما شو هوا فكانت تتلفت هنا وهناك فى دهشة وعجب . لقد استهواها كل ما رأت فى الحديقة ، وخيل اليها انها دخلت فى عالم خيالى ، كانت الاشجار زاهية الخضرة ، والسماء صافية لا تبلغ العين مداها ، والنسيم الرطب يبهج النفس ويريحها من كل ما يثقلها .

وكان زوار الحديقة ينظرون اليهن نظرات فضول ، اذ انه قلما يرون فى مكان عام كالحديقة مثل هؤلاء الاوانس .

لم تنزعج شو ينغ من نظرات الغرباء لوجود جيويه مين وتشين الى جانبها .

وصلوا الى مشرب شاى . فأقبل جماعة من الشباب وتبادلوا التحيات مع جيويه مين وتشين . وذهب جيويه مين بالاوانس الى طاولة شاى غير بعيدة ، ثم انضم مع تشين الى حلقة الشباب .

ارسلت شو ينغ بصرها الى الشباب ، وانعمت النظر فى وجوههم ، فلم تجد بينهم وجها مألوفا لديها . ولكنها تعرف ان هؤلاء هم الذين ساعدوا جيويه مين فى الهرب من الزواج الذى حاول جده ان يفرضه عليه فرضا ، ثم ساعدوا جيويه هوى فى مغادرة البيت بأمان ،

وهم الذين انشأوا المجلة الاسبوعية التى حملوا فيها على رجال الجمعية الكونفوشية واعيان حاضرة المقاطعة وبينهم فنغ ياو شان .
وعندما مر بخاطرها ذلك انتابها شعور غريب لم تعهده من قبل .

كان الشباب جالسين حول طاولات الشاى ، يتحدثون فى جو من الحرية والود الصادق . وكانوا يتناقشون فى بعض الاحيان فى جدية وحماسة ، ولكن دون شجار .

جددوا انتخاب العاملين فى مجلتهم ، فانتخب كل من جيويه مين وتشين محررا ، الا ان تشين حاولت الاعتذار قائلة انها غير مؤهلة لهذا العمل ، فرجا منها الآخرون ان تقبل ، وكذلك فعل جيويه مين ، فوافقت بعد تردد .

تساءلت شو ينغ وهى تحملق فى تشين : فى اى شيء اختلف عن تشين ؟ لم لا اكون فتاة مثلها ؟ ولكن هل استطيع النجاح ؟ كانت مشوشة الذهن مضطربة النفس ، تحس حينا كأنما اشرق امامها برق ساطع الضياء ، وتحس حينا آخر كأنما ترى فوق رأسها غيوما داكنة .

لاحظت شو ينغ ان جيويه مين وتشين لا يلبثان يرسلان اليها نظرات التشجيع . ثم رأت تشين تدعوها باشارة خفية ، فابتسمت ، وهزت رأسها فى حياء علامة الاعتذار .

وهمست تشين فى اذن جيويه مين بكلمات ، ثم نهضت وسارت الى الاخوات الثلاث وجلست ، فملأت لها شو ينغ قدحا من الشاى وقالت :

— انى اغبطك كثيرا يا اختى تشين .

فقالت تشين :

ـ الحقيقة انه يحسن باك ان تجاسى اليهم قليلا .

ـ ولكنى اخاف . . .

وقطع حديثهما صوت شو هوا وهى تصيح فى دهشة :

ـ انظروا ، أ ليس هذا عمى الخامس ؟

التفتن الى حيث اشارت شو هوا ، فرأين كه دينغ مقبلا نحو مشرب الشاى وبصحبته امرأة فى نحو الثلاثين . شحب وجه شو تشن حين رأت والدها ، وارتعدت من الخوف ، واسرعت بالاختباء وراء ظهر تشين ، بينما ارتبكت شو ينغ قليلا ، واطرقت رأسها محمرة الوجه . وقالت شو هوا فى صوت خفيض :

ـ هذا المرأة هى " يوم الاثنين " .

دخل كه دينغ المشرب ومعه المرأة ، واجال نظره فى المكان ليختار طاولة يجلس اليها . وبغتة وقع نظره على تشين وشو هوا وشو ينغ . فارتاع كثيرا ، واشاح بوجهه واسرع بمغادرة المكان ، الا ان نظره التقى بعينى جيويه مين حين مر بجانبه ، فاحمر وجهه ، وجذب " يوم الاثنين " من ذراعها ، وانسل بها من المشرب مطرق الرأس .

٧ ـ موت الطفل هاى تشن

ما ان عاد جيويه مين وتشين والاخوات الثلاث الى الدار ، حتى فوجئوا بأن هاى تشن ابن جيويه شين قد عاوده المرض ،

وان حالته خطرة .

اسرعوا الى جناح الاخ الاكبر ، فوجدوا فى الغرفة كثيرا من اهل الدار ، وعلى وجوههم امارات القلق والانزعاج ، فسألت شو ينغ الجارية تسوى هوان فى صوت خافت :

ـ هل فحصه طبيب ؟

ـ جاء طبيبان ووصفا له دواء .

تقدمت شو ينغ من السرير ، فوجدت جيويه شين فى حالة ارتباك شديد ينقل بصره الزائغ بين السرير وبين الواقفين امامه ، ووجهه يتصبب عرقا . كان الطفل راقدا فى السرير فى شبه غيبوبة ، لا يفتأ يطلق انات ألم ، ويداه ورجلاه تنتفض فى حركة عنيفة . وكانت الخادمة خه راكعة امام السرير تنادى بصوت منخفض :

ـ سيدى الصغير !

وفجأة تحول جيويه شين الى الحاضرين ، وصاح فى شبه جنون :

ـ دواء ! دواء ! بسرعة !

فقالت السيدة تشو للخادمة تشانغ فى لطف :

ـ اذهبى يا اخت تشانغ واستعجليهم ليأتوا بالدواء حالا .

وقالت المدام تشانغ لجيويه شين تحاول تهدئة ثورته :

ـ لا تقلق يا جيويه شين ، بل كن مطمئنا !

وتقدمت تشين وحيت أمها ، ثم خاطبت جيويه شين فى تأس :

ـ اخى الاكبر !

فالتفت اليها جيويه شين ، وبسط يديه ، وقال فى صوت يائس :

– ماذا اعمل الآن يا عمتى ويا اختى تشين ؟

جىء بالدواء بعد قليل . فسقوه للطفل ، فاستغرق فى النوم على ما يبدو ، الا انه لم ينم قليلا حتى انتفض مذعورا على اثر ضجة اثارها بعض الاولاد خارج الغرفة ، وصرخ باكيا ، وعاودته نوبة تشنج عنيف ، فتطلعت اليه الانظار فى حيرة وقلق .

كان اهل الدار فى اشد حالات الحزن والقلق . ورغب جيويه شين عن الطعام والشراب . انه خائف ، لن يغفر لنفسه امام زوجته الراحلة روى جيويه اذا ما وقع لابنهما هاى تشن مكروه . انه الولد الوحيد الذى بقى لهما بعد ان مات ولدهما الاصغر فى بيت جدته لأمه . لم يجد جيويه شين فى نفسه الجرأة على ان يستمر فى التفكير ، ولكن ما العمل وحالة هاى تشن بهذه الخطورة .. وبغتة فقد سيطرته على نفسه . فأفلتت شفتاه عبارة :

– لم اعد اطيق هذه الحياة !

مات هاى تشن اخيرا .

كانت اسرة قاو تؤمن بالطب التقليدى الصينى . فلما عجز هذا الطب عن مداواة الطفل المريض ، دعى لعلاجه طبيب مختص فى الطب الغربى ، فاكتشف ان الطفل مصاب بالتهاب سحائى ، ولكن بعد فوات الأوان .

حين عاد جيويه مين من المدرسة ، ورأى علامات الحزن

والاسف على وجوه اهله فهم كل شيء . فقصد جناح اخيه ، وهو يقول فى نفسه : انا شديد القلق عليه ، انه لن يتحمل هذه الصدمة الجديدة ، لقد كان هاى تشن هو الحياة بالنسبة اليه .

دخل جيويه مين الصالة ، فخرج جيريه شين من الغرفة الداخلية حين سمع وقع الاقدام ، فناداه جيويه مين فى حنان :

— اخى !

— لم اكن اصدق ان ابنى سيموت ! لم اكن اصدق ابدا يا اخى !

وانفجر يبكى كالطفل . فواساه جيويه مين قائلا :

— ولكن الميت لا يبعث حيا يا اخى ، ارجو ألا تحزن كثيرا .

وجد جيويه مين انه عاجز عن مساعدة اخيه ، فتشاغل عنه بأن يجيل بصره فى ارجاء الصالة . وعندما وقع نظره على صورة زوجة اخيه المتوفاة ، ثارت فى نفسه ذكريات مؤلمة ، وادرك ان المرء اذا كان هيابا شديد الاحتراس توالت عليه المصائب . وقد علمته تجاربه الشخصية انه لا يجوز للانسان ان يهادن القوى المحافظة ، والا ، جنى على نفسه ، وتجرع مر العيش . . وعندما مر بذهنه هذا الخاطر تذكر مسألة شو ينغ التى يحاول ابوها كه مينغ ان يزوجها قسرا بمن لا تحب ، ورأى ان الوقت الآن ليس متأخرا جدا لايجاد حل للمسألة . وحدث اخاه عن فكرته ، فقال اخوه بلا وعى :

— من واجبنا ان نساعدها .

ولكنه ما لبث ان تساءل ، كأنما عاد اليه وعيه فجأة :

— ولكن كيف نساعدها ؟

لم يقل هذا بقصد التهرب من واجب المساعدة ، كان يتمنى لابنة عمه شو ينغ مصيرا غير المصير الذى يحاول والدها ان يسوقها اليه ، يتمنى ان تفنى القوى المحافظة لتترعرع القوى الجديدة النابضة بالحياة . ولكن عمه كه مينغ هو صاحب الكلمة فى موضوع شو ينغ ، وهو من ذويه الكبار .

لم يحر جيويه مين جوابا على سؤال اخيه اذ كان هو الآخر لا يدرى كيف سيساعدون شو ينغ . وخيم الصمت على الغرفة ، فى حين ارتفع من خارج النافذة صوت شو ينغ وهى تقرأ فى كتاب اللغة الانجليزية .

٨ — "كيف أعيش بعد اليوم ؟"

انتشر اخيرا نبأ ذهاب شو ينغ واختيها الى الحديقة العامة بين افراد الاسرة الكبيرة . فقد اخبر كه دينغ زوجته شن بما رأى فى الحديقة ، فاستجوبت هذه ابنتها شو تشن ، فاعترفت ، ونالت على ذلك حظها من التوبيخ والتعنيف . ثم ذهبت شن الى السيدة تشو وحدثتها بالامر ، فاستدعت هذه جيويه شين ، وحدثته بما سمعت ، وقالت ان جيويه مين فضولى يثير المتاعب . وكانت شو هوا حاضرة ، فعنفاها على تهورها ، وقالا : كان من المفروض عدم اخذ شو تشن الى الحديقة . وابديا قلقهما من ناحية السيد كه

مينغ رب الاسرة ، فانه اذا عرف بالامر فسيشعر الجميع بالحرج ، وان شو ينغ ستتعرض لشتائمه . ولكن شو هوا قالت فى تحد :

– لا اخاف ، ولو عرف عمى الثالث بالامر ! ان شرب الشاى فى الحديقة العامة لا يمس كرامة الاسرة . اذا اراد عمى الثالث ان يؤدب ، فليؤدب اخاه الخامس قبل غيره !

وراحت تتحدث عن سلوك هذا العم الخامس مع "يوم الاثنين" ، ومع الجارية شى ار . وبينما هم يتحدثون دخلت تسوى هوان جارية الفرع الثالث بادية الارتباك ، وقالت لجيويه شين ان السيد الثالث يريد ان يراه ، ثم تحولت الى شو هوا ، ورجت منها ان تمر على شو ينغ ، اذ ان السيد الثالث عنفها ، واوسعها شتما .

فسألتها شو هوا :

– لماذا شتم عمى الثالث الاخت شو ينغ ؟

فأجابت تسوى هوان فى حنق :

– هل يمكن ان يكون ذلك لسبب آخر غير الذهاب الى الحديقة العامة ؟ ! كانت تعابير وجه السيد مخيفة ، وقد بقيت سيدتى الصغيرة صامتة تبكى . وقالت السيدة الثالثة كلمتين تحاول تهدئة ثورة السيد ، فشتمها ايضا .

ذهبت شو هوا لزيارة شو ينغ فى مخدعها ، فوجدتها راقدة فى السرير ، وجهها مبلل بالدموع وعيناها منتفختان كأنهما جوزتان ، وحين رأت شو هوا قالت لها فى صوت حزين ، وهى تنشج بالبكاء :

– انى سئمت الحياة يا اختى . لم اعد احتمل . لا ادرى

كيف اعيش بعد اليوم ؟ هل اعيش لأدع غيرى يعبث بى كما يشاء ؟ افضل ان اموت على ان استمر فى هذه الحياة .

اخذت شو هوا تطمئنها ، وتنفس بين الحين والحين عن سخطها على كه مينغ وعلى هذه الاسرة .

لم يعد جيويه مين الى البيت الا فى الرابعة مساء . ولما سمع بأن جيويه شين وشو ينغ تعرضا للتوبيخ والشتم من العم الثالث كه مينغ بسبب ذهاب الاخوات الثلاث الى الحديقة ، اتجه الى جيويه شين فورا ، فرجاه الاخير ان يعتذر الى عمه كه مينغ وقال :

— هذا فى صالح الجميع .

فأجاب جيويه مين فى جرأة وثقة :

— لست مخطئا . لن اعتذر اليه !

قال ذلك ، وخرج من عند اخيه ، وذهب لرؤية شو ينغ .

حين وقع نظر شو ينغ على جيويه مين نادته فى حرارة :

— اخى الثانى !

وطفرت الدموع من عينيها ، بينما قالت شو هوا فى سرور :

— جئت فى الوقت المناسب يا اخى ، اليوم . . .

لم ينتظر جيويه مين بقية حديث شو هوا ، بل تقدم من شو ينغ ، وربت على ظهرها ، وقال لها فى لهجة رقيقة :

— عرفت كل شىء يا اختى . ارجو ألا تحزنى . هذه محنة بسيطة فى طريق النجاح ، لا تخافى !

وتدخلت الجارية تسوى هوان فى الحديث قائلة :

– مارأيت ياسيدى الصغير كم كانت سحنة السيد الثالث مخيفة ، حتى انها افزعتنى ايضا .

واستطرد جيويه مين قائلا :

– لا بد ان تذكرى كلامى جيدا ، وهو ان الزمن قد تغير ، لن يحدث لك ما حدث للاخت مى ، لن نسمح بذلك . ومهما يكن فان الحال اليوم مختلف عما كان قبل خمسة اعوام .

والواقع انه لم تكن لدى جيويه مين اية خطة محددة لانقاذ شو ينغ مما هى فيه ، ولكن شو ينغ تثق به ، فهو النجم الوحيد الذى تراه فى الظلمة المحيطة بهذا البيت . صحيح انه نجم صغير ، ولكن فى وسعه ان ينير لها الطريق .

تحسنت حالة شو ينغ النفسية حين وجدت هذا الاخ امامها . ورفعت رأسها ، وتطلعت اليه فى امتنان ورجاء . ثم بدا عليها كأنما تذكرت شيئا هاما ، فتشجعت وسألته قائلة :

– قل لى يا اخى ، لماذا لا نستطيع ان نعيش كما تعيش النساء فى البلدان الاجنبية ؟

فأجاب جيويه مين دون تفكير :

– تلك الحياة هى نتيجة نضال الاجنبيات .

ثم التفت الى شو هوا ، وسألها :

– هل رأيت الاخت شو تشن ؟

وقبل ان تجيب شو هوا بادرتها شو ينغ فى صوت ينم عن القلق :

– ارجو ان تمرى على شو تشن يا اختى ، فقد شتمتها

امها ، ولا ادرى كيف حالها الآن .

ولما كان صباح اليوم التالى اصبحت شو ينغ احسن حالا ، الا انها رغبت عن رؤية سحنة ابيها ، فلزمت الفراش بحجة المرض .

كانت مشوشة الذهن وهى راقدة فى سريرها . فكرت فى ابيها وفى زواجها المنتظر من ابن المحامى تشن كه جيا . وعندها رنت فى اذنها كلمات وان ار عن هذا المحامى ، وعن تواطئه مع فنغ ياو شان ، احست بهذه الكلمات تخز قلبها كالابر الحادة . فحدثتها نفسها بالفرار من ذلك المصير ، وتراءت امام عينيها صورة الجارية مينغ فنغ .

وجاءت شو هوا للاطمئنان عليها ، فخرجتا معا الى حديقة الدار . وكان الجو فى الحديقة رائعا يفتن القلوب كعادته فى اواخر الربيع .

٩ ــ سكر من الشراب

تم اختيار اول الشهر القمرى القادم موعدا لزواج هوى .

جاءت السيدة الكبيرة تشو الى اسرة قاو للزيارة ، ومعها حفيدتها هوى . ورجت من جيويه شين ان يساعد فى اعداد ما يلزم للزواج ، فوعدها بالمساعدة دون تردد ، وان كان يؤلمه ذلك ، لأنه يرى ان هذا الزواج غير مناسب .

وفى آخر النهار انصرفت السيدة الكبيرة تشو ، وتركت هوى

لتقضى بعض الايام عند اسرة قاو . فقالت شو ينغ فى صوت خفيض ، وهى تغالب انفعالها :

ـ اعتقد اناك لا تستطيعين زيارتنا كثيرا بعد اليوم يا اختى هوى .

لم تجب هوى ، فداعبتها شو هوا فى لهجة تنم عن الحب الصادق ، دون ان تلاحظ ما طرأ على وجهها من امارات الأسى :

ـ هل ستفكرين فينا بعد اليوم يا اختى ؟

احمر وجه هوى ، واطرقت برأسها ، وتنهدت قائلة :

ـ كيف انساكم يا اختى شو هوا ؟ انى لا اشعر بشىء من بهجة الحياة الا وانا بجواركم .

وقالت شو هوا فى غيظ :

ـ لا افهم ما الذى يحتم على المرأة ان تتزوج .

فنظرت اليها هوى ، وقالت فى حزن واسى :

ـ لقد كتب على المرأة الشقاء ومر العيش .

ثم التفتت الى شو ينغ ، واضافت :

ـ وانت يا شو ينغ ، عليك ان تتدبرى امرك ، ولا تسيرى فى طريقى .

ـ كونى مطمئنة يا اختى ، سأتدبر الامر ، ولن اطيع ابى فى الزواج من إبن المحامى تشن . واذا فشلت فى ذلك ، ولم اجد امامى طريقا آخر ، فانى افضل ان اسير فى طريق مينغ فنغ .

ذهلت هوى حين سمعت ذلك ، وقالت على الفور :

ـ هذا لا يصح ، لا يصح ابدا !

وامسكت شو تشن بيد شو ينغ ، وقالت :

ـ أ جادة انت ، يا اختى ؟

بدأ جيويه شين يخرج نهارا للعمل فى مكتبه ، ثم يعرج على بيت اسرة تشو ليساعد فى الاستعداد لزواج هوى . ويعود الى البيت مساء ، ويجلس مع الاخوة والاخوات ، يجاذبهم اطراف الحديث . الا انه كان يعانى فى قرارة نفسه ألما شديدا من سلوكه العجيب ، فهو يحزن للمصير الذى تساق هوى اليه ، ولكنه يساعد والدها على سوقها الى ذلك المصير . كان يختلس النظر بين الحين والحين الى هوى وهى بين الاخوة والاخوات المرحين الضاحكين ، فيحس بالذنب حين يجدها تتصنع السرور والمرح امام الآخرين .

وعاد جيويه شين من اسرة تشو ذات يوم ، وما ان دنا من جناحه حتى سمع اصواتا تتحدث ، فدخل ليجد فى الصالة جيويه مين ، وشو هوا ، وهوى ، وآخرين . فجلس بجانب هوى ، يشاركهم فى الحديث . فقالت له هوى فى صوت خافت :

ـ اغبط اخواتك كثيرا على سرورهن بالمعيشة فى هذه الدار .

انتفض حين سمعها تقول : اغبط ، كأنما حزت الكلمة ضميره . الا انه كان يعرف شعورها فى هذه اللحظة . وحين جال فى خاطره ان هوة سحيقة تنتظرها تقلصت عضلات وجهه من الألم ، ولم يتمالك ان قال لها فى صوت خافت :

ـ لا تقولى هذا ! يؤلمنى ان اسمع منك هذا الكلام .

احمر وجه هوى ، واخذ قلبها يدق بعنف ، اذ لم يدر بخلدها

ان يقول لها هذا الكلام الذى دل على اهتمامه المفرط بها وحبه الصادق لها ، فأخضلت عيناها واطرقت برأسها دون ان تدرى ما تقول .

عندئذ همست شو هوا فى اذن شو ينغ :

— انظرى يا اختى ، لا اعرف ما الذى قال اخى الاكبر للاخت هوى . هى مطرقة الرأس صامتة ، وهو دامع العينين .

التفتت شو ينغ اليهما ، فتأثرت مما رأت ، وقالت لشو هوا :

— دعيهما يتحدثان ! لا تزعجيهما !

وفى الليل ذهب جيويه شين الى حديقة الدار ، وكان ضوء القمر ساطعا . وفيما هو يسير طرق سمعه صوت شخصين يتحدثان .

— لا ألوم الا نفسى ، انا مسالمة سهلة الانقياد ضعيفة الارادة . لا يسعنى اليوم الا الاستسلام للقضاء والقدر .

كان الصوت صوت هوى .

— يؤسفنى اننى لست رجلا ، والا لساعدتك بكل تأكيد .

وهذا صوت شو ينغ .

تنهدت هوى ، ثم قالت :

— لا يزال فى الوقت متسع لايجاد حل لمشكلتك انت ، لك اخوة ، سوف يساعدونك . الاخ الاكبر طيب القلب .. ولكنه عانى الكثير فى الفترة الاخيرة ، انا اخاف عليه ...

خفق قلب جيويه شين بشدة حين سمع العبارة الاخيرة ، واستند الى شجرة بامبو غليظة ، فاهتزت تحت ثقل جسمه .

لم تكمل هوى حديثها ، لأنها لم تجد عبارة لائقة للتعبير عن شعورها . وفوجئت هي وشو ينغ فى اللحظة التالية بصوت قريب منهما . وقبل ان تتنبها من دهشتهما ، خرج اليهما جيويه شين ، وقال لهما انه قد سمع حديثهما ، ثم اضاف :

— احس بالمذنب نحوكما .

ثم تقدم الى هوى ، وقال :

— ارجو ان تعذريني .

تطلعت اليه هوى فى حب وحنان كأنها تريد ان تعبر له بنظراتها عما لا تستطيع الافصاح عنه بكلماتها ، وقالت له فى صوت هامس :

— ما هذا الكلام ؟ ألا تعرف انى لا احمل نحوك الا شعور العرفان بالجميل ؟

ومسحت وجهها بالمنديل فى خفة ، ثم استطردت :

— شؤونى الخاصة لا تهم ، انما ارجو منك ان تهتم بنفسك جيدا .

— اهتم بنفسى ؟ ألا تزالين الى الآن تحصرين اهتمامك فى شؤوني انا دون ان تكترثي بشؤونك ؟ يا لك . . .

ولم يستطع متابعة كلامه ، اذ فقد القدرة تماما على التحكم فى عواطفه . وما كان منه الا ان استدار على عقبيه ومضى فى سبيله .

شيعته هوى بنظراتها صامتة ، وهى تجفف دموعها .

سمعت شو ينغ ما دار بين الاثنين ، وادرك ما يختلج فى قلبيهما ، فتأثرت تأثرا عظيما ، وخامرها احساس لا تدرى كنهه .

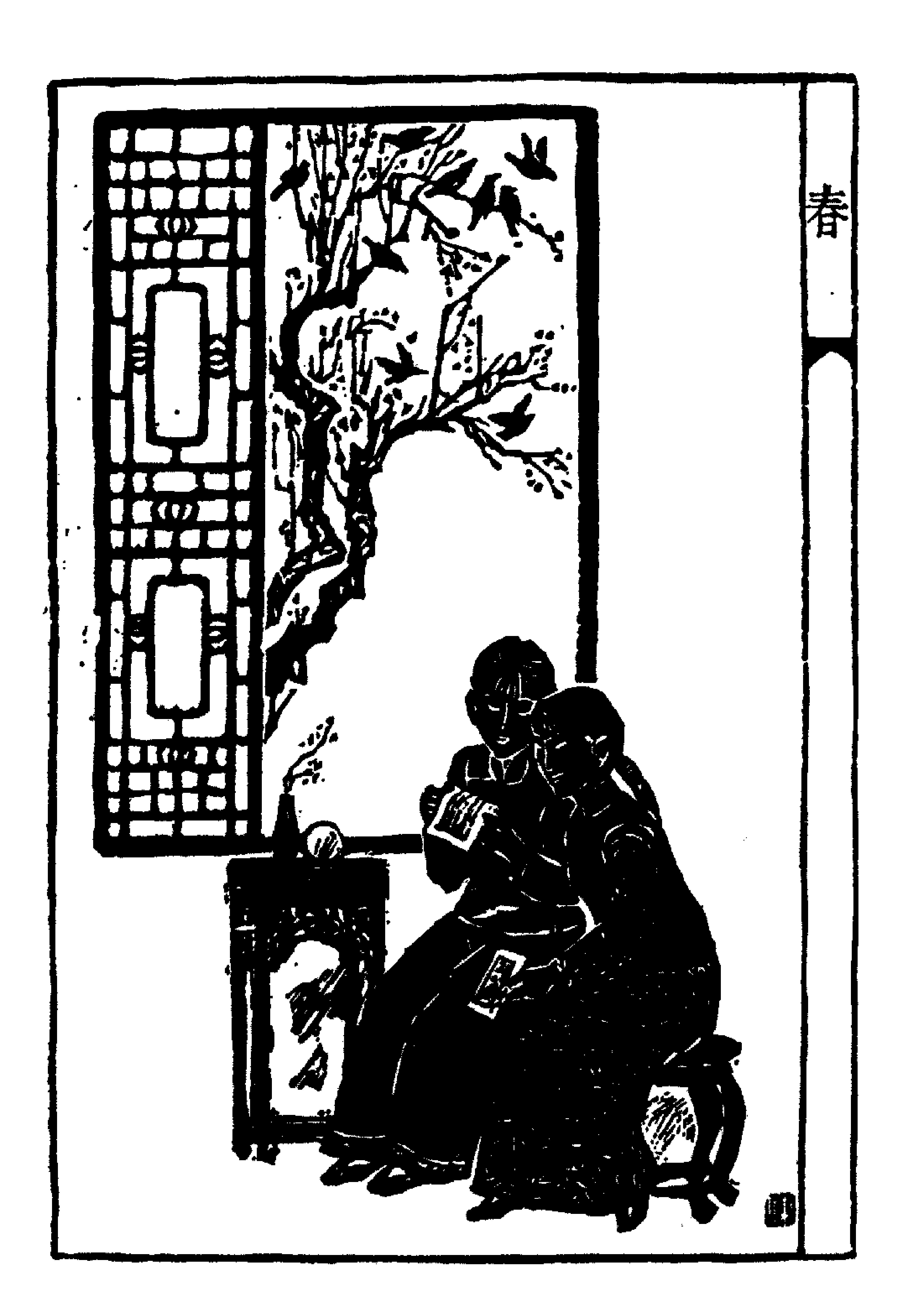
ثم انقضت عدة ايام ، واقام الاخوة والاخوات مأدبة لتوديع هوى ، فشرب جيويه شين كثيرا الى ان سكر وهو يرفع قدحه ليشرب نخب هوى .

١٠ ـ رسائل من جيويه هوى

جاءت اربع رسائل من شانغهاى كتبها جيويه هوى الى اخويه : جيويه شين وجيويه مين ، واختيه شو هوا وشو ينغ . ونظرا لأن الرسائل مكتوبة على اوراق كثيرة فقد ارسلها فى ظرفين .

قرأت تشين وشو ينغ رسالة جيويه هوى الى الاخيرة ، فأيقظت فى نفسيهما الامل فى الحياة ، وقوت من عزيمتهما .

لقد قال جيويه هوى فى رسالته انه عرف ظروف شو ينغ من رسالتها اليه ، وعبر عن عطفه البالغ عليها ، ولكن ساءه تشاؤمها . واورد فى الرسالة عدة امثلة ، بين فيها كيف يلقى الشباب التنكيل والاضطهاد ، ويصبحون ضحايا لا قيمة لها على مذبح القواعد الاخلاقية البالية والمفاهيم المهترئة . وقال ان ذلك ظلم ، لأن من حق الشباب ان يعيشوا ، وان يسعوا الى الحرية والمعرفة والسعادة ، فلا يحق لأى كان ان يحرمهم من هذه الحقوق ، وعلى الآباء والأمهات ان يحترموا حقوق ابنائهم وبناتهم فى ذلك . وكل تصرف من شأنه ان يعوق نمو القوى الناشئة يعد جريمة لا تغتفر ، وعلى كل شاب ان يحارب ضد هذه الجريمة . فلا يجوز له فى اى حال من الاحوال ان يحنى هامته للتيقى الضربة القاضية وهو صاغر .



春

ثم قال ان ذلك العصر الذى يتحكم فيه الآباء والامهات فى امر زواج الابناء والبنات قد ولى الى غير رجعة .

ان عددا لا يحصى من الشباب قد حرموا من السعادة العائلية ، او همدت هممهم وطموحاتهم نتيجة زواجهم بهذه الطريقة الخاطئة ، بل ان الكثيرين منهم قد ضحوا بحياتهم بسبب ذلك ، وشو ينغ لا تجهل ان فى اسرة قاو بالذات عدة ضحايا . اما الآن فقد تغير الحال ، ونهض الشباب الصينى من رقادهم شيئا فشيئا ، وحان لهم ان يقرروا بأنفسهم امر زواجهم ، وان يصنعوا مستقبلهم بأيديهم . واننا لنجد هذا الطراز من الشباب فى كل مكان من البلاد . وعلى شو ينغ ان تكون واحدة منهم ، ومن الخطأ ان تيأس لتقف امام الحظ العاثر مشلولة الارادة ، بل عليها ان تنهض وتناضل فى سبيل سعادتها .

وفى معرض حديثه عن احوال المدارس فى شانغهاى ، سألها ان كان فى نيتها ان تدرس فى شانغهاى او نانجينغ . وقال انه على استعداد لمساعدتها ان هى رغبت فى ذلك حقا ، وانه واثق بأن جيويه مين وتشين سيساعدانها ايضا .

وفى الختام شجعها على الهرب من البيت والمجئ الى شانغهاى .

وجدت شو ينغ ان جيويه هوى على صواب فى كل ما قاله فى الرسالة ، اقوال لم يسبق لها ان سمعتها من احد . فخفق قلبها بشدة ، واحتقن وجهها من شدة التأثر والانفعال .

طوت شو ينغ الرسالة فى حرص شديد ، ثم نظرت الى تشين متسائلة .

كانت مضطربة النفس متحيرة ، شأنها فى ذلك شأن رجل اشتد به المرض ، ثم ابصر فجأة بصيصا من النور وخيطا واهيا من الامل ، فكان من الطبيعى ان يحاول جهده استغلال هذا الضوء الضئيل ، ولكن لا يدرى هل سينقذه هذا الضوء من الهلاك ، وهل يستطيع هو استغلال هذا الضوء . فطنت تشين من نظرة شو ينغ الى حيرتها ، فابتسمت لها وردت على تساؤلها بنظرة مشجعة ، ثم قالت :

ـ حقا ان الاخ جيويه هوى اعقل منا ، فكلامه صحيح تماما .

انفرجت اسارير شو ينغ حين سمعت قول تشين . لقد ابصرت ضوءا مشرقا بدد ما كان يخيم على ذهنها من سحب سوداء ، وهدأت نفسها بالتدريج ، واحست براحة لم تحس بمثلها من قبل .

١١ ـ خطأ كبير جديد

جاء يوم زفاف هوى اخيرا ، وصار اهلها فى شغل شاغل . جاءهم للتهنئة اقارب من اسرة قاو ، الجيل المتقدم منهم فى السن وجيل الشباب . كانت هوى شديدة الاضطراب كسجين محكوم عليه بالاعدام لدى سماعه صوت نصب المشنقة . فقد كان الشؤم يحوم فوق رأسها .

ولما انصرف المهنئون والمهنئات ذهبت السيدة تشن لتوديع

ابنتها هوى التى عاشت فى كنفها عشرين عاما كاملة ، فدخلت مخدعها ، وقالت لها :

– انا شديدة الاسف يا بنيتى ، قلبى لا يطاوعنى على تركك تذهبين الى اسرة تشنغ ، ابوك القاسى هو السبب ، هو الذى اوقعك فى هذه المصيبة .

وبكت بحرارة كأنها طفلة مظلومة .

فقالت هوى بلهجة حاولت ان تجعلها هادئة ، وهى تبتلع دموعها :

– لا تحزنى يا ماما ، هذا قضاء وقدر ، فلا لوم عليك .

نقلت هوى من بيتها الى حيث لا تحب فى محفة مزركشة وسط انغام الموسيقى .

وادرك جيويه شين بغتة ، وكأنه افاق من حلم ، ان كل شىء قد انتهى . انه هو الذى ارسلها الى تلك الهاوية المروعة ، هو الذى ساعد على سوقها الى ذلك المصير المحزن . وهكذا ضحى بآخر شخص عزيز عليه .

واحس بدوار فى رأسه ، وغامت الدنيا امام عينيه ، وتخاذلت ساقاه ، فسقط مريضا .

عرفت هوى بمرض جيويه شين بطريق غير مباشر ، فجزعت كثيرا . ولم يكن فى وسعها زيارته ، فبعثت بخادمتها يانغ التى جاءت بها من بيت ابيها يوم تزوجت ، لزيارته ، وحملتها بعض الهدايا . كان جيويه شين قد تحسنت حاله بعد ان لزم الفراش اسبوعين . فاستقبل الخادمة وهو مستلق على كرسى خيزرانى ،

وتركها تسرد عليه احوال هوى . ومما قالت ان حماها وحماتها صارمان خبيثان ، وان زوجها رجل غريب الاطوار شديد الجفاء . ومثال ذلك ان هوى لزمت غرفتها ذات مرة لوعكة ألمت بها ، فلم تشارك والدى زوجها فى الأكل ، فوبختها حماتها بسبب ذلك ، فبكت كثيرا من شدة الغيظ والقهر ، الا ان زوجها لم يلاطفها بكلمة واحدة ، بل نعتها بضيق الصدر .

ثم اضافت فى حنق :

— ما رأيت طول عمرى رجلا غريب الاطوار مثل زوجها .

كان سيدى تشو اعمى حيث وقعت مثل هذه الاسرة موقع الرضا فى نفسه ، وقذف بهذه الزهرة اليانعة فى الاوحال ! اننى لو لا حبى لسيدتى هوى ، لما رضيت بالخدمة فى اسرة زوجها .

تألم جيويه شين كثيرا مما سمع . ثم تناول من على الطاولة هدية هوى : بطاقة مما يوضع بين صفحتى الكتاب — علامة فاصلة ، صنعتها هوى بيدها ، ودونت عليها بيتين من الشعر :

.. ودودة القز
تظل حتى النفس الاخير
تنسج من لعابها الحرير .
والشمعة المضيئة
لا تنضب الدموع فى مقلتها
الا اذا ادركها الفناء .

جاش قلب جيويه شين حين قرأ البيتين ، اذ ادرك ما تعانيه هوى من لوعة الحب والاشتياق . وتذكر عندئذ حديث الخادمة يانغ اول ما رأته : " عندما سمعت سيدتى هوى بمرضكم جزعت كثيرا ، وقالت انها تشعر بالاسف الشديد لأنكم مرضتم بسبب الاستعدادات لزواجها ، وكانت تود ان تأتى بنفسها للاطمئنان عليكم ، ولكن زوجها غريب الاطوار ، حتى انه يسوءه ان تزور سيدتى ابويها ، تعلمون ان سيدتى دمثة الخلق متسامحة ، فلم تشأ ان تتشاجر مع زوجها ، ولذا صبرت ، وامرتنى بالمجيء لأسلم عليكم ، واستفسر عن صحتكم . "

ومما قالته ايضا : "كثيرا ما تبكِي سيدتى فى الخفاء ، وتقول : لن اعيش طويلا على كل حال ، خير لى ان اموت مبكرا . "

ادرك جيويه شين انه ارتكب خطأ كبيرا آخر ، وساعد فى جريمة جديدة . لقد تردت هوى الى هاوية سحيقة لا تستطيع الخلاص منها ، ولا يستطيع هو تغيير مصيرها المحتوم ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بكل ما يملك . فأطلق آهة طويلة ، وانحدرت الدموع على خديه مرة اخرى . واوصى الخادمة يانغ قبل انصرافها بقوله :

— سيدتك تعيش فى ظروف قاسية يا اخت يانغ ، ارجو ان تواسيها كلما وجدتها حزينة او مهمومة .

تأثرت الخادمة كثيرا من قوله ، وقالت :

— انت طيب القلب يا سيدى . سأبذل جهودى فى خدمة سيدتى . لو كان لسيدتى اخ مثلكم لما صارت الى هذه الحال .

فقال جيويه شين فى نفسه حين سمع كلام الخادمة النابع من قلبها : ما كان ليطرأ على ظروفها اى تغيير ، ولو ان لها اخا مثلى .

وتهالك فى كرسيه ، فظنت الخادمة انه متعب ، فاستأذنت وانصرفت .

١٢ ـ التصميم

اثار حديث الخادمة يانغ عن ظروف الاخت هوى هزة كبيرة فى قلوب الشباب من اسرة قاو . فانفجرت شو هوا غاضبة حين عرفت ظروف هوى ، بينما استولى على شو تشن الفزع والرعب .

اما شو ينغ فقد احست بالخوف اول ما سمعت النبأ ، كأنها رأت امامها مصيرا مماثلا يقف لها بالمرصاد ، ثم صح عزمها على سلوك طريق آخر غير الطريق الذى سارت فيه هوى ، طريق جديد لم يتفقوا بشأنه بعد على خطة محددة واضحة المعالم . انه الطريق الذى دلها عليه جيويه هوى ، والذى تبينت الآن بعد ما عرفت ما تعانيه هوى انه الطريق الصحيح الوحيد . لم تعد مترددة ، بل علقت كل آمالها على هذا الطريق الجديد ، ولم تعد متشائمة من مستقبلها ، وكل ما يؤلمها الآن هو مرارة الحياة التى تقاسيها هوى .

ان حديث الخادمة قد ذكر جيويه شين بابنة عمه شو ينغ .

لا شك ان مصيرا كمصير هوى ينتظرها ، وانها ستكون هوى اخرى . ان خطرا جسيما يهدد مستقبل شو ينغ ، الا انها مختلفة عن هوى ، فهى لا تزال تناضل ، وصوتها ، وهى تقرأ الدروس الانجليزية ، دليل على انها لن ترضى بالفناء طائعة مختارة ، ولكن هل يمكنها النجاة من ذاك المصير ؟

لم يجرؤ على التفكير كثيرا فى هذا الموضوع . انه لا يجد فى نفسه الشجاعة على ان يشهد سير شو ينغ الى ذلك المصير ، مصير قد لا يكون بعيدا ، وقد يقع الاختيار عليه هو مرة اخرى للقيام بالدور الذى لعبه مع غيرها ، فيسوقها بنفسه الى الهاوية السحيقة . . .

عند هذا الخاطر قال مخاطبا نفسه : يجب ان تهرب من هذا المصير ، ولكن هل سيكتب لها النجاح ؟

ــ لا شك اننا لا نستطيع الآن ان نعمل شيئا من اجل الاخت هوى يا اخى الاكبر . ولكن لا يزال فى الامكان معالجة مشكلة الاخت شو ينغ . انت لا تجهل احوال المحامى تشن كه جيا وابنه ، وكذلك تعرف سوء مزاج عمى الثالث فى الآونة الاخيرة ، انه لن يشفق على ابنته شو ينغ . فمن واجبنا ان نساعدها ، وهى فتاة عظيمة الهمة تستحق المساعدة .

كان المتكلم هو جيويه مين . الا ان جيويه شين احس بأن عيون جميع الحاضرين ترنو اليه ، كأنها تقول : من واجبنا ان نساعدها . كانوا ينتظرون جوابا منه ، وكانت شو ينغ تنظر اليه فى رجاء ، وعيناها مخضلتان ، فرق قلبه شفقة بها . كان يحس

بأنه ضعيف عاجز ، ولكنه صمم على ان يعمل شيئا من اجلها ، حتى لا تصبح هوى اخرى ، لذا اجاب قائلا :

— ثقوا انى سأساعد شو ينغ بكل ما فى وسعى ما دامت هى مصممة . ولكن عليكم ان تعالجوا الموضوع فى حيطة وحذر .

١٣ — " المتطرف "

يعتبر جيويه مين اسعد انسان فى الايام الاخيرة ، تستحوذ على قلبه وتفكيره حبيبته تشين واعمال مجلتهم . انه ينعم بالحنان والسلوى والتشجيع من حبيبته ، ويسره التطور الجديد الذى حققته المجلة فى الفترة الاخيرة ، والذى زاده هو وزملاؤه املا فى مستقبل افضل للمجلة .

وكتب الى اخيه جيويه هوى فى شانغهاى يحدثه عن حياته وافكاره . فقال فى رسالته بأنه واصدقاءه ، الذين هم اصدقاء جيويه هوى كذلك قد كونوا جمعية سموها " جمعية المساواة " ، ثم اضاف : ربما لم يخطر ببالك ان من الممكن ان انضم الى مثل هذه الجمعية . لقد اصبحت اليوم غيرى بالامس . كنت احمل نحو الانظمة القديمة واصحاب العقلية القديمة نوعا من الامل ، ويصعب على نبذ هؤلاء . اما اليوم فقد عرفت انى كنت مخطئا كل الخطأ . حقا ان صبر الانسان محدود . لقد انقلبت انا الرجل المعتدل الهادئ شخصا متطرفا ، فى بيتنا يسموننى اليوم " متطرفا " ، نعم لقد اصبحت " متطرفا " ، بل سوف اخلق

عددا كبيرا من " المتطرفين " .

اختى شو ينغ يرجى لها مستقبل باهر . انها صاحبة همة عظيمة ، لن نقف ازاء مشكلتها مكتوفى الايدى حتى لا تقع ضحية للنظام العتيق . هذا ما اعتزمت عليه ، ولن اخيب املك فى ذلك .

ثم حدثه كيف وزع النشرات فى الشوارع فى اول مايو ، وقال انه كتم هذا الامر عن عمه الثالث ، ولكنه عاد ، فقال انه لا يخاف منه ، لأن عمه يعجز حتى عن معالجة شؤون هذه الاسرة المعالجة الناجحة .

عمى الخامس اتخذ جارية زوجته محظية له بصورة علنية . وسمعت ايضا ان عمى الرابع له مع احدى الخادمات صلة غير طبيعية ، كل هذه تصرفات مخجلة . عمى الثالث يبدو وقورا مهيبا ، ولكنه يثير الضحك والامتعاض بتزمته ورزانته المتكلفة . ربما لا يعرف كل ما يجرى حوله . ولا اظن انه يقدر على معالجة هذه المشاكل اذا عرف ، فلا يسعه فى هذه الحال الا ان يتجاهل . ولكنه اصر على التدخل فى شؤونى مع ان تصرفاتى لا غبار عليها . ولما وجدنى غير خائف منه صب جام غضبه على اخى الاكبر .

وكتب اليه فيما بعد رسائل اخرى قال فيها :

اصدرت " جمعية المساواة " اول كتاب لها ، وهو رواية رسم فيها كاتبها صورة للمجتمع فى المستقبل . والجمعية على استعداد لاصدار كتب اخرى . ورجا من جيويه هوى ان يحصل من شانغهاى على كتب من نوع الرواية المذكورة ويرسلها اليهم .

سيقدمون تمثيلية فى العطلة الصيفية ، وقد وزعوا الادوار فيما

بينهم ، سيقوم جيويه مين بدور ثانوى ، لأنه يخشى ألا يقدر على الاداء بنجاح .

تدربوا على الاداء بكل جدية ، حتى نسوا انهم يمثلون ، بل خيل اليهم انهم يشاركون فى معركة واقعية فى سبيل الحرية .

وقال انه ينوى دعوة جيويه شين وشو ينغ لمشاهدة التمثيلية .

وكتب بشأن تشين قائلا : تخرجت تشين فى مدرسة المعلمات ، وفى نيته ان يسافر معها فى العام القادم الى شانغهاى او بكين عقب تخرجه فى مدرسة اللغات الاجنبية . وسيساعد شو ينغ فى حل مشكلتها خلال هذه المدة ، والا فسيغدو الامر صعبا بعد سفره .

وقال انه يقدم الى شو ينغ مجلة « الشباب الجديد » من حين لآخر ليغرس فى نفسها روح المقاومة .

وعن جيويه شين كتب يقول : لاحظت فى هذه الايام ان اخى اكبر حزين مهموم . حدث ليلة امس ان دخل غرفتى بغتة وانا على وشك النوم ، وقال لى انه شديد القلق بسبب الاطيان التى تملكها الاسرة ، لأن الحالة غير مستقرة فى الريف حيث ان قوات الجيش المرابطة فيه تفرض ضرائب اضافية على الاطيان ، وتجبى ضريبة الارض قبل موعدها ، حتى انها قد جبت مقدما ضريبة البضع عشرة سنة المقبلة . وقال ايضا بأن فيضانات قد حدثت فى بعض المناطق بعد الشهر الرابع القمرى . فهونت عليه ورجوت منه الا يقلق ، وانا اقول فى نفسى انه لو افلست اسرتنا الكبيرة وصار كل منا يأكل من عرق جبينه بدلا من ان نظل طفيليين نعيش على ايجارات الاراضى والمبانى ، فربما جعلنا ذلك نعيش

فى سرور بخلاف ما نشهد اليوم بين افراد الاسرة من تطاحن وتصارع . اقول لك بصراحة يا جيويه هوى انى قد مللت الحياة فى هذه الاسرة الاقطاعية الكبيرة .

١٤ ـ استدعاء الطبيب

قدمت التمثيلية التى شارك فيها جيويه مين ثلاثة ايام متتالية على مسرح " وانتشون " ، وشاهدها جيويه شين بدعوة من جيويه مين ، فأعجب بها ، وصفق بحرارة مع المشاهدين .

ولما عاد الى البيت ذهب الى السيدة تشو ارملة ابيه ، فأخبرته ان والدتها السيدة الكبيرة تشو قد بعثت بمن انبأها ان هوى مريضة ، وان السيدة الكبيرة ترجو من جيويه شين ان يذهب اليها للتشاور فى استدعاء طبيب لعلاج مرض هوى . وقع هذا النبأ وقوع الصاعقة على جيويه شين ، فتبخر تماما الاثر الذى تركته التمثيلية فى ذهنه ، وقلق قلقا شديدا ، وقدر ان هوى لا بد ان تكون قد اصيبت بمرض شديد ، والا لما دعى للتشاور فى امر استدعاء الطبيب لها .

ذهب الى اسرة تشو فى اليوم التالى . فقالت له السيدة تشن زوجة خاله فى قلق شديد :

ـ مسكينة ابنتى هوى ، لقد اصبحت ضعيفة هزيلة ، تشكو الصداع وارتفاع الحرارة وصعوبة التنفس والسعال وألم الخصر . كيف تحتمل بجسمها الضعيف كل هذه الامراض ؟ لم نعرف هذا الا يوم امس . تناولت الدواء عدة مرات دون ان يظهر عليها اى

تحسن . وخالك متحير لا يدرى ماذا يعمل . لقد رأت السيدة الكبيرة ان نتشاور معك فى الامر .

فأطرق جيويه شين مفكرا ، ثم رفع رأسه وقال فى حزم :

ـ اعتقد ان من الأفضل استدعاء طبيب مختص فى الطب الغربى . الاخت هوى حامل ، وليست مريضة عادية ، فلا يمكن التهاون فى الامر .

عندئذ قال تشو بوه تاو والد هوى :

ـ اخشى ألا توافق اسرة زوجها .

والواقع ان تشو بوه تاو نفسه لا يميل الى الطب الغربى .

فقالت السيدة الكبيرة فى حنق :

ـ هات لنا اذن حلا افضل ! انت الذى سببت لهوى هذه المصائب ، ان حياتها ستضيع على يدك !

بوغت تشو بوه تاو بهجوم والدته عليه ، اذ انه لم يسبق لأحد من افراد اسرته ان تجرأ على مخالفته ، فهو رب الاسرة وصاحب السلطة المطلقة ، اما الآن فقد اطلقت السيدة الكبيرة صيحة مقاومة ، فما كان منه الا ان تراجع وانسل من الغرفة دون ان ينبس بكلمة .

قررت السيدة الكبيرة ان يذهب جيويه شين لاستدعاء طبيب فرنسى .

ذهب جيويه شين بالطبيب الى اسرة تشنغ ، فرافقهما زوجها تشنغ قوه قوانغ الى مخدعها .

كانت هوى راقدة على السرير يبدو عليها الشحوب والهزال . فتطلعت الى جيويه شين ، وحيته بابتسامة ، ثم قالت :

— كيف حالك يا اخى ؟

وطفرت الدموع من عينيها ، فأشاحت بوجهها مسرعة .

طغى على جيويه شين حزن طاغ ، الا انه تجلد وتصنع الابتسام وهو يتحدث مع الطبيب .

وقال الطبيب بعد ان فحصها :

— انها مصابة بالتهاب المثانة ، وهذا المرض تصاب به الحوامل كثيرا . لا داعى للقلق . ولكن يلزم اجراء عملية جراحية بسيطة .

فقال تشنغ قوه قوانغ عقب انصراف الطبيب :

— ارى ان اقوال هذا الطبيب لا تصدق . اذ ما علاقة الصداع بالبول ؟

التفت جيويه شين الى هوى ، وسألها عن رأيها . فأبدت موافقتها على توصية الطبيب ، لأن جدتها هى التى استدعت لها هذا الطبيب ، وان جيويه شين تكرم بمرافقته اليها .

عندئذ اربدت سحنة حماتها ، وصاحت بصوت ثاقب كمن اصيب بنوبة هستيرية :

— كيف تقبلين العلاج من طبيب اجنبى يا كنتى العزيزة ؟ الأجانب مكارون يحتالون على الناس بوسائل عجيبة . ثم ان . . .

وهم جيويه شين ان يطمئن حماتها ، الا أن هوى نادته :

— اخى !

ثم ابتسمت فى اعياء وقالت له :

— اتعبتك اليوم ، فشكرا جزيلا . كلام امى معقول . لا

داعى للطب الغربى . ارجو ان تخبر جدتى والآخرين بهذا ، ولا يقلقوا من اجلى .

وخان جيويه شين النطق ، وهو يحملق فى وجه هوى ، بينما بدت على محيا حماتها علائم الرضا ، واثنت عليها قائلة :

ــ هذا هو كلام العقلاء يا كنتى .

وقال تشنغ قوه قوانغ فى لهجة رقيقة :

ــ اختاك صاحبة عقل راجح يا اخى . نعم ، ليس من المناسب استدعاء رجال الطب الغربى لعلاج مثل هذا المرض . ارجو ان تبلغ حماى وحماتى بهذا لكى يطمئنوا .

فأجابه جيويه شين بعبارة غير واضحة . ثم اوصى هوى بكلمة موجزة وانصرف .

وفى الطريق عادت الى مخيلته صورة هوى بوجهها النحيل الشاحب ، واعتصر قلبه السخط ، والألم ، والخوف عليها من المصير الذى ينتظرها .

١٥ ــ عالم آخر

فى اليوم التالى لمشاهدة جيويه شين تلك التمثيلية ذهبت تشين الى اسرة قاو ، ودعت شو ينغ سرا الى الخروج معها لمشاهدة التمثيلية ، فقبلت .

انتهزت تشين فرصة مناسبة ، ودعت شو ينغ امام والدتها الى تمضية بعض الوقت فى بيتها ، فلم تعارض الوالدة بطبيعة الحال .

وعادت تشين الى بيتها ومعها شو ينغ . ثم قالت لأمها انها ستصحب شو ينغ الى السوق لشراء بعض الاشياء . وهكذا ذهبتا الى المسرح وشاهدتا التمثيلية دون ان يعلم احد .

كانت هذه اول مرة تدخل فيها شو ينغ المسارح . كان كل شيء فى المسرح جديدا عليها . وكان الباكون مخصصا للسيدات، قد جلست فيه كثير من طالبات المدارس . اما الصالة فللرجال، ومعظم المتفرجين فيها طلاب . وقد ساد المسرح جو يفيض بحيوية الشباب .

كانت التمثيلية تدور حول قصة ثوريين اجانب . وقد قام جيويه مين واصدقاؤه بأدوار اشخاص التمثيلية من رجال ونساء ، وكان تمثيلهم ناجحا . وقد تابع جميع النظارة التمثيل بكل جوارحهم ، مأخوذين بحركات الممثلين ، وانصتوا الى حوارهم بكل انتباه . وكلما اسدل الستار عقب كل فصل دوت فى ارجاء المسرح عاصفة من التصفيق .

ومالت شو ينغ على تشين ، وقالت لها مبتسمة ، وعيناها مغرورقتان :

— احس برغبة فى البكاء يا اختى .

— وانا كذلك . ان المسرحية مؤثرة جدا .

وقالت شو ينغ فى انفعال ظاهر :

— لم اكن اعرف ان فى العالم اناسا مثل هؤلاء وامورا كهذه .

— انت تحبسين نفسك فى البيت طول اليوم ، فلا عجب ان

تجهلى ما يجرى فى هذا العالم . اذا خرجت بعد اليوم كثيرا ، وشاهدت ما يجرى هنا وهناك ، فان دائرة عالمك ستتسع اكثر فأكثر .

وقالت شو ينغ فى اسى :

– لا افهم لماذا تستطيع المرأة الاجنبية ان تعمل كل هذا بحرية ، فى حين ان المرأة فى الصين تساق الى الرجل هدية ، وتحبس كما يحبس الطائر فى القفص ، مع انها انسانة مثل المرأة الاجنبية ؟ ليس لنا الحق فى اتخاذ اى قرار حتى فى شؤوننا الخاصة. ولا يسعنا حين يرسلنا الآخرون الى الجحيم الا الاستسلام .

تأكد لدى تشين من حديث شو ينغ انه قد طرأت على هذه الفتاة تغيرات ، لقد اطلت برأسها اخيرا من محبسها لتطلع على ما فى العالم الخارجى ، واشتدت بها الرغبة فى الانفلات من محبسها لتطير الى الفضاء الشاسع . وهذا ما كانت ترجوه تشين ، لذلك عمها ارتياح من هذا التحول ، فاغتنمت الفرصة وقالت لها :

– لهذا السبب حمل الاخ جيويه مين وزملاؤه على القواعد الاخلاقية القديمة ، والناس على حق حين نعتوا هذه القواعد بأنها قواعد آكلة للبشر . لا ندرى كم من النساء افترستهن هذه القواعد ، منهن من رأيت بعينى ، مثل الاخت مى ، وزوجة الاخ جيويه شين ، والجارية مينغ فنغ . وهناك ايضا الاخت هوى التى سارت فى هذا الطريق . ولكن كثيرا من النساء الصينيات قد استيقظن ، واخذن يناضلن ضد المصير الذى يحاول الآخرون سوقهن اليه ، وضد قواعد السلوك القديمة .

ثم حدثتها ان عدد الطالبات اللاتى اقدمن على قص ضفائرهن تمردا على التقاليد القديمة آخذ فى الازدياد فى كثير من المدن وفقا لما جاء فى رسائل زميلاتها من مدن اخرى .

تأثرت شو ينغ كثيرا من حديث تشين ، واستمدت منه الشجاعة .

واستمر التمثيل على خشبة المسرح . واغرورقت عيونهما بالدموع حين قال احد اشخاص المسرحية فى صوت مؤثر :

— سأواجه الموت رابط الجأش ثابت الجنان .. ان الحرية ستشرق على الدنيا مع طلوع الشمس غدا .

واسدل الستار بين هتافات " الى الامام ! الى الامام ! " ، فدوى التصفيق كالرعد القاصف ، وهب الطلاب والطالبات وقوفا .

اثنت شو ينغ على بطلة المسرحية فى حماسة :

— انها فتاة شجاعة .

وغادرت تشين وشو ينغ المسرح ، وصيحات الثوار ما زالت تطن فى آذانهما .

١٦ — تغير شو ينغ

لقد هزت التمثيلية شو ينغ هزة عنيفة ، اذ اطلعتها على عالم جديد ، ووضعت امام عينيها هدفا ساطع الضياء ، وعرفتها بأناس من طراز جديد ، اناس من لحم ودم ، ذوى عواطف فياضة

وغرائم قوية ، اصحاب قلوب صافية طاهرة ، يخيل اليها انهم من عالم آخر اذا قورنوا بأفراد اسرتها . وجدت شو ينغ ان حياتهم الحافلة التى تفيض حرارة وعاطفة وتتجلى فيها روح الاقدام على البذل والتضحية هى الحياة الصحيحة .

لقد تخلصت من كل ما كانت تعانى من تردد ووجل . تشاورت مع جيويه مين وتشين ، وصممت على استغلال اول فرصة سانحة للانفلات من محبسها ، فتطير منه حرة طليقة كما يطير العصفور من قفصه .

كانت فيما مضى تبغض الحياة داخل القفص ، وتوجس خيفة من ان يحل بها ذلك المصير المشؤوم المرتقب ، اما الآن ، وقد اطلت من القفص ، وفتحت عينيها على روعة المنظر فى سماء الحرية ، فقد قويت عزيمتها ، واصرت على تحدى المصير المنتظر .

كانت صور اشخاص التمثيلية لا تفتأ تتخايل امام عينيها ، تشجعها وتناديها ، والكتب والمجلات التى قرأتها فى الاشهر الاخيرة تشد ازرها من الناحية النظرية .

بدأت تعد نفسها من مختلف النواحى ، فصارت اكثر اجتهادا فى دراسة الانجليزية ، كما بدأت تدرس علوما اخرى على يد تشين . ولم تعد تقضى اوقاتها فى التنهد والبكاء .

وذات يوم ، بينما كانت شو ينغ وشو هوا تأخذان درسا فى الانجليزية من المدرس الخصوصى كالعادة .. اذ طرق اسماعهما صوت رجل يتنحنح اعقبه وقع اقدام مألوف يمر خارج النافذة ، فغمغمت شو ينغ :

— بابا رجع .

ولم يمض وقت طويل حتى دخلت الجارية تسوى هوان بادية الارتباك ، وقالت لشوينغ :

— السيد الثالث رجع ، اسرعى !

نهضت شو ينغ على عجل ، وخرجت وراء الجارية .

كان كه مينغ جالسا فى الاريكة يدخن حين دخلت شو ينغ ، فتقدمت منه وحيته ، وقالت له فى صوت رقيق :

— عدتم يا بابا .

فهز كه مينغ رأسه بالايجاب ، وسألها بلهجة لوم :

— نعم ، عدت من وقت طويل ، ولكنك تأخرت فى المجئ للتسليم على .

فقالت شو ينغ مطرقة الرأس :

— كنت اتعلم . لم اعرف ان بابا رجع الى البيت .

عندئذ تدخلت امها فى الحديث تحاول انقاذ ابنتها من الموقف الحرج :

— صحيح ، البنت مجتهدة جدا فى الدراسة فى الايام الاخيرة . تتعلم اللغة الانجليزية حتى فى المساء .

قطب كه مينغ جبينه ، وقال فى لهجة صارمة :

— ما فائدة تعلم اللغة الانجليزية بالنسبة لفتاة ؟ يكفى ان تتمرن البنت على الخط وتجيده بعض الاجادة ، لم تعد صغيرة السن ، ومدرسها ايضا شاب صغير . سمعت ان هذا المدرس كان بين الحاضرين يوم ذهبن الى الحديقة العامة . اذا بلغ هذا الامر

مسامع المحامى تشن كه جيا ، فسيسخر منا ، ويقول اننا نهمل التربية العائلية للاولاد .

فدافعت الوالدة عن ابنتها ، وقد آلمها ان تجدها دامعة العينين :

— لا اظن ذلك . مدرسهن من اقاربنا ، وهو شاب مؤدب . أما شو ينغ فأنا واثقة بها ، ثم أن رغبة الشباب فى الدراسة شىء جميل .

فتجهم وجه الاب ، وعاتب زوجته قائلا :

— انت تدللينها دائما ! هل تستطيعين تحمل المسؤولية اذا ما حدث شىء ؟ اما انا فسيخجلنى ان اواجه تشن كه جيا لأسوى معه الموضوع .

احتقن وجهها غضبا وقالت :

— انت شديد الجفاء يا سيدى . كيف طاوعك لسانك على قول هذا امام ابنتك ؟ انا استطيع ان اتحمل المسؤولية . اذا حدث اى شىء للبنت ، فكلمنى انا !

— تستطيعين تحمل المسؤولية ؟ !

وانفجرت شو ينغ باكية ، وجرت خارجة . ولما رأت امها ذلك غادرت الغرفة مهتاجة منتفخة الاوداج .

عادت شو ينغ الى مخدعها مسرعة . وما لبث ان لحقت بها امها .

— ارى ان تعملى برأى ابيك يا بنيتى . ماذا تعملين باللغة الانجليزية ؟ لن تستعمليها بعد زواجك من ابن المحامى تشن .

خير لك ان تتعلمي الطبخ بدلا من الانجليزية ، فاذا استطعت صنع بعض الوان الطعام اللذيذ ، فستكسبين رضا زوجك وابويه .

ثارت ثائرة شو ينغ ، وردت على امها بحدة :

— لن اعمل برأى ابى ! اننى مصرة على تعلم الانجليزية ، ولا احب كسب رضا الآخرين .

فوجئت الام بهذه الثورة الجامحة ، فحملقت فى ابنتها ، وقد انعقد لسانها من شدة الدهشة ، واحست بأن شو ينغ قد تغيرت .

١٧ ــ انطفأت الشمعة ونضبت من مقلتها الدموع

مرت الايام سراعا ، واقبل الخريف بجوه المنعش .

تحسنت حالة هوى الصحية بالتدريج ، واستطاعت الخروج ، فزارت اسرة قاو مع جدتها لتهنئة شو هوا بعيد ميلادها ، الا انها كانت بادية الاعياء ، وشحوب الموت يعلو وجهها .

ثم عاودها المرض بعد اسبوعين من عيد منتصف الخريف ، فكانت تتقيأ وتشكو من ارتفاع فى الحرارة . وزارها جيويه شين مرة ، الا انه وجد نفسه عاجزا عن مساعدتها ، فانصرف من عندها متذرعا ببعض الاعذار . ولكن ابلغه احد الخدم صباح اليوم التالى بأن السيدة الكبيرة تشو قد بعثت بمن يدعوه الى موافاتها فى الحال لأن هوى فى حالة خطرة .

اسرع جيويه شين الى اسرة تشو ، فقالت له زوجة خاله :

— لقد اصبحت هوى تقىء كل ما تأكله ، اذا شربت

الدواء قذفته من معدتها بعد قليل . لقد ساءت حالها فجأة بعد ان انصرفت من عندها امس . الاطباء التقليديون ينصحوننا باستدعاء رجال الطب الغربى لعلاجها ، ولكن اسرة تشنغ لا توافق . فزوجها يقول بأن رجال الطب الغربى لا يفقهون شيئا من علم العناصر الخمسة الذى يتقنه رجال الطب التقليدى ، فلا يمكن الركون اليهم .

كانت زوجة الخال والسيدة الكبيرة فى غاية القلق والحيرة . فقال جيويه شين :

– اذن ندعو بعض رجال الطب الغربى ما دام الاطباء التقليديون قد اقترحوا ذلك .

ولكن تشو بوه تاو عارض بشدة قائلا :

– هذا لا يصح . يجب ان تكون اسرة زوجها صاحبة الكلمة الاخيرة فى هذا الامر . لأن هوى من نساء هذه الاسرة . يقول المثل : البنت اذا تزوجت صارت كالماء اذا سكب خارج الدار . فلا يجوز ان ادع اسرة تشو تقول عنا اننا لا نعرف الاصول .

وهكذا لم تسفر المشاورات عن اية نتيجة .

تذكر جيويه شين ، وهو عائد الى بيته ، انه زار تشو بوه تاو ذات مرة ، فأثنى هذا على صهره تشنغ قوه قوانغ الذى كان حاضرا ، قائلا انه كتب موضوع انشاء بعنوان " العامة اوضع من ان يفقهوا القواعد الاخلاقية ، والخاصة اسمى من ان تنزل بهم العقوبات" ، واخرج المقال ليطلع عليه جيويه شين ، فقرأه بغير اكتراث ، فلم يعجبه ، ولكن لم يسعه الا ان يقول له كذبا :

– رائع جدا .

كان تشنغ قوه قوانغ شديد الاحترام لحميه ، لا تفارق شفتيه كلمة " بابا " ، وكلمة " حاضر " . وقد سر كثيرا حين سمع حماه يثني على مقاله ، فرجا منه ان يختار له عنوانا آخر ليكتب فيه .

كان تشو يصف صهره بأنه " نابغة فذ " ، ولكن هذا " النابغة الفذ " يرفض الآن استدعاء رجال الطب الغربي لعلاج مرض هوى بحجة انهم لا يفهمون نظرية العناصر الخمسة ! هنا انتقل تفكير جيويه شين الى ما سيؤول اليه امر هوى ، فتملكه مزيج من الحنق والقلق والحزن .

سار حال هوى من سيء الى اسوأ ، فقد انتابها اسهال حاد ، واخذت تقيء كل ما تتناوله من دواء ، واشتد بها الهزال حتى اصبحت جلدا على عظم . تحس بالبرودة تسرى فى اطرافها ، وتعرق عرقا باردا . وقد اسقط فى يد رجال الطب التقليدى . عندها قال " النابغة الفذ " كارها : " لم يعد باليد حيلة غير اللجوء الى الطب الغربى . " بل رضى بارسال المريضة الى المستشفى . وكان من طبيعة الحال ان تقع مهمة استدعاء الاطباء ومرافقة المريضة الى المستشفى على عاتق جيويه شين .

ولكن موافقة الزوج جاءت متأخرة جدا . كانت المريضة فى اشد حالات الضعف ، والامل ضعيف فى شفائها .

احس جيويه شين ، وهو يرى هوى على هذه الحال من الضعف والهزال ، كأن سكينا يحز فى قلبه ، الا انه لم يجرؤ

على ان يكشف شعوره هذا امام الآخرين ، ولم يسعه الا ان يعمل من اجلها كل ما يستطيع عمله وهو صامت .

وكانت جدة هوى وامها شديدتى الحزن . قالت الاولى :

ـ أعتقد ان هوى مرضت بسبب الغيظ والحزن ، لو لم نزوجها بغير رضاها ، لما حصل لها ما حصل .

وكان تشو بوه تاو هو الشخص الوحيد الذى لا يبدو عليه شيء من الحزن . وحين سمع كلام والدته دافع عن اسرة تشنغ بقوله : ان اسرة تشنغ تعامل هوى معاملة حسنة . وان صهره من نوابغ هذا العصر ، فلا لوم على احد الا سوء طالع هوى .

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة تماما ، وقد نامت هوى بعد تناول الدواء ، وغفا زوجها فى كرسيه . تطلع جيويه شين الى هوى ، فلم يصدق ان هذا الوجه المصفر الشاحب هو وجهها الجميل التكوين . وبغتة خيل اليه كأن انفاسها قد خمدت ، فاستغرب ، وحدث امها فى ذلك فى رعشة وخوف ، فأسرعت هذه ، وتحسست وجهها ويديها ، فاذا بها قد سرت فيها برودة الموت .

افاق تشنغ قوه قوانغ من نومه مذعورا .

اسرع الجميع الى جانب السرير .

كانت انفاسها قد خمدت ، وماتت فى هدوء .

كانت امها اول من انفجرت باكية .

وانهمرت الدموع على وجه جيويه شين ، ولكن لم يستطع ان يرفع صوته بالبكاء .

١٨ ـ هكذا التربية العائلية

فى اليوم التالى لوفاة هوى ، وبينما كانت شو ينغ وشو هوا تأخذان الدروس الانجليزية فى غرفة جيويه مين من المدرس الخصوصى ، تناهى الى الاسماع وقع الاقدام المألوف ، ثم اخذ يشتد ويقترب حتى توقف امام الباب .

اريح ستار الباب ، ووقف كه مينغ عند مدخل الغرفة متجهم الوجه ، فهبوا واقفين .

قال لشو ينغ :

ــ تعالى يا شو ينغ ، لى كلام معك .

استجابت له شو ينغ فى وجل ، فحملت كتابها وسارت وراء ابيها .

دخل كه مينغ غرفة مكتبه ، وجلس على كرسى امام المكتب فى حين وقفت شو ينغ جانبا .

بادرها كه مينغ فى حدة وبلا مقدمات :

ــ قلت لك سابقا كفى عن تعلم الانجليزية ، ولكنك تتجرئين على مخالفة امرى ! لم تعودى فتاة صغيرة ، عليك الآن ان تكونى مؤدبة حسنة السلوك . صحيح ان الزمن قد تغير ، ولكن لا يجوز ان يختلط الرجل بالمرأة . والد خطيبك عالم كبير فى الكونفوشية ، ومحام مشهور فى حاضرة المقاطعة ، وهو معجب بأسرتنا وحسن سمعتها . فاذا عرف انك تتعلمين الانجليزية من شاب وتختلطين به كل يوم ، فانه سيعيب


春

اسرتنا زاعما انها لا تهتم بتربية اولادها وبناتها ، وعلى اناث خالفت قواعد سلوك الحريم فى الاسر المحترمة . ستكون هذه وصمة عار لن اسمح بها ، سمعت ؟ اذا رأيتك معه بعد اليوم ، فسوف اتبرأ منك !

ودعا اليه جيويه شين ، وامره ان يكلم مدرس الانجليزية ، ويطلب منه ان يمتنع عن مقابلة شو ينغ بعد اليوم ، اما المكافأة المالية ، فستقدم اليه شهريا كالمعتاد .

فأجاب جيويه شين فى اذعان :

ــ نعم .

وعندها رفعت شو ينغ رأسها وتوسلت الى جيويه شين فى صوت خنقته العبرات :

ــ ارجو ألا تقول هذا للمدرس ، فهو ايضا رجل له كرامته .

اكفهر وجه كه مينغ ، وصاح فى وجه شو ينغ فى صوت لاهث :

ــ أ تحاولين حمايته ؟ اصبحت تقاومينني انا ؟ !

وتحول الى زوجته التى دخلت منذ لحظات ، وعاتبها قائلا :

ــ انظرى يا سيدتى الى ابنتك الحبيبة التى ربيتها ! اصبحت تصرفاتها اكثر منافاة لأدب السلوك . رأيى ان يتم تزويجها بأسرع ما يمكن لئلا يحصل ما ليس فى الحسبان .

فقالت زوجته غاضبة :

ــ ماذا جرى لك يا سيدى ؟ أ هذا كلام تقوله إمام ابنتك ؟ كيف اطاعك لسانك على التلفظ بمثل هذا القول !

فأتى كه مينغ باشارة من يده ، وقال :

— اسكتى ! انا أؤدبها لتسير فى الطريق القويم . انت فشلت فى تأديبها ، فأنا أؤدبها الآن بدلا منك .

ثم قال بصرامة :

— حسنا ، سأتركها اليك . ولكن اذا رأيتها بعد اليوم تتعلم اللغة الانجليزية البغيضة ، فأنت المسؤولة !

عندها استدارت شو ينغ وهرولت خارجة وهى تبكى .

كان جيويه شين يقف امام عمه فى خضوع . الا ان الظلم الذى تعرضت له الفتاة حرك مشاعره ، اذ وجد يدا تجر شو ينغ خطوة خطوة نحو شفا الهاوية ، وادرك ان المآسى الماضية ستتكرر . ولكنه لا يستطيع الآن ان يبقى ساكنا يتفرج ، لقد اصيب قلبه بجرح جديد امس فلن يطيق صدمة اخرى . استيقظ قلبه ، وانبعثت منه صيحة مقاومة برغم انه كان فى الظاهر يستمع الى كه مينغ فى احترام ، ولا يجرؤ على الاتيان بأية حركة امامه تدل على المقاومة . ان قواعد السلوك الاقطاعية التى تقتل دون اراقة دماء قد اثارت الغضب حتى فى نفس اكثر الناس دعة وتهيبا ، ان جيويه شين الذى كان الى عهد قريب يفكر فى الحفاظ على سمعة اسرته ، قد بدأ فى هذه اللحظة يحقد على قواعد الاخلاق البالية ، بل صار يبغض عمه كه مينغ .

واخيرا قال لكه مينغ بلهجة يشوبها الامتعاض :

— سأقول ذلك للمدرس ، فاطمئنوا ! اما تقديم المكافأة المالية اليه كالمعتاد فلا ضرورة له . صحيح انه ليس ميسور الحال ، ولكنه لا يقبل المكافأة دون مقابل .

ثم استدار لينصرف ، فاستوقفه كه مينغ وقال :

– آه ، نسيت ان اقول لك بأنى اخترت اليوم العاشر من الشهر الحادى عشر القمرى موعدا لحفل قبول المهر ، وهو يوم سعيد كما قرأت فى كتاب التنجيم . ان اسرة تشن ستأخذ العروس فى الربيع القادم . وقد وافقت على ذلك . ما رأيك انت ؟

تصنع جيويه شين الابتسام ، وقال :

– حسنا .

وهو يلعن فى سره هذا القرار . ثم انصرف على عجل خوفا من ان يستبقيه عمه اكثر من ذلك .

١٩ – طارت من محبسها

عاد جيويه شين الى جناحه ، فوجد اخاه جيويه مين وتشين وآخرين فى انتظاره ، فحدثهم بكل ما جرى .

فسألته تشين فى لهجة جادة :

– هل تعتقد يا اخى بأن هناك املا فى انقاذ الموقف ؟

هز رأسه فى اسى ، واجاب :

– لا . لقد حدد عمى موعدا لحفل قبول المهر ، وقال ان الزواج سيتم فى الربيع القادم ، وقد فكرت فى الامر ، فلم اجد اى حل .

عندئذ قال جيويه مين فى لهجة حازمة :

– فى هذه الحال يجب ان نبادر الى العمل فورا .

فقالت تشين فى تفهم :

– نعم ، اصبح الامر لا يحتمل اى تردد .

فتساءل جيويه شين فى دهشة وعجب :

– ماذا تقصدان ؟

فأجاب جيويه مين :

– وهل نسيت اقتراح جيويه هوى ؟ السفر الى شانغهاى !

فقال جيويه شين فى تردد :

– انه حل غير عملى فيما اظن . المرأة تتعرض فى السفر لمزيد من المتاعب .

فقال جيويه مين فى انفعال :

– مهما يكن من امر ، فقد اعددنا كل شىء . ان مصير الاخت هوى قد زاد من تصميمنا . لا بد من المحاولة ، وان كنا غير واثقين من النجاح . لسنا خرافا حتى يجوز للآخرين ان يذبحونا كما يشاؤون !

وتشاوروا فى الامر ، فاتفقوا ان تسافر شو ينغ بالسفينة يرافقها مدرس الانجليزية ، واختاروا يوم بعد غد موعدا للسفر ، لأن ذلك اليوم يوم الحداد على الاخت هوى حيث يمكن لشو ينغ ان تخرج علانية للتعزية ، ثم تذهب الى بيت احد اصدقاء جيويه مين لتتنكر فتلبس زى الطالبات ، ثم تتجه الى الميناء حيث تجد جيويه مين فى انتظارها فى مركب . لا حاجة الى ان تحمل معها اى شىء من البيت ، فهم سيعدون لها كل ما تحتاج اليه من ملابس ومتاع . وسيزودها جيويه مين برسائل الى اصدقائه فى المدن

التى تمر بها يوصيهم بها خيرا . وفى شانغهاى سيستقبلها جيويه هوى فى الميناء . اما نفقات السفر فيتدبرها جيويه شين . وسيرسل اليها نفقات المعيشة بانتظام بعد وصولها الى شانغهاى .

وكذلك فكروا فى الموقف الذى سيتخذه كه مينغ اذا اكتشف أن ابنته قد هربت ، فوجدوا بعد التحليل ان كه مينغ رجل حريص على كرامته لمكانته الاجتماعية باعتباره محاميا معروفا ، ولأنه يفخر امام الناس دائما بأسرته وبحسن سمعتها ، فاذا هربت شو ينغ ، فلن يجرؤ على الجهر بذلك ، والا تعذر عليه الظهور امام الملأ مرة اخرى . ثم انه ليس غبيا فيبحث عن ابنته الهاربة ، لأنه يعرف ان المحامى تشن كه جيا لن يرضى بها زوجة لابنه . وهكذا قدروا ان غاية ما يحدث هو ان يثور كه مينغ غاضبا ، ويتشاجر مع زوجته ، ثم يقول للناس ان ابنته شو ينغ قد ماتت .

وبعد ان تم الاتفاق على كل شيء . التفت جيويه مين الى شو ينغ واوصاها قائلا :

— اذكرى الموعد جيدا : بعد غد صباحا !

فكرت شو ينغ قليلا ، وقالت بحزم :

— نعم ، بعد غد صباحا !

الخاتمة

" الربيع لنا ! "

اقبل عام جديد ، واطل الربيع على الدنيا حاملا اليها الحياة

والبهجة . . عبير الازهار واغاريد الطيور والدفء والخضرة وكل ما يفيض بالحيوية .

تسلمت تشين رسالة من شانغهاى ، قالت فيها شو ينغ :

" عاد الربيع مرة اخرى . اننى احب الربيع ، ولكنى لم اشعر ببهجته التامة هذه المرة . اننى اليوم حرة طليقة . كلما فكرت فيما مضى ، خيل الى اننى كنت فى حلم . كان ابى سيزوجنى فى الربيع ، ولو لا مساعدتكم لعشت اليوم حياة اخرى لا يمكن تصورها . لن انساكم ، لن انسى يد المساعدة التى مددتموها الى . اجد هنا من اخي جيويه هوى كل عناية وتوجيه وارشاد . انه يحبنى كثيرا ، وقال بأنه سيساعدنى كى اصبح انسانة صالحة نافعة . لعلك تفرحين بهذا ايضا يا اختى .

ما اشد سرورى ! اود ان اقول لك : ان الربيع لنا . . . "

رفعت تشين رأسها ، واسندت ذقنها براحتيها ، وسرحت ببصرها خارج النافذة شاردة الذهن . كانت الدنيا يغمرها نور الشمس الساطع ، والعصافير تحلق مغردة ، والنحل يطير هنا وهناك ، والازهار تسبح فى الفضاء . فحلق قلب تشين مع كل هؤلاء ، طار بعيدا بعيدا ، طار الى شانغهاى ، الى جوار شو ينغ .

وارتسمت على وجه تشين بسمة طفيفة وهى تغمغم فى صوت خافت :

— الربيع لنا !

وارتفع خارج النافذة صوت وطء اقدام ، فأرخت يديها تنتظر القادم : انه جيويه مين .

الفهرس

الخريف

شخصيات رواية « الخريف »

السيدة الكبيرة تشو

الخال	: تشو بوه تاو
زوجته	: السيدة تشن
ابنته	: هوى
صهره	: تشنغ قوه قوانغ
ابنه	: مى
زوجة ابنه	: فنغ ون ينغ
الخالة	: المدام تشيان
ابنتها	: مى

السيد الكبير قاو

محظيته تشن

(الفرع الاول)

السيد الاول	: كه ون
ارملته	: السيدة تشو
اولاده	:
الابن الاكبر	: جيويه شين
زوجته	: لى روى جيويه

ابنه : هاى تشن

محظيته : تسوى هوان

الابن الثانى : جيويه مين

الابن الثالث : جيويه هوى

ابنته : شو هوا

الجوارى : مينغ فنغ
تشي شيا

(الفرع الثانى)

(الفرع الثالث)

السيد الثالث : كه مينغ

زوجته : السيدة تشانغ

ابنته : شو ينغ

(الفرع الرابع)

السيد الرابع : كه آن

زوجته : السيدة وانغ

ممثل الاوبرا : تشانغ بى شيو

الجوارى : تشون لان
تشيان ار

(الفرع الخامس)

السيد الخامس : كه دينغ

زوجته : السيدة شن

ابنته : شو تشن

محظيته : شي ار

البغاء : "يوم الاثنين"

العمة : المدام تشانغ

ابنتها : تشين

فنغ ياو شان : رئيس الجمعية الكونفوشية

السيدة الكبيرة فنغ

وان ار

١ ـ ما مضى قد مضى

" ان هرب شو ينغ من البيت ساء عمى الثالث كثيرا ، لأنه رأى فى ذلك اراقة لماء وجهه . ولكنى لاحظت عليه فى الايام الاخيرة كأنه يحس بشىء من الندم ، وان ظل يتصنع الغضب ، ولا يسمح بذكر اسم شو ينغ امامه . اظن ان قلبه سيلين بعد فترة اخرى من الزمن .

احس بأنى مرهق فى هذه الايام ، لأنى لا ارى الا ما يسوءنى . اننى اعانى اشد الالم منذ ان مات ابنى هاى تشن ، كما ان مرض المعدة اخذ يعاودنى من حين لآخر .

تأخر الليل ، وألح على الشعور بالوحشة والملالة ، فتذكرتكما ، وتذكرت احبائى الذين رحلوا عنى : ابى وزوجتى وابنى والاخت مى والاخت هوى ، فاعتلجت فى نفسى شتى المشاعر والاحاسيس . . . "

اخذت يد جيريه شين ترتعش وهو يسجل العبارة الاخيرة . وقد كل بصره ، فكف عن الكتابة .

دخل جيويه مين الغرفة ، ووقف بجانب اخيه . وحين قرأ السطور التى كتبها ، ربت على كتفه ، وقال له فى عطف ومودة :

– لم تزعج نفسك بالتفكير فى هذه الامور ؟ صحتك فوق كل شىء .

رفع جيويه شين رأسه ، وامسك يد اخيه بقوة ، وقال له في اسى :

– قل لى يا اخى الثانى ماذا اعمل ؟

لم يجب جيويه مين عن سؤال اخيه لجهله ما كان يفكر فيه في هذه اللحظة ، وانما قال له في لطف :

– لا يصح ان تكون حزينا الى اليوم ، انك تتعذب !

فقال جيويه شين مقطب الجبين :

– استطيع احتمال العذاب . ولكن لا يجوز لهم ان يطلبوا منى هذا !

فسأل جيويه مين في دهشة واستغراب :

– ماذا تقصد ؟

– يريدون منى ان اتزوج ثانية .

– هذا امر خاص بك ، ولا دخل لهم فيه .

قال جيويه مين ذلك محنقا ، ثم تقدم الى كرسى الخيزران الموضوع امام النافذة ، وجلس . الا انه ما لبث ان هب واقفا ، وقال :

– لا بأس في ان تتزوج مرة اخرى يا اخى الاكبر ، فأنت تعيش اليوم وحيدا بلا انيس .

هز جيويه شين رأسه بالنفى ، وقال على عجل :

– مستحيل ! مستحيل ! لن افعل هذا ابدا !

جعل جيويه مين يحدق في اخيه ، فلاحظ انه يبدو اكبر من سنه بكثير . وعندها استعرض في ذهنه ما لاقاه هذا الاخ في

السنين الاخيرة ، فقال له فى لهجة مفعمة بمشاعر الحب الصادق :

— لم نفكر ، نحن اخوتك ، الا فى مشاكلنا الخاصة فى هذه السنين ، فتحملت كل المتاعب وحدك . ارجو ان تهتم بصحتك . وسأكون عونا لك منذ اليوم .

ضغط جيويه شين على يد اخيه ، وقال له فى امتنان :

— اشكرك يا اخى . انى اقدر شعورك ، كل ما ارجوه هو ان تعمل بجد من اجل مستقبلك . اما انا فلم يعد لى اى امل . اعرف ان هذا هو القضاء والقدر .

— لا يصح ان تلقى كل شيء على القضاء والقدر ، وانت تعلم ان كل ما حصل لك ليس مسألة حظ .

— ولكن ماذا استطيع ان افعل اليوم ؟ وقد رأيتم فى هذه السنوات ...

— دع عنك ما مضى ! اما فيما يتعلق بالمستقبل فلا يجوز ان تشعر بالعجز ، بل عليك ان ...

هز جيويه شين رأسه اسفا ، وقاطعه ، وعلى شفتيه بسمة صفراء :

— المستقبل ؟ اى امل لى فى المستقبل يا ترى ؟

٢ — الاخ مى

دخلت عليهما شوهوا وهما يتحدثان ، فحيتهما وقالت ان مى ابن خالهم تشو بوه تاو ، شقيق الاخت هوى ، سيتزوج .

فصاح جيويه شين فى دهشة عظيمة لعلمه ان مى لا يتجاوز السابعة عشرة :

ـ ماذا تقولين ؟ الاخ مى سيتزوج ؟

ـ نعم . موعد الزواج لم يحدد بعد ، ولكنه لن يكون بعيدا . سيعقدون الخطبة قريبا . ارى ان خالى رجل عجيب . الاخ مى لا يزال صغير السن ، وصحته ليست جيدة . ولكن خالى يريد ان يزوجه الآن بدلا من ان يدعه يواصل دراسته . وسمعت ان العروس فى الحادية والعشرين من عمرها .

قالتها شو هوا فى استنكار . ثم اضافت موجهة حديثها الى جيويه شين :

ـ ماما تدعوك . لأن خالى يرجوك ان تساعده فى تدبير شؤون الزواج كما ساعدته فى ذلك فى المرة السابقة .

ذهب ثلاثتهم الى ارملة ابيهم السيدة تشو ، فحدثتهم فى الموضوع ، ثم قالت :

ـ خالكم هو الذى اتخذ هذا القرار ، كما فعل سابقا فى امر زواج ابنته هوى . فحتى جدتكم لم تستطع ان تثنيه عن عزمه .

لقد رأى الاخوة الثلاثة ان هذا الزواج غير مناسب . الا انه لم يظهر على جيويه شين امام ارملة ابيه ما يدل على عدم رضاه ، فى حين بدا على محيا جيويه مين شىء من علائم الامتعاض . اما اختهما شو هوا ، فقد قالت فى استياء :

ـ سمعت ان العروس تكبر اخى مى اربع سنوات .

ـ صحيح ، انها تكبر مى اربع سنوات . ولكن برج ميلادها

متوافق تماما مع برج ميلاد مى ، ويقول المنجمون ان زواج الاثنين سيكون زواجا ميمونا ، لذلك وافقت جدتكم هى الاخرى .

قالت السيدة تشو ذلك وكأنها تدافع عن اخيها .

وعندئذ قالت شو هوا فى عناد :

— وهل تعرفين يا امى احوال اسرة العروس ؟ لا افهم لماذا لايختار خالى للاخ مى فتاة فى مثل سنه ؟ ثم ان الاخ مى لايزال صغير السن ، فلم هذه العجلة ؟

فقالت لها السيدة فى عتاب رقيق :

— كلامك صحيح . ولكنك آنسة يا بنيتى . فاذا سمع الناس منك هذا الكلام ، فسيسخرون منا كثيرا .

ثم اضافت :

— خالك رجل عنيد لا يمكن اقناعه . اختار بنفسه هذه المرة ايضا . وقد وقع اختياره على الآنسة فنغ لأنه شديد الاعجاب بما يتمتع به رجال اسرة فنغ من اخلاق وثقافة .

فصاح جيويه مين مبهوتا ، وقد فطن الى شخصية العروس المنتظرة :

— اسرة فنغ ؟!

والتفت اليه جيويه شين الذى فطن ايضا الى شخصية العروس ، والقى عليه نظرة ، الا انه سرعان ما تحول الى السيدة تشو التى سألته قائلة :

— وماذا قررت فى امرك انت ؟ جاءتنى السيدة تشانغ قبل قليل ، وحدثتنى حول هذا الموضوع .

بوغت جيويه شين بهذا السؤال . فقال فى شىء من الحرج :

ـ ارى تأجيل النظر فى هذا الموضوع .

وتابعت السيدة قولها ، وهى تجهل اثر سؤالها فى نفس جيويه شين :

ـ قالت لى السيدة تشانغ ان عمك الثالث يرجو منى ان انصحك بالقبول ، لأن مدة حدادك على جدك ستنتهى قريبا . . .

وقبل ان تتم عبارتها انفجر جيويه شين باكيا ، فقال بصوت خنقته العبرات :

ـ إعرف هذا يا ماما ، ولكنى افكر كثيرا فى زوجتى روى جيويه حتى الآن . فلا يطاوعنى قلبى على التفكير فى الزواج مرة اخرى .

وعندما عاد جيويه شين الى غرفته اكمل رسالته بقوله :

" الاخ مى سيتزوج ، والعروس تكبره بأربع سنوات ، وهى من اسرة فنغ ياو شان . خالنا هو الذى قرر امر هذا الزواج ، واصر عليه .

كان خالنا هو الذى قرر بمفرده امر زواج الاخت هوى . وقد ماتت هوى منذ وقت بعيد ، ولكن اسرة زوجها تشنغ لا تفكر الى الآن فى نقل تابوتها ودفنه فى قبر ، وخالنا ساكت لا يعير هذا الامر اى اهتمام . وجدتنا ساخطة ، ولكنها لا تستطيع عمل شىء . وخالنا يأبى مفاوضة الطرف الآخر بهذا الشأن . آه ، مسكينة اختى هوى ! ماتت ، ولكنها لا تجد مكانا تأوى اليه فى العالم الآخر ! "

لم يذكر جيويه شين فى الرسالة ذلك الامر الخاص به .

٣ ـ بيع التحفة الفنية خفية

كان السيد الثالث كه مينغ يستجوب خادم اخيه الخامس كه دينغ فى المقصورة المشيدة على شاطئ البحيرة بحديقة الدار بحضور اخيه الرابع كه آن وابنى اخيه جيويه شين وجيويه مين وآخرين . وقد بعث كه مينغ من يستدعى اخاه الخامس .

قال الخادم بادى الانزعاج ، وهو واقف فى ركن من الغرفة مطرق الرأس :

ـ كل هذا الذى قاله خادمكم الحقير كلام صادق يا سيدى الثالث . ولكم ان تعاقبونى كيفما شئتم ان وجدتمونى كاذبا .

فسأله كه مينغ :

ـ الا تعرف ان هذه جريمة ؟

ـ لم اكن اعرف يا سيدى . لست مذنبا . سيدى الخامس امرنى بذلك .

تدخل كه آن فى الحديث ، وسأل الخادم :

ـ ولكن لماذا لم تقل الحقيقة عندما سألناك قبل الآن ؟

ـ سيدى الخامس لا يسمح لى بذلك .

وسأله كه مينغ :

ـ بكم باعها فيما تعرف ؟

— بأكثر من ثلاثين يوانا كما سمعت .

تغير لون شو تشن ابنة السيد الخامس حين سمعت ذلك .

فقالت لشوهوا فى صوت خافت :

— هيا بنا يا اختى !

كانت شو هوا تدرك حالة شو تشن النفسية فى هذا الموقف ، فغادرت المقصورة معها .

قال كه آن :

— لا داعى لأن تسأله اكثر من هذا يا اخى الثالث . من المؤكد ان اخى الخامس هو الذى اخذ التحفة وباعها . وارى تسليم الخادم الى ادارة البوليس .

وجد جيويه شين ان من الظلم ارسال الخادم الى ادارة البوليس ، فقال :

— الخادم لم يأخذ التحفة ، فلا حاجة الى تسليمه للبوليس .

ودخل كه دينغ مشرق المحيا ، وسأل كه مينغ فى هدوء واطمئنان :

— فى اى امر تطلبنى يا اخى الثالث ؟

بقى كه مينغ مكانه متجهم الوجه ، ولم يرد على اخيه ، فجلس هذا على كرسى بجوار كه آن كأن شيئا لم يكن .

وعندئذ سأله كه آن فى ضيق :

— اخى الخامس ، اين ذهبت لفيفة الورق المستطيلة المكتوبة بخط السخرة ؟

فأجاب كه دينغ دون ان تبدو عليه امارات الخجل :


秋

ــ آه ، تسألون عن تلك اللفيفة ؟ اخذتها وبعتها . احد اصدقائى اعجب بها ، فاشتراها منى .

دق كه مينغ بقبضته على المائدة ، وصاح :

ــ هذا انتهاك لتقاليد اسرة قاو . تعرف ان ابانا انفق كثيرا من الجهد والمال فى جمع التحف الفنية من اعمال مشاهير الرسامين والخطاطين ، وقد اقتسمنا اكثر التحف ، ولم يبق منها الا بضع عشرة قطعة احتفظنا بها للذكرى ، فكيف تأخذها وتبيعها كما تشاء؟

ارتبك كه دينغ قليلا ، الا انه قال فى هدوء مصطنع :

ــ ولكنها قد بيعت . فأدفع عشرين يوانا تعويضا عنها ليأخذ كل فرع من الاسرة خمسة يوانات منها .

فأومأ كه آن برأسه علامة الموافقة والرضا . ولكن كه مينغ قال بلهجة آمرة :

ــ من يريد المال منك ؟ عليك استرداد اللفيفة !

لم يخطر ببال كه آن ان يقول اخوه الثالث هذا الكلام . فسكت .

واستطرد كه مينغ قائلا :

ــ تساهلت معك فى بعض تصرفاتك ، فأصبحت سادرا فى الغى . لا تظن انى اخاف منك ، اسمع جيدا ، اذا لم تسترد اللفيفة ، فانى سأؤدبك فى القاعة امام لوح اسم ابينا ! لن اتغاضى عن فعلتك هذه المرة .

بدا على وجه كه دينغ شيء من الحيرة والارتباك ، ولكنه بقى ساكتا .

— هل سمعت ؟ ستذهب لاسترداد اللفيفة ام لا ؟ ...
لست فى حالة صحية تسمح لى بالثرثرة معك كثيرا .

ولما وجد اخاه الخامس لا يجيب صمم على تنفيذ وعيده ، فنهض متجهم الوجه ، وتقدم اليه ، وهو يقول فى صرامة :

— اذن نذهب الى القاعة !

— سأسترد اللفيفة ، سأذهب فورا لاستردادها .

قالها كه دينغ فى شيء من الخوف ، ولكن لم يظهر عليه ما يدل على الحياء . وقبل ان يغادر المقصورة التفت الى خادمه يأمره باعداد محفته .

فقال له كه مينغ :

— لقد طردته من الخدمة .

فابتسم له كه دينغ متوددا ، وقال :

— وهل ذلك ضرورى ؟

وشفع له كه آن قائلا :

— اخى الثالث ، ما دام سيسترد اللفيفة ، فلا داعى لطرد خادمه .

تنهد كه مينغ وقال متضايقا :

— حسنا ، انصرفوا اذن ، اريد ان استريح قليلا .

وكان هذا ما يتمناه كه دينغ ، فانسل من المقصورة ، ثم تبعه كه آن ، ولم يبق الا كه مينغ وابنا اخيه جيويه شين وجيويه مين .

انتابت كه مينغ نوبة سعال . ثم قال فى صوت لاهث :

— سأموت من الغضب ان لم امت من المرض !

٤ ــ مستسلم للقدر

صدق حدس الشباب فى اسرة قاو حول شخصية الآنسة فنغ خطيبة الفتى مى ، اذ تبين لهم انها حفيدة بعيدة القرابة لفنغ ياو شان ، تدعى فنغ ون ينغ ، فى الحادية والعشرين من عمرها . انها الفتاة التى كان السيد الكبير قاو يود ان يخطبها لحفيده الثانى جيويه مين ، فلم يرض هذا الاخير وغادر البيت خفية ، ثم طوى الموضوع بوفاة السيد الكبير . واليوم يصر تشو بوه تاو ان يخطب هذه الفتاة لابنه مى بحجة مثل حجة السيد الكبير قاو ، هى ان اسرة فنغ اسرة عريقة فى الادب والعلم ، وان عم ابى الفتاة فنغ ياو شان عالم معاصر كبير فى الكونفوشية . والاختلاف الوحيد بين الحالتين ان مى بطل القصة هذه المرة ينقصه ما يتحلى به جيويه مين من سعة الادراك والشجاعة .

وذات يوم جاء مى الى اسرة قاو ، فقال له جيويه شين ، وهو يتأمل وجهه الشاحب :

ــ لا تزال صغير السن يا اخى ، فلماذا تترك غيرك يعبث بك كما يشاء ؟

ــ اظن ان هذا هو حظى . كل شىء مقدر . ابى رجل متعنت . ولكنه يفكر دائما فى مصلحتى . لا ألوم الا نفسى ، لأنى سىء الحظ .

داخل جيويه شين شىء من الامتعاض ، وهو الرجل الملتزم بمبدأ عدم المقاومة ، ازاء هذا الشاب الصغير الذى يخرج من

فمه مثل هذا الكلام الواهن الضعيف ، ويضع نفسه تحت رحمة رجل متعنت عن طيب خاطر ، ويعزو كل ما يحدث له الى الحظ ، ويضيع مستقبله بعدم مبالاته . وبغتة تذكر قول شخص : اخي مي مسكين ، ارجو ان تعتني به . لقد ماتت صاحبة هذا القول منذ نصف سنة ، والتابوت الذى اردع فيه جثمانها لايزال ملقى فى دير بوذى شبه متهدم ، ولكن صوتها الحنون وهى ترصى بأخيها خيرا لايزال يرن فى اذنيه حتى هذه الساعة . لقد اودعها التابوت وهو عاجز مستسلم ، وعاد اليوم ليرى شقيقها يسير فى الطريق الذى سارت فيه قبلا وهو عاجز ، وعندها ناداها فى سره قائلا : " اغفرى لى يا حبيبتى هوى ! " واغرورقت عيناه بالدموع . فنظر اليه مي مستغربا .

وعاد جيويه شين يسأله والألم يحز فى قلبه :

—هل انت راض حقا عن هذا الزواج ؟ تعلم ان حفل تقديم المهر سيقام فى الاسبوع القادم !

تطلع مي اليه فى بلاهة ، لا يبدو على وجهه اى تعابير غير طبيعية تدل على انه يعانى ألما نفسيا ، واجاب فى صوت خافت مطرق الرأس :

— ما دام ابى يريد منى ذلك ، فانى لا احب مخالفة رغبته . ابى كبير السن واسع العلم ، فلا اظنه يخطئ . اما صحتى فستتحسن فيما اعتقد .

وتناهى الى الاسماع صوت شو هوا وهى تغنى ، فبدا كلام مي واهيا ضعيفا الى جانب غنائها .

قال جيويه شين وفى صوته تنهيدة :

ـ حسنا ، ما دمت راضيا ، فنحن مطمئنون .

هز مى رأسه بالنفى ، وقال فى صوت منخفض :

ـ لا اقول اننى راض . كل ما فى الامر انى مستسلم للقدر .

انتاب جيويه شين مزيج من الحزن والاشفاق حين رأى هذا الفتى سائرا فى الطريق الذى سار فيه هو ، فتشجع وحاول ان ينصحه آخر مرة بالعدول عن هذا الزواج ، وقال :

ـ ولكنك لا تزال صغير السن ، لا يجوز لك . . .

لم يستطع جيويه شين ان يكمل عبارته ، اذ اقبلت شو هوا وقالت له بصوت مرتفع :

ـ ما هذا الكلام الكثير الذى لا ينتهى بينكما ! وانت يا اخى مى ، ما رأيك فى ان تسمعنا اغنية ؟

احمر وجه مى واجابها فى استحياء :

ـ لا اعرف الغناء يا اختى . حقا ، لا اعرف .

وارتفع فى الفضاء صوت صفير . لقد مر سرب من الحمام فوق رؤوسهم ، فتطلعت شو هوا الى السماء ، فأبصرت الحمام يطير حرا طليقا بأجنحته البيضاء .

٥ ــ ما مغزى الحياة

امضى مى نهار ذلك اليوم عند اسرة قاو .

وفى الليل تناولوا العشاء فى حديقة الدار . وعلى المائدة شرب

جيويه شين واخوته واخواته ، وكذلك الاخت تشين ، وتراهنوا بالأكف فى جو صاخب . وشاركت السيدة تشو ارملة والد جيويه شين ، والسيدة تشانغ زوجة السيد الثالث فى العشاء فى سرور عظيم .

وبقى الفتى مى قليل الكلام طول الوقت ، فبدا الآخرون كأنهم لم ينتبهوا الى وجوده بينهم . كان مى يغبط اترابه على سرورهم ومرحهم ، ولكنه لم يشأ ان يسايرهم ، فقد تعود على الهدوء وقلة الكلام ، لأن والده لا يحب منه ان يتكلم كثيرا .

ودقت الصنوج فى الدار ايذانا بحلول الهزيع الثانى من الليل ، فنهضوا عن المائدة ، وسار جيويه شين ليودع مى وبجانبهما الجارية تسوى هوان التى تخدم عند فرع الاسرة الثالث تحمل فى يدها فانوسا تنير لهما الطريق .

وبغتة تشجع مى وسأل جيويه شين متلعثما :

— احب ان اسألك سؤالا يا اخى الاكبر .

نظر اليه جيويه شين مدهوشا ، الا انه شجعه قائلا :

— قل ما عندك ، ولا تتردد !

— لا شك انك تعرف لماذا يعيش الانسان فى هذه الدنيا ، انا فكرت كثيرا ، ولكنى لم اعرف الجواب الصحيح . لا افهم ما مغزى الحياة .

قال ذلك بلهجة صادقة ، وفى صوت ينم عن الحيرة والتبرم ، وهو لا يدرى ان كان قد افصح بهذه الكلمات عن كل ما يجول بخاطره فى هذه الساعة .

احرج جيويه شين بهذا السؤال غير المنتظر . لم يكن

يعرف ان هذا السؤال يعذب هذا القلب الغض الذى لم تتحرك فيه يوما نبضات الشباب ، سؤال لم يسبق ان فكر فيه جيويه شين ، او جرؤ على التفكير فيه . ماذا يستطيع ، وهو فى ظروفه الحاضرة ان يجيب الفتى عن سؤاله : لماذا يعيش الانسان فى هذه الدنيا ؟ ما مغزى الحياة ؟

واضاف مى يقول حين وجد جيويه شين لا يجيب ، وظن انه لم يفهم سؤاله :

— لا اجد فى الحياة شيئا يسر النفس . اشعر بأن كل شيء فى الحياة لا معنى له ، كأن الحياة ذاتها لا معنى لها .

اخذت عبارة "لا معنى له !" "لا معنى لها !" تتردد فى اذن جيويه شين كأنها تأبى ان تبرح مسمعه ، فقال دون وعى منه كأنما يحاول ان يتخلص من حلم مزعج :

— كلا ! كلا !

الا انه سرعان ما تمالك نفسه ، فى حين تابع مى قائلا :

— لا اجد اى عمل يمكن ان يثير فى نفسى الهمة والنشاط . لم اعمل اى شيء مما احب . لأن والدى يطلب منى ان اعمل اشياء اخرى لا احبها . لا اظن ان والدى يخطئ ، ولكنى اتألم فى بعض الاحيان . وجدت اخى جيويه مين والاخوات مختلفين عنى تماما ، هم نوع آخر من الناس مختلف عنى كل الاختلاف ، اغبطهم فى كثير من الاحيان .

فقال له جيويه شين فى حنو كبير :

— اذن لم لا تفعل كما يفعل جيويه مين ؟ انت صغير

السن ، يرجى لك مستقبل كبير .

— انا عاجز ، لا اعرف الا ان افعل ما يطلبه منى والدى .

قالها فى لهجة يائسة ، وهكذا اغلق بسرعة الباب الذى اطلت منه روحه قبل قليل .

واستمر جيويه شين يشجعه بقوله :

— الحقيقة ان فى مقدورك ان تعمل كما يعمل جيويه مين اذا صح عزمك . الوقت ليس متأخرا ، لأنك لا تزال صغير السن ، وجيويه مين يستطيع مساعدتك .

هز مى رأسه فى اسف ، وقال :

— لست تجهل انى وحيد ابى . انه يأبى ان يطلق لى العنان . انه يعارض كل فكر جديد ، ولا اظنه مخطئا . لقد تعودت اطاعة اوامره ، فلا يمكننى ان اخالف ارادته .

كلام متناقض يدل على اضطراب فكر هذا الفتى وضعف ارادته ، لم يفهم جيويه شين ماذا يقصد على وجه الدقة .

— ليس لى استاذ يرشدنى ، او صديق يفهمنى . كانت اختى هوى تهتم بى ، ولكنها ذهبت ..

هنا تذكر جيويه شين مرة اخرى قول هوى رهى توصى بأخيها خيرا ، فتساءل فى حيرة وألم : ماذا اعمل يا ترى ؟ !

وصاحت الجارية تسوى هوان حينما دنوا من بوابة الدار :

— افتحوا الباب ! جاء السيد جيويه شين يودع الضيف !

التفت جيويه شين الى الجارية بعد ان انصرف مى فى محفة ، وقال لها :

ـ أتعبتك يا تسوى هوان .

فردت عليه هذه مبتسمة :

ـ انت كثير المجاملة يا سيدى . جارية تخدمك وتقول لها : اتعبتك ؟ !

ـ ليست هذه مجاملة . انتن الناس مثلنا .

وسألته تسوى هوان عن حال سيدتها الصغيرة شو ينغ فى شانغهاى ، وعبرت عن شكرها العميق له ولأخيه جيويه مين على مساعدة سيدتها فى مغادرة البيت .

تأثر جيويه شين لصدق عاطفتها ، واحس كأنما استنشق هواء منعشا فى جو خانق .

٦ ـ " اخشى الا احتمل طويلا ! "

تقدمت الجارية تشون لان ، التى تخدم عند فرع الاسرة الخامس ، الى شو تشن ، ونادتها قائلة :

ـ سيدتى تدعوك .

استرعى قولها انتباه الحاضرين . لقد سمعوا مرارا مثل هذا القول . ذلك ان السيدة شن كثيرا ما ترسل الجارية او احدى الخادمات الى مجالس الاخوة والاخوات لتدعو شو تشن للعودة .

فقالت شو هوا فى تذمر :

ـ مسكينة شو تشن ! يطلبون منها العودة وهى تلعب معنا فى سرور. لا بد ان عمتى تخاصمت مع عمى الخامس مرة اخرى.

فحدجها جيويه شين ، وقال لها محذرا :

– ينبغى لك ان تتكلمى بحذر يا اختى شو هوا كى لا تسببى مشاكل !

بقيت شو تشن مكانها صامتة وهى تنظر الى الاخت تشين فى وجوم .

نظرت تشين الى شو تشن فى حنان كأنما تقول لهذه الفتاة التعسة : سأساعدك . ثم التفتت الى الجارية وسألتها :

– لأى شيء تطلب سيدتك من شو تشن ان تعود ؟

فأجابت الجارية بادية الانفعال :

– تشاجرت سيدتى مع سيدى منذ لحظات ، وقذفت بأشياء كثيرة على الارض ، وبكت ، تطلب من سيدتى الصغيرة ان تعود فى الحال .

وقالت شو هوا محنقة :

– لا شك انها ستصب نار غضبها على شو تشن . عجيب ان نجد فى العالم اما مثل هذه !

وعادت تشين تسأل :

– وسيدك ، اين هو الآن ؟

– هو فى غرفة شى ار .

وتدخل جيويه شين فى الحديث مقطب الجبين :

– حاولت العمة استغلال شى ار لكسب رضا عمى ، ولم يخطر ببالها انها جنت بذلك على نفسها ، لأن شى ار اصبحت مدللة وكثرت آلاعيبها منذ ان رزقت بمولود ذكر .

وقال جيويه مين معقبا :

– ليس الذنب ذنب شي ار ، بل ذنب عمى وزوجته . زوجة عمى تتنمر على شي ار ، وعمى يحميها ، فحدث ما حدث.

نهضت شو تشن بغتة ووقفت بجانب تشين ، وقالت لها فى صوت باك :

– لا اريد ان اعود يا اختى تشين .

عندئذ قالت تشين للجارية :

– عودى الى سيدتك ، وقولى لها انى ابقيت شو تشن لتلعب معنا وقتا آخر ، فلا تقلق .

– حاضر يا آنسة تشين .

ودارت الجارية على عقبيها تهم بالانصراف . فاسترقفها جيويه شين ، ثم التفت الى تشين وقال :

– ارى ان من المستحسن ان نترك شو تشن تعود . انت تعرفين خلق امها ، ثم ان شو تشن لا يمكن ان تبقى معنا طول الليل ، ان امها سوف تصب غضبها عليها ، اذا لم نعمل برأيها .

امسكت تشين بيد شو تشن ، وطمأنتها فى صوت رقيق :

– لا بأس فى ان تعودى يا اختى شو تشن. لا تحزنى ، سنتدبر امرك فى المستقبل .

فرفعت شو تشن اليها بصرها ، وسألت وهى تنشج بالبكاء :

– فى اى يوم من المستقبل ؟ اخشى الا استطيع الاحتمال طويلا !

ثم سارت وراء الجارية على كره .

وحين اجتمعوا فى اليوم التالى رأوا شو تشن منتفخة العينين فقالت شو هوا :

ــ لا بد ان شو تشن بكت ليلة امس .

بقيت شو تشن صامتة تنظر الى الحذاء الاطلسى المطرز فى قدميها الصغيرتين اللتين تضغطهما باللفافة بغير رضاها ، وقد انتابها شعور باليأس القاتل . كانت متألمة تحس كأن ابرا كثيرة تخز قلبها ، وان شيئا يضطرب فى صدرها ويكاد يندفع خارجا من حلقها . فعضت على شفتها السفلى ووضعت منديلها على فمها والدموع تسيل على وجنتيها ، وما لبثت ان بللت المنديل .

٧ ــ عقد الخطبة

ذهب جيويه شين وشو هوا مع السيدة تشو الى اسرة تشو بوه تاو لحضور حفل خطبة الفتى مى ، اى حفل تقديم المهر كما يسميه الناس . واعتذر جيويه مين عن الحضور بحجة اقتراب موعد الامتحان فى مدرسته .

زينت الدار بالفوانيس والاشرطة الملونة ، واشرقت الفرحة فى الوجوه ، وتوافد المهنئون حتى ضاقت بهم الدار على رحبها . كانت السيدة تشو تشارك نساء البيت فى استقبال الزائرات ، وجيويه شين يغدو ويروح منشغلا بمعالجة صغائر الامور التى لا بد منها فى مثل هذه المناسبة .

كان مى يرفل بجسمه الضئيل فى ثياب فاخرة فضفاضة ،

ويلوح على محياه الذى ينطق بالبلاهة سيماء الغبطة والسرور ،
من الجلى ان عقد الخطبة كان مثيرا للفتى ، قوى فى نفسه الامنية
التى طالما داعبته منذ قرأ ذلك اللون من الكتب دون علم ذويه
الكبار . وحين رآه جيويه شين على هذه الحال اشفق عليه ،
وهز رأسه متحسرا .

وحين جلس جيويه شين الى المائدة ، خيل اليه كأنما يسمع
بين انغام الموسيقى الصاخبة والضحكات العالية صوت بكاء حزين .
فتساءل فى حيرة : " أ فى حلم انا ؟ أهذا الذى ارى وأسمع هوما
شهدته فى هذا البيت قبل عام مضى ! " نعم ، لقد سمع
هذا البكاء قبل عام مضى يوم ساعد هذه الاسرة فى الحفاوة بالضيوف
عند زواج فتاة عزيزة عليه بغير رضاها ، فتاة اوصته بأخيها مى
خيرا وهى على فراش المرض ، ولكنه اليوم خالف وصيتها ، رجاء
الى هذه الدار يساعد فى دفع اخيها الى الطريق الذى سارت هى
فيه من قبل .

وبقى صامتا وهو يشرب .

وحين انتهى الحفل ، وهدأت نفس الفتى مى ، وفتر شعوره
بالفرحة ، انتابه فجأة شىء من القلق ، اذ تذكر زواج شقيقته
هوى والمصير الذى انتهت اليه ، وكان والده هو الذى اختار
لها الزوج كما اختار له اليوم هذه الفتاة . وعندما قاده تفكيره
الى هذه النقطة اعترته رجفة خفية ، اذ ان خطيبته سيئة الخلق ،
وهى اطول منه قامة وتكبره بعدة سنوات ، وهذا القول سمعه من
امه خلال شجار بينها وبين ابيه . انه يدرى على ما يبدو ان امه

غير موافقة على اختيار ابيه ، ولكن ليس له ان يبدى رأيه فى الموضوع . وهو يخجل من ان يسأل عن شخصية الفتاة ، كما ان احدا لم يحدثه عنها . والواقع انه لايجد فى الزواج شيئا يسره اوشيئا يسرءه . فكل انسان يتزوج . وعليه بطبيعة الحال ان يتزوج ايضا ، ولكنه لا يدرى كيف سيكون حظه .

انه يغبط الاخوة والاخوات فى اسرة قاو ، وقد سبق ان ابدى رغبته فى ان يدرس معهم فى بيتهم على ايدى المدرسين الخصوصيين ، الا ان اباه لم يوافق خوفا من ان يتأثر بهم ، فينحرف عن الطريق القويم . وهكذا اضطر الى البقاء فى البيت يستمع كل يوم الى دروس ابيه فى كتب الكونفوشية ، ولكنه لا يقرأ فى تلك الكتب الا ذلك اللون من الاقوال . بدأ يدرس "كتاب الطقوس" ولكنه كلما قرأ منه اكثر ازداد خوفا ورهبة ، بحيث اصبح لا يجرؤ على التفكير فى الظهور امام الناس . فكل قاعدة من قواعد السلوك المذكورة فى الكتاب قيد للا نسان ، وكل خطوة يخطوها الانسان خطأ اذا قورنت بتلك القواعد والاصول . ليس له الا اب صارم ، ولا احد يفهمه بعد ان رحلت شقيقته ، اما جيويه شين والاخوة الآخرون فان نصائحهم غير عملية لأنها بعيدة عن الواقع الذى يعيشه اليوم .

٨ — قلوب فتية

ذهب جيويه مين وتشين ذات يوم الى بيت زميلهما تشانغ

هوان رو لحضور اجتماع هيئتهم " جمعية المساواة " .

جلس المجتمعون فى غرفة الضيوف . وحين تكامل العدد بدأ الاجتماع بكلمة من رئيس الجلسة ، تحدث فيها عن اعمالهم خلال الشهرين المنصرمين ، وقال انهم حققوا نجاحا كبيرا فى هذه الفترة ، حيث تزايد عدد المتعاطفين معهم ، وكثر المهتمون بدعوتهم ونشاطاتهم ، وخاصة بعد ان تعرض العمال المضربون فى سكة الحديد خط بكين — هانكو للقمع الوحشى على يد احد امراء الحرب فى فبراير من هذا العام ، اذ تفتحت عيون الجم الغفير من الشباب على واقع الصين فبدأوا يبحثون عن طريق جديد . وهكذا لقيت الكتب والمجلات الثورية الترحيب فى كل مكان ، كما انشئ فى المقاطعة عدد غير قليل من الهيئات المماثلة لجمعيتهم . وقد اقامت الجمعية صلات مع تلك الهيئات . واقترحت هيئة منها الدعوة الى مؤتمر بحاضرة المقاطعة .

ألهبت كلمة رئيس الجلسة حماسة الحاضرين ، فقد ادركوا ان القلوب الفتية فى كل مكان متأثرة بالافكار الداعية الى التقدم والعدالة وبروح البذل والتضحية ، وانهم اليوم ، وهم جالسون فى غرفة الضيوف هذه ، لا يمثلون سوى جمعية صغيرة ، ولكنهم ليسوا افرادا منعزلين ، فان لهم فى المجتمع الكبير خارج هذه الغرفة رفاقا كثيرين . وسر المجتمعون من الاقتراح الخاص بعقد مؤتمر للجمعيات الشقيقة ، ذلك ان عقد مؤتمر كهذا يعنى ان كثيرا من الاصدقاء الذين تعارفوا بقلوبهم سيتلاقون بأشخاصهم ليكاشف بعضهم بعضا بتصميمهم على الاسهام بصدق عاطفتهم

وحرارة شبابهم فى خدمة غايتهم الوحيدة ، وهى غاية جميلة تستهوى قلب كل شاب بسموها ونزاهتها ، غاية السعى لاسعاد جماهير الشعب، ، والعمل لانقاذ اكثرية الناس الذين ترديوا الى هاوية الفقر والفاقة ، والنضال فى سبيل المساواة والحرية ومن اجل ان يشرق نور الاخاء على العالم كله ، وان يعيش كل انسان فى راحة وطمأنينة . ان المجتمعين يعزون هذه الافكار ، ويعزون كل من يحمل فى رأسه مثل هذه الافكار . ولذلك ابتهجوا كثيرا حين سمعوا بالاقتراح ، واهتزت قلوبهم طربا . وتكلم الكثيرون منهم تعبيرا عن موافقتهم ، وقدموا مقترحات حول بعض التفاصيل . واخيرا قرروا الكتابة الى الجمعيات الشقيقة للتشاور فى هذا الموضوع ، وكلفوا تشانغ هوى رو بصياغة الرسائل ، ثم يترجمها جيويه مين وتشين الى رموز سرية قبل ارسالها .

ثم تناقشوا فى اعمال مجلتهم الاسبوعية . فقال بعضهم ان من واجب المجلة تقوية صلاتها بالهيئات الاخرى وبالقراء فى المدن المختلفة . واقترحت تشين ان تنقل المجلة مقالا لجيويه هوى نشر فى مجلة اخرى ، وهو مقال مثير للشعور العام ، فوافقوا على اقتراحها بالاجماع .

كما قرروا اقامة حفل لذكرى مرور عامين على انشاء المجلة واصدار عدد خاص بهذه المناسبة ، وتكونت لجنة تحضيرية لهذا الغرض انتخب كل من جيويه مين وتشين عضوا فيها .

وبعد انتهاء الاجتماع رجا صاحب الدار من الحاضرين تناول العشاء عنده ، فاعتذرت تشين اذ انها تريد العودة مبكرا

الى اسرة قاو حيث تنتظرها شو هوا وغيرها من الاخوات . وكذلك رغب جيويه مين فى العودة ، فاستأذنا صاحب الدار وانصرفا معا .

٩ — زهر الرمان القانى

اقترب عيد مركب التنين * وانشغلت اسرة قاو باستعدادات العيد .

وضعت امام قاعة الجناح الرئيسى اربعة اصص من الزهر الجميل يفوح منها شذى مسكر .

بدا على قاو كه مينغ رب الاسرة انه شاخ كثيرا خلال العام المنصرم ، ولذا كان يعهد الى جيويه شين بالاشراف على كثير من شؤون البيت . وفى هذه الايام دعا جيويه شين الى غرفته لعدة امسيات متتالية لتدبير شؤون العيد ، وكان جيويه شين يصغى اليه بكل تأدب ، ثم ينفذ اوامره دون تذمر . وعلى هذا النحو اشرف جيويه شين على ارسال هدايا العيد الى اقارب الاسرة ، وعلى اعداد كل ما يلزم ، وخاصة فطائر الارز اللزج من مختلف

* عيد مركب التنين : عيد تقليدى فى الصين يصادف اليوم الخامس من الشهر القمرى الخامس . قيل ان الشاعر الوطنى تشيوى يوان الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد انتحر فى ذلك اليوم بأن القى نفسه فى النهر . فجعل المتأخرون ذلك اليوم عيدا يحيون فيه ذكرى الشاعر ويأكلون فيه فطيرة من الارز اللزج ويجرون سباق المراكب .

الاشكال . ثم طلب من شقيقته شو هوا ان تساعده فى اعداد قائمتين ، قائمة بأسماء السادة الصغار والسيدات الصغيرات من فروع الاسرة الاربعة ومصروفات العيد التى ينالها كل منهم ، وقائمة اخرى بأسماء الخدم والجوارى ومنحة العيد لكل منهم . ثم كلف بعضهم بايصال المبالغ الى ايدى اصحابها .

ونغص عيش رب الاسرة كه مينغ فى الايام السابقة للعيد حادثان تألم منهما كثيرا .

الحادث الاول هو ان ابنه وابن اخيه الرابع قد تحرشا بالبنت تشون لان جارية الفرع الخامس ، فجاءت السيدة شن زوجة اخيه ومعها الجارية ، وشكت اليه ابنه ، وقالت امامه كثيرا من الكلام الجارح . كان ابنه الذى لا يتجاوز السادسة عشرة مدللا لديه منذ ان غادرت ابنته شو ينغ البيت ، فآلمه ان يفعل هذه الفعلة المخزية التى يبغضها اشد البغض ، ويسبب له الاهانة من زوجة اخيه . لقد خيب امله ، فانهال عليه ضربا بمقرعة من البامبو .

والحادث الثانى هو ان اخاه الخامس كه دينغ باع كثيرا من الاراضى الزراعية التى يملكها بثمن بخس ، فهو بذلك قد اساء الى والده الراحل . فلا يسع كه مينغ ان يقف مكتوف اليدين حين يظهر فى الاسرة مثل هذا الابن المبذر .

ولطالما قال لزوجته ، كلما خلا لهما الجو ، فى حنق وانكسار : " لماذا منيت انا دون غيرى بكل هذه المصائب ؟ ابنتى هربت سرا الى شانغهاى . وابنى خائب . واخى الخامس اتخذ محظية دون علمى قبل ان تنتهى مدة الحداد على الوالد الراحل ، وباع

تركة الآباء . وكان ينبغى لأخى الرابع ان يكون عاقلا ، ولكنه يعاشر ممثلى الاوبرا على نحو مخز . عنفتهما مرارا ، ولكنهما لا يصغيان الى . اعتقد انهما سوف يبددان حصتيهما من ثروة الاسرة . وكلما فكرت فى هذا شعرت باليأس وانكسار القلب . وابننا ولد خائب لا يسير فى الطريق القويم . فأى امل بقى لى فى هذه الحياة ؟ "

وكان جيويه شين يحس هو الآخر بخيبة امل كبيرة ، وهو يرى ان ما يحدث اليوم حوله انما يدل على وشك افول نجم هذه الاسرة . الا ان شو هوا جددت فيه الامل اذ قالت : " هل يمكن ان يكون اخى جيويه مين واخى جيويه هوى خائبين ؟ ان صاحب الهمة العظيمة لا يعيش على امجاد الآباء وثرواتهم ! "

وفى صباح يوم العيد اشعلت الشموع واعراد البخور فوق مذبح الاسلاف فى قاعة الجناح الرئيسى ، ووقف على الجانبين جميع افراد الاسرة رجالا ونساء ، كبارا وصغارا . فسجدوا تباعا لأرواح الآباء والاجداد ، ثم تبادل الجيل المتقدم تهانى العيد ، وسلم عليهم الشباب حسب الطريقة المتبعة وهنأرهم بالعيد . ثم شمل السكون القاعة ثانية بعد ان انصرف منها الجميع .

وحين خرج جيويه شين من القاعة ونزل الدرج ابصر فتاتين تدخلان من باب جانبى ، وتقبلان وفى يد كل منهما حزمة من زهر الرمان القانى اللون ، فعرف فيهما الجارية تسوى هوان وجارية اخرى تدعى تشى شيا . وحين رأتا جيويه شين انحنتا له ، وهما تقولان فى صوت واحد : " سيدى . "

رد جيويه شين عليهما التحية ، وعلى وجهه بسمة لطيفة ، وقال :

– ما اجمل زهر الرمان الذى فى ايديكما ، من اين حصلتما عليه ؟

فقالت تسوى هوان وقد التمعت عيناها الواسعتان فى جذل :

– قطفناه من شجرة الرمان المجاورة لبوابة الدار ، يمكنك يا سيدى ان تأخذ بعض هذا الزهر اذا احببت ، فسيدتى لا تحتاج الى كل هذا الزهر .

فقال جيويه شين مبتسما :

– لا داعى لذلك .

عندئذ ذهبت الفتاتان فى حال سبيلهما . وخرج جيويه مين من غرفته وتحت ابطه بعض الكتب . فوقع نظره على جيويه شين ، فنزل الدرج وتقدم اليه وهو ينادى : اخى الاكبر !

ثم بادره قائلا :

– لماذا لم تأت عمتنا حتى هذا الوقت ؟

لقد مضى وقت طويل ولم تأت مدام تشانغ الى هذا البيت لاستيائها من سلوك اخويها كه آن وكه دينغ .

تحدث جيويه شين قليلا مع اخيه الثانى امام القاعة ، ثم دعاه للجلوس فى غرفته . وما ان دخلا حتى لفتت انظارهما زهرات رمان جميلة بلونها المشرق الزاهى ، قد وضعت فى زهرية على الطاولة . فقال جيويه مين فى دهشة وسرور :

– آه ، زهر الرمان ! من اين جئت به ؟

وجم جيويه شين قليلا ، وظن لأول وهلة ان الخادمة خه هي التي احضرت له الزهر ، الا انه سرعان ما فطن الى ان هذه الزهرات هي بعض ما كان فى يد تسوى هوان .

كانت زهرات الرمان شديدة الحمرة فى لون النار الملتهبة ، تبدو كأنما ينبعث منها نور وهاج وحرارة عالية ، وهذا جعله يحس بأنه محوط بعطف واهتمام .

١٠ – تشو بوه تاو وتشنغ قوه قوانغ

اقترب موعد زواج مى ، فانشغل اهل الدار بالاستعداد لحفل الزفاف .

وفى اليوم السابق للزواج ذهبت السيدة تشو وجيويه شين الى اسرة تشو للمساعدة . ولما دخل جيويه شين الباحة الداخلية للدار رأى مى بجوار الباب عابس الوجه منكسر الخاطر ، فتقدم اليه وسأله فى حنان :

– ماذا تفعل هنا يا اخى ؟

كان مى مثقلا بالهموم ، ولكنه لا يجد فى البيت احدا يهتم به . وحين سمع سؤال جيويه شين اجابه فى اضطراب :

– انى اخاف . اعرف انى خائب ، ولكن ابى اصر على ان يزوجنى . سمعت من اخى جيويه مين ان الزواج فى سن مبكرة غير حسن ، وسمعت ايضا ان العروس سيئة الخلق . يقول ابى ان بين ذويها الكبار عدة علماء كبار فى الكونفوشية . ويقول

ايضا انى ضعيف فى كتابة موضوعات الانشاء .

حدق جيويه شين فى وجه مى النحيل الشاحب كأنما رأى فيه ظلا لوجهه هو ، ثم قال له متنهدا :

– لم لا تكلم اباك حتى يفهم رأيك ؟

فقال مى مذعورا :

– ارجو الا تقول هذا ! لو عرف ابى ما قلت لك لشتمنى . كيف اجرؤ على قول هذا الكلام له ، وانا متأكد انه انما يعمل هذا لمصلحتى .

وبينما كانا يتحدثان دخل تشنغ قوه قوانغ زوج اخت مى الراحلة فاستاء جيويه شين من مرآه .

لم يزر الرجل هذه الاسرة الا قليلا منذ ان توفيت هوى . وقد جاء اليوم بناء على دعوة من صاحب الدار تشو بوه تاو . فصحبه هذا الى غرفة مكتبه ليتحدثا فى الادب والشعر ، وامر ابنه مى بالمجئ اليه ليستمع الى احاديثهما فى انتباه .

وجاء فى حديثهما ذكر فنغ ياو شان ، وعندئذ اثنى عليه تشنغ قائلا :

– السيد فنغ لا يزال متوقد الذهن مع كبر سنه ، فان مقالته الاخيرة سجع رائع ، ولا نكاد نجد حتى بين القدماء من يجاريه فى هذا المضمار .

لم يقرأ تشو المقال الذى اشار اليه تشنغ ، الا انه لم يشأ ان يدع محدثه يعرف ذلك ، لذا عبر عن موافقته على نظرة تشنغ بعبارة مبهمة ، ثم تكلم عن مقال آخر لفنغ ، وقال :

— المقال وجيز العبارة عميق المعنى ، وقد اعجبنى غاية الاعجاب . وابن اخيه ، اى حمو ابنى ، هو ايضا من كبار علماء الكونفوشية المعاصرين .

قال ذلك والقى نظرة على مى ، فامتقع وجه هذا فزعا .

— صدقتم . السيد فنغ يدعو الى احياء تراثنا الحضارى ، ويفند البدع الغربية . وهذه الروح العالية والعزيمة الصادقة فى الدفاع عن العقيدة تهز النفوس حتى الاعماق . ولكنى سمعت ان عددا من الطلبة اصدروا مجلة ، وحملوا فيها على السيد فنغ ، ولفقوا الاكاذيب ضده . يا لهم من وقحين !

كان تشنغ يتحدث ، ونثار اللعاب يتطاير من بين شفتيه ، ثم استبد به الحنق وهو يفوه بالعبارات الاخيرة . فقال تشو فى سرور :

— انا معك . ان نقطة الضعف فى شباب هذه الايام هى الطيش والتهور . وهذه نتيجة دراستهم فى المدارس الحديثة التى نبذت كتب الكونفوشية وتعاليمها . ان تعاليم الحكيم العظيم كونفوشيوس هى الاساس فى تهذيب النفس ، فكيف يستطيع الانسان اذا لم يقرأ كتب الحكيم ان يهذب نفسه ، فضلا عن ان يعد نفسه لمسؤولية ادارة شؤون الدولة ؟

ورأى عندئذ ان محدثه يهز رأسه هزات متكررة اعجابا بحديثه ، فتابع مزهوا :

— لهذا السبب لم اسمح لابنى بدخول المدارس الحديثة . لا اعتقد ان هذا الولد سيرجى له مستقبل عظيم ، ولكنه هادئ

متزن ، اذا قورن بطلاب المدارس . انا مستاء من سلوك هؤلاء الطلاب . ابن اختى جيويه مين مثلا شاب مغرور متعال . اذا تكلم حشا حديثه بعبارات مستحدثة . وهو يصاحب فى الآونة الاخيرة جماعة من الطلاب الميالين الى الشغب . لهذا لم اسمح لابنى بالدراسة فى اسرة قاو على ايدى المدرسين الخصوصيين ، وكذلك لا احب ان يخالطهم كثيرا . واعتقد ان مى سيستفيد منك اذا استطعت المجئ من وقت لآخر لارشاده .

افاض تشو بوه تاو فى الحديث وصهره يصغى اليه باسما متهلل الوجه ، فى حين انتاب مى شعور من رقع فى مستودع جليد ، ولكن اباه لم يفكر قط فى ملاحظة ما يطرأ على سحنته من تغيرات لأنه لم يدر بخلده ان ابنه يمكن ان تكون له افكار مخالفة لأفكاره .

١١ ـ حفل الزواج وتابوت هوى

واخيرا تم زواج مى .

فقد انهمك افراد اسرة تشو فى الاستعداد لحفل الزواج اياما متتالية . ولما كان يوم الزواج نهضوا من النوم مبكرين ، وساد البيت هرج ومرج طول النهار . الخدم يغدون ويروحون ، والمهنئون يقبلون وينصرفون ، واصوات المزامير والصنوج تصم الآذان ، وضجيج لا ينقطع مثل غليان المرجل . واشرف تشو بوه تاو على حفل عقد الزواج . وكان جيويه شين ساعده الايمن على الرغم من اعتقاده بأن هذا الزواج غير مناسب .

ولبس مي رداء طويلا فوقه سترة ، وراح يفعل كل ما يأمره به ابوه ، كأنه طفل وقع فى قبضة غول عملاق يلهو به ويترعده ، واحس جيويه شين بعطف عليه فى سره ، فبذل ما فى وسعه لتسويغ كل هفوة وقع فيها ، الا انه عجز عن انقاذه من يد ذلك الغول . كان الفتى شاحب الوجه يترنح فى مشيته من شدة التعب ، وقد بلل العرق ملابسه الداخلية ، دون ان يلاحظ ذلك ابوه تشو بوه تاو . فقد كان رب الاسرة هذا غارقا فى نشوة الفرح . كان عظيم السرور من تزويج ابنه ، ومن مصاهرة فنغ ياو شان علامة الكونفوشية فى العصر الحاضر . فهذا اليوم ليس يوم فرح مي بقدر ما هو يوم فرح تشو بوه تاو .

وبعد زواج مي بأسبوعين تقريبا ذهب جيويه شين الى اسرة تشو تلبية لدعوة السيدة الكبيرة تشو للتشاور فى موضوع مواراة تابوت هوى التراب . وعندما وصل وجد ارملة ابيه السيدة تشو واخته شو هوا قد حضرتا قبله ، وراحتا تتحدثان مع السيدة الكبيرة وزوجة خاله السيدة تشن .

لقد مضى نصف عام على وفاة هوى ، وتابوتها لايزال مرميا فى دير بوذى للراهبات . لم يذهب زوجها تشنغ قوه قوانغ الى الدير لالقاء نظرة على التابوت طوال هذه المدة ، ولم يبعث احدا من الخدم للاطمئنان على التابوت خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة . وسمعوا مؤخرا ان تشنغ سيتزوج مرة اخرى ، فاذا تزوج ، أفلا يبقى جثمان هوى مرميا فى الدير ليدب فيه الفساد ؟ ! ولكن والدها تشو بوه تاو

لا يبدى اى اهتمام بهذا الامر .

استشاطت السيدة الكبيرة غضبا حين وصل الحديث الى هذه النقطة .

واحس جيويه شين بالألم يعتصر قلبه ازاء ذلك . ولما وجد السيدة الكبيرة مصممة على التدخل فى الموضوع رأى من واجبه ان يبذل جهده فى الامر ، لذا حرض السيدة قائلا :

ــ ارجو منك يا جدتى ان تكونى حازمة هذه المرة ، وان تحثى خالى على مفاوضة اسرة تشنغ لمواراة تابوت اختى هوى التراب فى وقت مبكر ، لتستقر فى مثواها الاخير وتطمئن قلوبنا بعض الاطمئنان . . .

فدمعت عينا السيدة ، وقالت فى حزم :

ــ سأكلمه مساء اليوم حين يعود . فاذا ابى مفاوضة اسرة تشنغ فانى سأعالج الامر بنفسى !

ولما عاد تشو بوه تاو فى المساء ، وسمع قول والدته ، لم يبد رأيا ، ولم تظهر على وجهه اية تعابير تفصح عما فى قلبه ، فأثار بموقفه هذا ثائرة والدته وزوجته . فسألته الاخيرة وقد نفد صبرها :

ــ ارد ان اسألك ، أليس من الواجب دفن تابوت هوى اولا ؟ تكلم ! أ تريد ان تترك تابوتها فى الدير الى ان يصيبه البلى ؟

فقال تشو فى لهجة توبيخ :

ــ ابنتى هوى من افراد اسرة تشنغ وان ماتت . اسرة زوجها اسرة عريقة فى العلم والأدب ، لا يمكن ان تجهل الاصول والقواعد فى مثل هذا الموضوع ، المرأة قليلة الفهم فلا تكونى طويلة اللسان !

هنا صاحت السيدة الكبيرة فى وجهه :

— هراء ! ما هذا الكلام السخيف ؟ تقول ان المرأة قليلة الفهم ، ألم تلدك امرأة ؟ انت متعلم ، ولكن التعليم ضاع فيك كأنك بهيمة . تعيش طول عمرك على الاطيان التى خلفها لك ابوك ، فماذا تعرف غير ذلك ؟ ! لا تفارق شفتيك كلمة القواعد والاصول ، ولكن أليس فى قواعدك واصولك شيء اسمه العاطفة الانسانية ؟

اطرق تشو بوه تاو صامتا امام والدته الثائرة ، وزفر جيويه شين فى صوت خافت ، بينما اهتز قلب شو هوا طربا .

وتابعت السيدة الوالدة تقول :

— كنت غير راضية بزواج هوى من تشنغ ، ولكنك اصررت ، فكيف كانت النتيجة ؟ زوجناها لتعيش فى اسرة تشنغ زوجة محترمة ، ولم نبعهم اياها بيعا ليؤذوها ويسوموها المذلة والهوان ! ألا يجوز لى وانا جدتها ان اتكلم ، وهى لا تجد مكانا تأوى اليه فى العالم الآخر ؟ قل لى : ستذهب لتفاوضهم ام لا ؟

هز تشو بوه تاو رأسه علامة النفى ، وقال فى عناد :

— افعل كل ما تأمر به امى الا هذا الامر .

— اذن سأعالج الامر بنفسى . انا سأفاوضهم فى هذا الموضوع .

قال لها تشو بوه تاو فى احترام محاولا ان يثنيها عن عزمها :

— امى ، هذا غير جائز ، سيتهموننا بأننا لا نعرف الاصول .

اخذت السيدة الكبيرة تلهث من شدة الغضب ، ومر وقت طويل قبل ان تصيح فى صوت يائس :

– يا للسماء . كيف ولدت هذا الحيوان الذى لا يفهم كلام الانسان ! ويقول انى لا اعرف الاصول ؟ اسمع : عليك ان تنجز هذا الامر فى حدود شهر . وان لم تفعل ، فسأقتل نفسى امامك ! لقد سئمت هذه الحياة !

وهبت واقفة ، وغادرت الغرفة مهتاجة النفس ، فأسرعت وراءها السيدة تشن وشو هوا وغيرهما ، فى حين بقى جيويه شين يتطلع الى خاله الذى وقف مكانه مرتبكا لا يدرى ماذا يفعل .

١٢ – نجم اسرة قاو

ابى تشنغ قوه قوانغ المجئ الى اسرة تشو بحجة انحراف صحته ، فلم يسع السيدة الكبيرة الا ان تكلف جيويه شين بالذهاب لمقابلته .

حدثه جيويه شين فى موضوع التابوت ، فمنعه الخجل من الرفض ، فوعد وعدا اكيدا بأن التابوت سيدفن فى اليوم الرابع من الشهر القادم .

وعاد جيويه شين الى اسرة تشو ، وحدثهم بنتيجة المفاوضة . فشكرته السيدة الكبيرة والسيدة تشن ، كما لاحت ابتسامة على وجه تشو بوه تاو .

فكر جيويه شين فى امور كثيرة حين سمع من افراد اسرة تشو عبارات الشكر والامتنان . فكر فى انه شارك فى دفع هوى الى طريق الموت ، وان التابوت الذى يرقد فيه جثمانها لايزال مرميا

فى ذلك الدير شبه المتهدم ، وعندئذ عاوده الشعور بالخجل والندم .
وعقب خروجه من بيت خاله ذهب الى مكتبه فى الشركة .

كان عمه كه آن ينتظره فى مكتبه ، ومعه تشانغ بى شيو ممثل دور المرأة الحسناء فى الاوبرا ، ليرافقه الى بعض المتاجر لشراء اقمشة للممثل . فذهب معهما الى متجر حيث اختارا قطعا من الاقمشة الفاخرة . ومن ثم عاد الى المكتب ، وجلس يطالع الصحف الصادرة فى ذلك اليوم ، فوجدها ملأى بالأنباء السيئة : قطاع الطرق منتشرون فى الريف ، القوات المرابطة فى مختلف المناطق تفرض على الاهالى ضرائب اضافية بكل تعسف ، الحروب الاهلية تجرى هنا وهناك . . فوضع الصحف جانبا . وعندها ظهر امام عينيه ذلك المشهد المخجل الذى مر به قبل قليل : عدد كبير من المارة يتطلعون امام باب المتجر الى ذلك الممثل المخنث وهو يختار الاقمشة مع كه آن .

وبينما هو متكدر النفس دخل عليه كه مينغ ، فنهض مسرعا ، واجلس عمه على كرسى الخيزران ، ودعا له بالشاى ، ثم قال له :

ــ لم تشرفوا هذا المكان منذ وقت طويل يا عمى ، هل فى نيتك شراء بعض الحاجات ؟

ــ زوجتى تريد منى ان اشترى لها بعض الاشياء ، فجئت اليك اولا لأجلس قليلا .

ــ كان عمى الرابع هنا .

فقال كه مينغ مقطب الجبين :

— رأيته فى الطريق ومعه ممثل شاب .
وتوقف قليلا .ثم اردف قائلا :
— سمعت ان كه آن وكه دينغ قد صحبا ممثلين الى البيت ذات مرة . الممثل الذى رأيته مع كه آن يدعى تشانغ بى شيو ، أليس كذلك ؟
فأجابه جيويه شين فى صوت خفيض :
— صحيح .
— سلوكهما لا يزداد الا انحرافا ! سبق ان تولى عمك الرابع منصب رئيس محافظة . ولم يخطر ببالى ان يصل الى هذا الطيش والتهور .
وامسك عن الكلام . ثم تنهد واضاف قائلا :
— كان ابى يرجو ان يكونا رجلين صالحين . اما الآن فلا امل فى اصلاحهما على ما اعتقد . لقد افل نجم اسرتنا ، وبدأت تسير فى طريق الانهيار ، وليس فى وسعنا انا وانت انقاذ اسرتنا من مصيرها المحتوم .
قال كه مينغ ذلك بصوت ينم عن السخط والاسف والحزن . الا انه ما لبث ان قال فى حزم :
— ولكننى ما دمت على قيد الحياة فلا بد ان ابذل جهدى للحفاظ على كيان الاسرة .
فقال جيويه شين ، وقد تأثر من قول كه مينغ :
— هذا ضرورى يا عمى !
— لقد وضع ابى اعباء الاسرة على عاتقى ، فلا بد ان

اعمل وفق مشيئته . لا يمكنني ان اقف مكتوف اليدين وهما يبددان ثروة الاسرة ويسرذان رجه ابى .

فأمن جيويه شين على كلامه قائلا :

— نعم .

وسادت لحظة صمت لم يسمع خلالها الا غرغرة الماء فى النارجيلة التى يدخنها كه مينغ ، ثم رفع رأسه فجأة وسأل :

— ما الذى جاء بعملك الرابع ومعه الممثل تشانغ ؟

فأجابه جيويه شين بعد تردد :

— جاء لشراء الاقمشة . اشترى بما قيمته اكثر من مئة يوان .

تنهد كه مينغ متحسرا ، ثم قال فى صوت ينم عن قلقه :

— اظن ان ثروة الاخوين لن تكفيهما الا سنوات قليلة اذا استمرا فى مثل هذا التبذير . اخى الخامس باع معظم اراضيه ، ولم يبق منها الا اقل من الثلث ، كما باع كثيرا من لوحات الرسم والخط . لا ادرى الى اى مصير سيؤول امرهما !

فتشجع جيويه شين ، واقترح قائلا :

— يمكنكم يا عمى ان تقدموا اليهما النصائح .

فعبس كه مينغ ، ثم قال :

— كان بودى ان اؤدبهما تأديبا . ولكن يحرجنى ان احدثهما فى موضوع المال وقد اقتسمنا تركة الوالد وصار كل فرع من الاسرة مستقلا عن الآخر ، وخاصة ان زوجتيهما لا تعقلان .

وبدا عايه كأنه تذكر امرا هاما ، فأضاف :

— احب ان اقول لك ايضا ان السيدة تشن محظية ابى تحب ان تتخذ ابنى الاصغر حفيدا لها ليعيش فى كنفها ، فلم اوافق . ولكن زوجة كه آن ذهبت اليوم الى زوجتى ، وقالت انها ترغب فى تقديم ابنها الثانى حفيد للسيدة تشن ، وكذلك ذهبت زوجة كه دينغ الى زوجتى ، وابدت رغبتها فى تقديم ابن شى ار محظية زوجها الى السيدة تشن .

كان كه مينغ يتكلم فى اعياء وعلى وجهه علامات الاستياء الشديد . فسأله جيويه شين فى حذر :

— ورأيكم يا عمى ؟

— اعتقد ان كل ما فى الامر هو الطمع فى ثروة السيدة تشن ، وهى ثروة لا تزيد على بضعة آلاف يوان : بيت ، واسهم قيمتها ألف يوان . دعهم يتنازعون ! انهم سيتشاجرون فى المستقبل ايضا لهذا السبب . اذا علم ابى بهذا وهو فى مثواه الاخير فسينفجر غاضبا .

قال ذلك ، واسند ظهره الى كرسى الخيزران منهوك القوى .

وفى الخارج كانت السماء قد تلبدت بغيوم سوداء تنذر بمطر عاصف فى هذا الجو الخانق .

١٣ — الكبت والتنكيل

ستستقبل مجلة «من اجل الجماهير» التى انشأها جيويه مين واصدقاؤه عامها الثالث .

لقيت المجلة خلال العامين المنصرمين اقبالا متزايدا ، واثرت فى الرأى العام تأثيرا كبيرا .

يذهب جيويه مين الى مقر المجلة ثلاث امسيات او اربعا فى الاسبوع ليعمل مع اصدقائه بقلوب مفعمة بالثقة والامل فى مستقبل مشرق . انهم يكافحون ويعملون بهمة دون ان يكون لهم من وراء ذلك مصلحة خاصة ، ولا يتقاضون اى اجر .

وذات مساء ، وقد انتعش الجو بعد المطر ، استمر جيويه مين يعمل فى المجلة حتى الهزيع الثانى من الليل .

وفى طريق عودته صادف اخاه الاكبر على مسافة غير بعيدة من البيت . كان جيويه شين يسير صامتا مطأطئ الرأس ، يبدو كأنما يرزح تحت حمل ثقيل ، فلا يستطيع ان يرفع صدره ، او يأخذ نفسا طويلا . فحاول جيويه مين ان يحدثه ، الا انه بقى ساكتا ، فأدرك انه مشغول الفكر .

دخلا الدار ، ولكنهما ما ان اجتازا البهو ، ومرا من الباب الجانبى حتى فوجئا ببكاء صادر من احدى الغرف الواقعة الى اليمين ، تبينا فيه صوت الجارية تشون لان ، واعقبته صيحات وشتائم من السيدة شن ، وصوت مقرعة بامبو تضرب جسم انسان ضربات متتابعة . ثم ما لبث الى تحول البكاء الى عويل ، بينما ارتفع صوت المحظية شى ار الثاقب ، وألفاظ بذيئة من فم السيدة شن .

لم يطق الاخوان سماع هذا ، فسارا نحو الجناح الذى يقيمان فيه . ولكنهما لم يسيرا الا خطوات حتى ابصرا شخصا اندفع

خارجا من الغرفة ، فصاح جيويه مين مدهوشا : شو تشن !

اسرعت اليهما الفتاة ، وارتمت فى احضان جيويه مين ، وقالت فى صوت باك :

ـ انقذونى ارجوكم !

ان نظرة واحدة تكفى ليدرك المرء ان هذه الفتاة الصغيرة تعيش فى مأساة ، يتضح ذلك فى قدميها المضغوطتين ومن تعابير وجهها ، وصوتها وهيئتها ، بل من مزاجها ايضا . ان كل ما فيها يحمل سمة الكبت والتنكيل الذى لا تفتأ تعانيه . انها تتقدم اليوم خطوة خطوة نحو شفا الهاوية . لقد تعودوا منها صيحات الاستنجاد خلال الاعوام الاخيرة ، ورأوا وجهها يزداد شحوبا .

احس جيويه شين بالحزن والعجز امام الفتاة شو تشن ، بينما احس جيويه مين بالحقد والألم ، ورأى ان من واجبه ان يساعدها فى ايجاد مخرج لها . فطمأنها قائلا :

ـ لا تحزنى يا اختى ، سنتشاور فى الامر .

ثم سار بها الى غرفة شو هوا ، وسار جيويه شين الى غرفته مكتئب النفس .

قالت شو هوا محنقة حين رأت شو تشن دامعة العينين :

ـ شتمتك زوجة عمى مرة اخرى ، أليس كذلك ؟ هى دائما تنفس عن غضبها بايذاء ابنتها !

فقالت شو تشن باكية :

ـ فى الصباح شتمت امى محظية ابى شى ار ، فدافع ابى عن شى ار ، فغضبت امى وضربتنى . وقبل قليل كانت

شى ار تداعب طفلها وابى غائب عن البيت ، فساء المشهد امى ، فراحت تضرب الجارية تشون لان ، ثم تشاجرت مع شى ار . لم اعد احتمل مثل هذه الحياة . . .

— تغضب على غيرها ولكنها لا تجرؤ على الانتقام ، بل تصب نار غضبها على ابنتها . هذا ظلم ! ولكن الذنب ذنبك يا اختى شو تشن ، فأنت مسالمة ضعيفة . لو كنت مكانك ، لما احتملت كل هذا .

قالت شو هوا ذلك ، وقد رفعت حاجبيها ، وومضت عيناها ببريق خاطف .

هنا تدخل جيويه مين فى الحديث ، وقال لشو هوا بغية اثارتها :

— هل نسيت قول الكونفوشيين : من العقوق الا يقتل الابن نفسه ، اذا اراد ابوه منه ذلك ؟

— لا تحاول ان تستفزنى يا اخى الثانى ! لا اؤمن بهذه النظرة الخاطئة . على الانسان ان يميز بين الحق والباطل فى كل قول او فعل . فاذا كان قول الاب او الام منافيا للحق فلا يصح العمل به .

ابتسم جيويه مين فى رضا من صراحة اخته وحسن فهمها وجرأتها .

والتفتت شو هوا الى شو تشن ، وسألتها :

— أ ليس كلامى صحيحا يا اختى ؟

فأجابتها شو تشن فى حيرة وارتباك وقد كفت عن البكاء :

ـ لا ادرى . انا قليلة الفهم بخلافك انت .

اطال جيويه مين وشو هوا النظر الى الفتاة . وادركت شو هوا ان الذى تحتاج اليه شو تشن فى حالتها هذه هو العطف والعزاء والمعونة . فرجت منها ان تبيت عندها الليلة . اما جيويه مين فقد استغرق فى تفكير عميق ، وهو يقول فى سره : يجب ان اجعلها تعقل قبل ان اساعدها . . .

١٤ ـ فى دار اخرى

كان جيويه شين جالسا امام المكتب فى غرفته ، فغلبه النعاس من شدة ما لقى فى الآونة الاخيرة من العمل المرهق والاحزان والهموم ، فألقى بوجهه على المائدة ونام .

وبغتة سمع صوتا مألوفا يناديه نداء خافتا . رفع رأسه ، فاذا بالاخت هوى واقفة امامه بملابس هادئة اللون . ثم لاحظ ان رأسها وملابسها مبللة بالماء ، فسألها فى دهشة :

ـ ماذا جرى لك يا اختى هوى !

نظرت اليه بعينين دامعتين ، ثم انفجرت تبكى وقالت :

ـ انقذنى يا اخى الاكبر ! واسرع ! لم اعد احتمل !

حز فى قلبه بكاؤها المفجع واستغاثتها . وفجأة احس بنور قوى يبهر بصره ، وبيد توضع على كتفه . فرفع رأسه ليجد شو هوا امامه ضاحكة الوجه ، فأدرك انه كان فى حلم .

ـ يبدو انك كنت تحلم . من رأيت فى المنام ؟

تنهد وقال :

ــ حلمت بالاخت هوى تستغيث بى .

مضى اليوم الرابع من الشهر ولم تظهر اية حركة من جانب اسرة تشنغ ، كأن تشنغ قوه قوانغ نسى تماما العهد الذى قطعه على نفسه امام جيويه شين فى الشهر الماضى . فبعثت السيدة الكبيرة تشو من يسأله عن الامر ، ولكن الرجل امتنع عن الظهور بحجة المرض .

ثم ذهب جيويه شين الى اسرة تشنغ فى اليوم السادس من الشهر ، فوجد دارهم مزينة بالفوانيس والاشرطة الحريرية ، فأدرك ان تشنغ قوه قوانغ مقبل على الزواج . وطلب مقابلة الرجل ، فلم يجده .

عاد جيويه شين مسرعا الى اسرة خاله ، ونقل النبأ الى السيدة الكبيرة وغيرها . الا ان تشو بوه تاو دافع مرة اخرى عن تشنغ مسوغا سلوكه كعادته ، فثارت ثائرة والدته وقالت له فى حدة :

ــ تجد دائما ما تقوله لتسويغ سلوكه . اغرب عن وجهى ! لا اريد سماع كلامك . الا تخجل من نفسك ، وانت والد هوى ؟!

ولكن تشو لم يغادر الغرفة ، فأخذت زوجته تحدجه بنظرات ملؤها الحقد والكراهية . وساد الغرفة جو متوتر ، ووقف جيويه شين حائرا لا يدرى ماذا يقول لتخفيف حدة توتر الجو .

وفجأة مزق سكون الجو صوت امرأة تزعق :

ـ من انت حتى تجرئى على مخاطبتى بقلة احترام ! أ تقدمين الى مثل هذا الشاى ! أليس فى هذا البيت شاى جيد ؟

وتلا ذلك صوت فنجان يتكسر على الارض .

هذه زوجة مى تشتم الخادمة . ان هذا البيت لم يعرف الهدوء منذ ان جاءت اليه هذه المرأة ، فلا يمضى يوم دون ان تثور غاضبة او تشتم الخادمة .

هنا ضحكت السيدة الكبيرة ضحكة ساخرة ، ورفعت سبابتها فى وجه ابنها وقالت فى لهجة تهكم :

ـ بيتنا الآن كثير الحركة والنشاط . لم تكتف باختيار زوج طيب لابنتك ، بل ادخلت الى البيت زوجة طيبة لابنك !

فقال تشو بوه تاو محاولا تسويغ اختياره :

ـ هكذا الشباب . ارى ان ابنى مى اصبح انشط مما كان .

فقالت له زوجته بوجه متجهم :

ـ اود ان اسأل : كيف كانت حياة ابنتى فى اسرة تشنغ ؟ لقد تعذبت كثيرا حتى ماتت دون ان نسمع منك كلمة احتجاج . والآن جاء دورنا لنتعرض لاساءة زوجة الابن !

ورأى جيويه شين انه لا يليق به ، والحالة هذه ، ان يثير موضوع تابوت هوى ، فاستأذن وعاد الى البيت .

حدث جيويه شين اخاه جيويه مين بما رأى فى اسرة تشنغ ، وما حدث فى بيت خاله . فسأله جيويه مين :

ـ ما رأيك اذن ؟ أنترك تشنغ قوه قوانغ يتصرف على هذا النحو دون ان نفعل شيئا ؟

فقال جيويه شين فى وجوم :

ــ وماذا استطيع ان افعل وحال خالى واهله كما وصفت لك ؟ كانت جدتى شديدة الغضب فى اول الامر ، ثم نسيت موضوع الاخت هوى بالتدريج .

قال جيويه مين :

ــ فكرت فى حيلة ، ولكنى لا اعرف هل ترضون العمل بها .

ــ اوضح !

ــ اعرف ان اسرة تشنغ لا تملك محفات ، فاذا احتاجوا استأجروها فى الشارع . يمكننا ان نرسل احد الخدم ، فيستأجر محفة وينتظر قرب دار تشنغ ، فاذا خرج الرجل تقدم اليه الخادم ، وقال له ان تشو بوه تاو يطلبه لأمر هام ، وانه قد ارسل اليه محفة لهذا الغرض ، فلا يستطيع الرجل ان يعتذر ، فيأتى به الخادم الى بيتنا ، ثم نرافقه الى اسرة تشو .

فكر جيويه شين قليلا ، ثم قال :

ــ حسنا ، لا بأس فى ان نجرب .

نفذت حيلة جيويه مين بنجاح ، وجاء تشنغ ، الذى ظل محتجبا ، الى اسرة تشو مرغما برفقة الاخوين جيويه شين وجيويه مين .

وظل تشو بوه تاو منحازا الى جانب تشنغ فى اثناء الحديث ، فطردته السيدة الكبيرة من الغرفة ، رهكذا فقد تشنغ من يشد ازره ، فبدا عليه الخوف وسكت . فحاصرته السيدة الكبيرة والسيدة تشن

والاخوان ، وضغطوا عليه ، فلم يسعه الا تحرير وثيقة تعهد فيها بمواراة تابوت هوى التراب فى الشهر القادم .

كاد جيويه مين ان ينفجر ضاحكا حين رأى الرجل وهو ينصرف مطأطئ الرأس محمر الوجه . الا ان جيويه شين خاف ان ينقض الرجل عهده مرة اخرى . فقال اخوه فى ثقة تامة :

ــ كونوا مطمئنين ! من المؤكد انه لن ينقض عهده هذه المرة . لم تسيئوا اليه حين كانت الاخت هوى على قيد الحياة ، فما الذى يحمله على الامتناع عن مواراة جثمانها ؟ ارى ان موقف خالى هو الذى شجعه . خالى يتملق اسرته اكثر مما ينبغى . لو اننا عملنا اليوم برأيه ايضا لما وصلنا الى اية نتيجة .

وغشيه الارتياح لنجاحه . ولكن جيويه شين خاف ان تغضب السيدة الكبيرة على جيويه مين لحديثه الصريح عن خاله ، ولم يخطر بباله ان السيدة عبرت عن موافقتها التامة بقولها :

ــ هذا هو رأيى ايضا . هو الذى افسد الامور . اودى بالبنت هوى . ولم يكتف بذلك ، بل اوقع الولد مى فى بلاء عظيم لن يستطيع النجاة منه طول الحياة . . آه ، انا وحدى الملومة . لو كنت متعقلة قليلا ما كان يمكن ان يحصل كل هذا . . .

١٥ ــ نساء اسرة قاو

كان جيويه شين جالسا فى غرفته يحملق فى صورة زوجته شارد الذهن مخضل العينين حين زكمت انفه رائحة عطر قوى ،

فاذا بالسيدة تشن دخلت عليه ، فوقف على الفور .

قالت السيدة تشن وقد رسمت على وجهها ابتسامة عريضة :

– جئت استشيرك فى بعض الامور .

– تفضلى بالجلوس يا سيدتى ، لا ادرى ، فى اى امر من الامور ؟

وتساءل فى سره : اية لعبة وراء هذه المرأة يا ترى ؟ الا انه سرعان ما تذكر الامر الذى حدثه عنه عمه كه مينغ يوم مر على مكتبه .

– إحب ان اشاورك فى امر ، وقد تكلمت فيه مع السيد كه مينغ من قبل .

وفعلا تكلمت عن موضوع اتخاذ حفيد ، وقالت فى تباه ان كلا من السيدة الرابعة والسيدة الخامسة ترغب فى تقديم احد اولادها ليكون حفيدا لها . وختمت حديثها قائلة بأنها لا تدرى ماذا ينبغى لها ان تفعل ، ورجت من جيويه شين ان يقدم لها المشورة .

فقال جيويه شين ، وهو يخشى ان يحشر فى هذا الموضوع :

– هذا امر خاص بك .

– اذن آخذ الابن الثانى للسيد الرابع ، فهذا الولد اقوى جسما . فاذا غضبت السيدة الخامسة لهذا السبب فلتثرثر كما تشاء !

وبرزت بشفتيها الرقيقتين عقب عبارتها الاخيرة ، وهى حركة اعتادت ان تأتى بها فى الايام السابقة تدللا امام السيد الكبير قاو ، وقد اتت بها اليوم دون وعى منها .

كان جيويه شين يتمنى ان تنصرف المرأة فى الحال . ولكنها فتحث فمها مرة اخرى وقالت :

— سمعت ان شركتكم تقبل الايداع الحر . عندى خمسمائة يوان ارجو ان تودعها لدى شركتكم . اعرف ان للسيدة الثالثة والسيدة الرابعة ودائع عندكم .

وعدها جيويه شين بانجاز الامر . فانصرفت تتلوى فى مشيتها ، فلم يتمالك جيويه شين ان زفر زفرة عميقة .

ارسل جيويه شين بصره خارج النافذة . كانت الشمس قد غابت فى الافق الغربى ، الا ان اعالى الاشجار لا تزال ملفعة بضوء ذهبى ، وباحة الدار تنيرها فلول ضوء النهار ، وبدا الورد والاقحوان فى عنفوان تفتحهما . ومر طباخ امام النافذة ، يترنم بأغنية شعبية شائعة . ولكن جيويه شين لا يجد فى قلبه مجالا للتمتع بالازهار او الضياء او الغناء . وبينا هو كذلك ، صافح سمعه صوت فتاتين تتحدثان تحت نافذته :

— الواقع انى لا اجد فى هذه الدار الا اشخاصا قلائل يستحقون الاحترام . هذه الاسرة تسير اليوم من سىء الى اسوء .

كان هذا صوت تشيان ار جارية الفرع الرابع . فقالت تسوى هوان جارية الفرع الثالث :

— كونى على حذر حين تتكلمين : من حسن الحظ ان السيد جيويه شين لم يعد بعد .

— لا تقلقى . السيد جيويه شين طيب القلب ، ما رأيته قط يشتم الخدم .

فقالت تسوى هوان فى صوت خافت :

— اعرف . السيد جيويه شين احسن رجل فى هذا البيت ، ولكنه اشقى رجل ايضا .

— انه سيء الحظ ، ماتت زوجته ، ثم مات ولداه على التوالى . فلا عجب ان نراه دائما مهموما حزينا .

ارهف جيويه شين سمعه ليلتقط بقية الحديث . وسادت لحظة صمت ، ثم عادت تسوى هوان تقول :

— سيدتى شو هوا تقول على الدوام ان السيد جيويه شين يعامل الجميع معاملة حسنة ، ولكن المصائب لا تقع الا على رأسه . طول ايام السنة لا نرى فيه وجها ضاحكا . ولكن السيدة الرابعة والسيدة الخامسة والسيدة تشن يضحكن كل يوم . لا افهم لماذا تعامل السماء الناس هذه المعاملة غير العادلة ؟

لاحظ جيويه شين فى صوت تسوى هوان رنة سخط وعطف فى آن واحد .

ثم سارت الفتاتان فى اتجاه حديقة الدار .

انشرح صدر جيويه شين ، واحس كأن قطرة ندى رطبت قلبه الذاوى .

احب ان يخرج الى الحديقة ليتمشى فيها قليلا ، ولكن قبل ان يغادر الغرفة دخلت السيدة شن زوجة عمه الخامس وبادرته قائلة بلا مقدمات :

— جاءتك السيدة تشن قبل قليل ، أليس كذلك ؟ من المؤكد انها جاءت تشاورك فى موضوع اتخاذ حفيد لها .

فقال فى اقتضاب مدافعا عن نفسه :

ـ ولكنى لم اقل شيئا .

فسألت ، وقد جحظت عيناها الصغيرتان :

ـ وماذا قالت هى ؟ ألم تقل انها ستأخذ الابن الاصغر لعمك الثالث ؟

ـ قالت فيما اذكر انها ستأخذ الابن الثانى لعمى الرابع . عمى الثالث يأبى ان يتخلى عن ابنه الاصغر .

فاربد وجهها بغتة ، وقالت فى دهشة :

ـ تأخذ ابن عمك الرابع ؟

وحقيقة القصة ان السيدة وانغ زوجة كه آن حين عرفت ان السيدة تشن ترغب فى اتخاذ الابن الاصغر لكه مينغ حفيدا لها ، ذهبت الى شن ، وقالت لها ان كه مينغ يطمع فى ثروة السيدة تشن ، ويحاول اجبارها على اتخاذ ابنه الاصغر حفيدا لها ، واقترحت عليها ان تذهب مع السيدة تشن الى كه مينغ ، وتقولا له ان من الافضل ان تأخذ السيدة تشن ابن شى ار محظية اخيه الخامس . وذهبت شن فعلا الى كه مينغ ، وقالت له ذلك . ولكنها عرفت الآن انه لم يرض بتقديم ابنه الى السيدة تشن ، فأخذت هذه ابن السيدة وانغ .

اغتاظت شن كثيرا ، اذ اعتقدت ان السيدة وانغ والسيدة تشن قد غررتا بها . فقالت لجيويه شين فى صوت باك :

ـ انهما تظلماننى . كل واحد فى هذا البيت يظلمنى .

نظر جيويه شين الى شن فى اشفاق . لقد آذته هذه المرأة

كثيرا ، وسببت له الآلام ، وظلت تناصبه العداء بلا مسوغ ، فهو يبغضها . ولكن الوقائع برهنت على انها ليست سوى امرأة حمقاء تستغلها الاخريات لاغراضهن الخاصة . لذلك طيب خاطرها بلهجة صادقة :

– قد يكون هذا سوء تفاهم يا عمة ، فلا تحزنى .

فقالت وقد علت وجهها حمرة الخجل :

– ليس الامر كما تظن يا سيدى . السيدة وانغ امرأة خبيثة ، وهى التى حرضتنى على مخاصمة فرعكم ، كل شيء من تدبيرها . لقد انخدعت بها مرارا .

نظر اليها جيويه شين متألما . لقد قالت الحقيقة اخيرا . ولكن ما فائدة ذلك ؟ ان مظاهر التطاحن وتلفيق التهم الكاذبة لا يمكن ان تختفى من هذه الاسرة بمجرد انها قالت هذه الحقيقة .

واضافت السيدة شن فى حزم :

– سأنتقم ! لا بد ان انتقم !

ولكنها لم تذهب الى السيدة وانغ للانتقام منها ، لأنها ليست ندا لها على الاطلاق . وانما نفست عن سخطها بأن ضربت ابنتها شو تشن مساء ذلك اليوم .

١٦ – تصادم

– يا لها من امرأة شيطانة ! لا ادرى هل قلب زوجة عمى الخامس قلب انسان ؟ سوف تموت شو تشن على يدها ذات يوم ،

ولكنك ساكت لا تمد الى شو تشن يد المساعدة !

قالت شو هوا ذلك تعاتب جيويه شين حين سمعت ان السيدة شن قد ضربت شو تشن مرة اخرى مساء امس .

فتنهد جيويه شين وقال :

— وما حيلتى انا ؟ امها غاضبة على زوجة عمى الرابع .

— وما علاقة ذلك بشو تشن ؟ كل مرة تقول : ما حيلتى ؟ تقول ذلك فى كل امر ، ولا تحاول ان تفكر فى حيلة !

ومن اجل التسرية عن شو تشن ذهبت اليها شو هوا ، وصحبتها الى حديقة الدار ، ومعهما احدى الجوارى .

كانت الحديقة عالما آخر : الهواء فيها منعش والازهار متفتحة والطيور تغرد على الاغصان واليعاسيب تطير فوق الاعشاب رائحة غادية .

جلست الفتاتان على الارض المعشوشبة . وزفرت شو تشن فى ارتياح ، وهى تمسك بيديها قدميها الملفوفتين ، وخيل اليها كأنها دخلت عالما يمرح فيه كل كائن حى بحرية مطلقة .

— كم اتمنى ان ابقى وحدى فى الحديقة طول النهار !

ثم هزت رأسها فى اسف ، واضافت :

— ولكن للاسف هذا مستحيل . امى لا تسمح لى ، ثم انى اخاف ان بقيت هنا بمفردى . اخشى الا استطيع احتمال هذه الحياة ، سأموت بالتأكيد .

فقالت شو هوا فى انفعال :

— مم تخافين ؟ نقطة ضعفك هى الجبن . عليك ان تعملى

مثلى انا البنت الطائشة ، لست اخاف من اى شيء . اعلمى انك كلما اشتد بك الخوف تنمروا عليك اكثر . . .

وقبل ان تتم قولها رأت السيدة وانغ والسيدة تشن مقبلتين من ناحية التلة الاصطناعية ، وتشن تمسك بيد الطفل جيويه شى الذى اتخذته حفيدا لها ، وتبدو على المرأتين علائم الرضا والمودة المتبادلة .

نهضت شو تشن وحيت المرأتين ، وكذلك حيتهما شو هوا وهى جالسة . فلما رأت المرأتان منها ذلك جعلت احداهما تغنى على لحن الاخرى ، تنعتانها بشتى الاوصاف ، مثل : " لا تعرفين قواعد السلوك ! " و" قليلة الادب ! " و" لا يملأ عينيك احد ! " . . . فثارت ثائرة شو هوا ، وهبت واقفة ، وسألت السيدة وانغ متجهمة الوجه :

ــ هل من قواعد السلوك ان يدعو عمى الرابع ممثل الاوبرا الى الشراب فى البيت ، ولم تنته مدة الحداد على جدى الراحل ؟

ثم تحولت الى السيدة تشن ، وسألتها قائلة :

ــ وهل من الادب ان تطردوا زوجة جيويه شين الى معبد متهدم فى الضواحى لتلد بعيدة عن هذا البيت بحجة ان دم النفساء يتسبب فى نزف جثمان جدى ، فاهلكتموها ظلما ؟

حاولت شو تشن والجارية تهدئة ثورتها واقناعها بالسكوت ، لكنها لم تكف الا بعد ان عددت امام المرأتين كل المظالم والمساوئ التى شهدتها فى هذا البيت ، والتى ظلت تكتمها فى صدرها .

كانت تتكلم قوية الحجة شديدة اللهجة ، وهي تواجه المرأتين شامخة الرأس مرفوعة الصدر . فأفحمت المرأتان ، ولم تحيرا جوابا .

واقبل جيويه مين فى تلك اللحظة ، وكان قد سمع طرفا من احاديثهن . فحدج المرأتين بنظرة ازدراء كأنه يقول : " أ يحق لأمثالكما ان تتحدثوا عن الادب وقواعد السلوك ! " ثم امسك بذراع شو هوا ، وسار بها فى خطوات واسعة . فتبعتهما شو تشن والجارية عن عجل .

صعب على هاتين الطاغيتين تجرع هذه الاهانة البالغة من صغار الاسرة ، فذهبتا الى السيدة تشو محتقنتى الوجه منتفختى الاوداج ، ولكنهما وجدتا عندها زائرتين ، هما المدام تشانغ وابنتها تشين ، فخجلتا من اثارة الموضوع فورا .

ثم دخلت السيدة الخامسة شن والسيدة الثالثة تشانغ على التوالى .

وانتهزت السيدة وانغ فرصة مناسبة ، فخاطبت السيدة تشو بصوت مرتفع :

ـ ابنتك شو هوا شتمتنى انا والسيدة تشن فى الحديقة قبل قليل ، ثم جاء ابنك الثانى وساعدها . لننظر الآن بحضور السيدة عمتهم كيف تعالج هذه المسألة .

وايدت قولها السيدة تشن قائلة :

ـ نعم ، شتمتنى شو هوا . تعلمن حتى السيد الكبير لم يشتمنى فى حياته ولو مرة واحدة . لابد ان تنصفينى منها يا سيدتى .

شو هوا من الصغار ، ولكنها تجرأت على اهانتى . انا لن اعيش ان لم اشف غليلى !

واخرجت منديلها تجفف الدموع . فدهشت جميع الحاضرات مما قالت المرأتان .

١٧ — مجادلة

دعى جيويه مين وشو هوا الى غرفة السيدة تشو ، فتقدما الى عمتهما اولا وسلما عليها .

رجت السيدة تشو من المدام تشانغ ان تفصل فى الموضوع ، اذ وجدت انه لايليق بها التشدد مع الاخوين باعتبارها ارملة والدهما ، الا انها تكلمت اولا ، فقالت لجيويه مين فى لهجة جدية :

— تقول السيدة زوجة عمك الرابع والسيدة تشن انك وشو هوا شتمتماهما ، فما الذى جرى على وجه التحقيق ؟

فأجاب جيويه مين فى هدوء :

— لم اشتمهما يا ماما ، وانما سحبت شو هوا ، وابتعدت بها عن المكان .

عندئذ سألته عمته متجهمة الوجه :

— ومعنى هذا ان شو هوا شتمت ؟

قال جيويه مين فى هدوء :

— هى لم تشتم فى الواقع ، وانما تكلمت فى سورة غضب ،

هنا صاحت السيدة تشن :

– لم تشتم ؟ ألم تقل اننى اهلكت زوجة جيويه شين ظلما ؟ من يكذب فسيموت ميتة شنعاء !

فأجابت شو هوا مغضبة :

– نعم ، انا شتمتك ، ماذا انت فاعلة اذن ؟

فصاحت بها السيدة تشو فى جزع :

– شو هوا !

وعنفتها عمتها فى لهجة صارمة :

– انت مخطئة جدا بهذا التصرف . لم تتشاجرين مع زوجـة عمك ؟ على البنت مراعاة قواعد السلوك امام اعمامهـا وزوجاتهم . . .

– وعلى الكبار ايضا مراعاة قواعد السلوك امام الصغار !

قالها جيويه مين فى برود . فارتبكت تشين ، ونقلت بصرها بين جيويه مين وامها ، الا ان هذه الاخيرة واصلت حديثها دون ان تلتفت الى ابن اخيها :

– اسمعى كلامى اكراما لروح ابيك الراحل ، واعتذرى الى زوجة عمك والى السيدة تشن ، والا (ثم بلهجة صارمة) فان امك كلفتنى قبل قليل بمعاقبتك .

قالت شو هوا فى عناد :

– اذن تفضلى يا عمة وعاقبينى .

تجهم وجه المدام تشانغ ، بينما احتقن وجه السيدة تشو من شدة الجزع ، فى حين تسارعت دقات قلب تشين . وكانت السيدة شن هى الوحيدة التى احست بالارتياح ، اذ وجدت ان

شو هوا انتقمت لها .

خاف جيويه مين ان تتعرض شو هوا للاذى ، فبادر يقول فى هدوء ورزانة موجها حديثه الى عمته :

— ينبغى لك يا عمتى ان تتبينى حقيقة ما حدث قبل انزال العقاب على شو هوا . تصورى يا عمة كيف يمكن لشو هرا ان تتشاجر مع زوجة عمى والسيدة تشن بلا سبب ؟

فقاطعته السيدة وانغ وقالت للمدام :

— لا نريد ان نسمع مثل هذا الكلام الفارغ يا سيدتى . اذا تركنا زوجة الاخ الراحل تدلل الاولاد وتتغافل عن افعالهم فانهم سيسيئون الى سمعة الاسرة . اذا كنت لا تستطيعين معالجة الامر يا سيدتى ، ولا تستطيعين اتخاذ قرار حاسم فى الموضوع ، فانى سأدعو السيد الثالث الى الحضور لينظر فى الامر .

امتقع وجه السيدة تشو ، وخانها النطق . فقالت المدام تشانغ للسيدة وانغ مداراة لها :

— لا تستعجلى يا اختى ...

كانت المدام تشانغ فى موقف محرج لا تدرى ماذا تفعل . وفجأة وقع نظرها على جيويه شين واقفا عند الباب بين الخادمات ، فنادته قائلة :

— جئت فى الوقت المناسب يا جيويه شين . قل لى أ يستحقان العقاب ام لا ؟

كان جيويه شين قد عاد لتوه من المكتب . وحين سمع بمجئ عمته اتى لتحيتها . فلما سألته عمته عن رأيه خاف اخوه

جيويه مين من ان يفتح فمه ، فأسرع يقول :

– انت سيدة عاقلة يا عمتى . تكلموا عن سمعة الاسرة ، ولكنى اود ان اسأل من الذين اساءوا الى سمعة الاسرة فى الواقع ؟ اتخاذ المحظية قبل انتهاء مدة الحداد ، ودعوة ممثلى الاوبرا الى البيت للشراب واللهو ، أليس هذا اساءة الى سمعة الاسرة ؟ صحيح ان شو هوا قالت ان السيدة تشن اهلكت زوجة اخى ظلما ، ولكنها ليست مخطئة فى قولها هذا . كانت زوجة الاخ فى صحة جيدة ، ولكنها ماتت بيد هؤلاء ! لا شك انك تذكرين يا عمتى من الذى زعم ان دم النفساء يتسبب فى نزف جثمان الميت ، ومن الذين اجبروا زوجة اخى على الانتقال الى ضواحى المدينة زاعمين ضرورة "مغادرة المدينة" و"عبور جسر" ، حتى انهم منعوا اخى من القاء النظرة الاخيرة على زوجته . ما هذه اللعبة ؟ أليس هذا اساءة ايضا الى سمعة الاسرة ؟ وهل هذا من قواعد السلوك ؟ لا يزال فى غرفة جدى كثير من الكتب الكلاسيكية ، وفى غرفة عمى الثالث ايضا . فتشوا فى هذه الكتب ، وقولوا لى فى اى موضع منها ذكرت هذه الخرافة ؟ وفى اى موضع منها ذكرت ضرورة هذة اللعبة ؟ اذا وجدتم ذلك فى الكتب يا عمتى فاننا نتقبل العقاب طواعية !

كان حديثه مقنعا بأدلته القاطعة وحججه القوية . وكان يقف وسط الغرفة شامخ الرأس متضرم الوجه ، تقدح عيناه شررا .

اطرقت السيدة تشو رأسها ، وبكت تشين وشو هوا ، بينما وضع جيويه شين احدى يديه فوق صدره فى موضع القلب .

رق قلب المدام اذ وجدت ان ما ذكره جيويه مين كله حقائق واقعة ، وان كانت لا توافق تماما على رأيه . وهبت السيدة تشن واقفة ، ورفعت سبابتها فى وجه جيويه مين ، وصاحت :

— هذا هذيان ، واتهام باطل ! لقد ماتت زوجة جيويه شين لأنها سيئة الحظ ، فأى صلة بينى وبين موتها ؟ اسألك : من كان اهم : جدك ام زوجة اخيك ؟

فقالت السيدة وانغ تشد ازر السيدة تشن :

— طبعا السيد الكبير اهم . لم يظهر بين ابناء اسرة قاو خلف عاق قبل الآن .

فقال لها جيويه مين فى حدة :

— لم اكلمك انت !

ثم اضاف ردا على السيدة تشن :

— واى صلة بين ولادة زوجة اخى وبين جثمان جدى ؟ المجانين هم وحدهم الذين يصدقون خرافتكم ! تتكلمون دائما عن الاصول وقواعد السلوك ، اذن هاتوا كتبكم لنرى هل ذكرت فيها هذه الخرافة !

ثم التفت الى اخيه جيويه شين الذى ظل مطأطئ الرأس ، وشجعه قائلا :

— لماذا تبقى صامتا حتى الآن يا اخى ؟ ماتت زوجتك فى حالة محزنة ، ولكنهن يقلن انها كانت تستحق الموت . الا تتقدم وتقول كلمة دفاع عنها ؟

وبغتة ارتمى جيويه شين على الارض امام عمته وتوسل اليها باكيا :

– عاقبينى انا يا عمتى . لا لوم على اخى واختى ، انا وحدى الملوم . انى استحق الموت ! استحق الموت ! تعالوا جميعا ، واقتلونى !

فصاحت المدام تشانغ مذعورة ، وهى تحاول ان تنهض جيويه شين :

– جيويه شين ! جيويه شين ! تعالوا .! انهضوه !

اسرع اليه جيويه مين وشو هوا والجارية تسوى هوان . وانهضوه ، ثم امسكوه من ذراعيه ، وعادوا به الى غرفته . وما لبثت تشين ان خرجت فى اثرهم .

١٨ – اسعد الناس

خرجت الجارية تسوى هوان من الغرفة لتجلب ماء ساخنا لجيويه شين كى يغسل وجهه ، بينما بقى هذا الاخير جالسا فى كرسيه الدوار .

قالت له تشين فى رقة :

– لم تعذب نفسك يا اخى الاكبر ؟ ينبغى لك ان تهتم بصحتك .

فغمغم قائلا :

– الحال واضح امامكم ، فما معنى هذه الحياة بالنسبة لى ؟ اما اذا مت ، فانهم سيرتاحون جميعا .

فقالت شو هوا فى غيظ :

— اذا اساءوا اليك فعليك ان ترد على اساءتهم ، لماذا تفكر في الموت ؟

— اذا اسأتم اليهن ، فانهن سينفسن عن غضبهن بايذائي انا .

فقاطعه جيويه مين قائلا :

— لماذا اراك دائما ضعيفا متخوفا يا اخي ؟ لا شك انك قد لاحظت انه لم يعد لاسرتنا اى امل . لقد عرفنا كبار الاسرة على حقيقتهم ، لا هم لهم الا فعل السيئات ، لا نجد في سلوكهم ما يجعلهم قدوة لنا ، ويؤهلهم ليسألونا عما نفعل . اذا واجهتهم في قوة وصلابة لم يجرؤوا على ايذائك ، اما اذا وقفت امامهم في خضوع واستكانة تنمروا عليك ...

فقال جيويه شين في رجاء :

— لا ترفع صوتك يا اخي !

ثم اضاف متشبثا برأيه :

— انت لا تفهم احوال اسرتنا ، الامر ليس بالبساطة التي تتصورها .

عادت تسوى هوان بماء ساخن وغطست فيه فوطة ، ثم عصرتها وقدمتها الى جيويه شين ، فتناولها شاكرا ومسح بها وجهه . فعلت تسوى هوان ذلك مرة اخرى ، فشكرها جيويه شين كذلك . وعندها التفتت الجارية الى تشين ، وقالت مبتسمة :

— انظرى يا آنسة تشين ، السيد جيويه شين شديد اللطف مع امثالي ، فهو يشكر حتى على هذه الخدمة ...

وقبل ان تتم عبارتها دخلت الجارية تشى شيا التى تخدم السيدة تشو ، وقالت لجيويه شين :

– ارسلتنى سيدتى والمدام تشانغ لأطمئن عليكم . . .

– انا الآن فى حالة جيدة . قولى لسيدتك والمدام انى اشكرهما كثيرا .

وبعد صمت قصير سأل فى قلق :

– هل سمعت يا تشى شيا اى شئ من سيدتك ومن المدام ؟

– قالتا ان الحق على السيدة الرابعة والسيدة تشن ، وانهما تعمدتا اثارة المتاعب .

وابتسمت فى وجه شو هوا ، واضافت :

– ولكن المدام والسيدة الثالثة قالتا ان سيدتى شو هوا وسيدى جيويه مين سريعا الاهتياج . . .

وعندما سمعت تشين ذلك القت على جيويه مين نظرة سريعة ، فى حين تبادل هذا مع اخته شو هوا نظرة وابتسما فى تفاهم .

وبعد الغداء استمرت المدام تشانغ والسيدة تشو والسيدة الثالثة والسيدة الخامسة فى لعب الماجونغ . وتفرج جيويه شين على اللعبة بعض الوقت تأدبا ، ثم عاد الى غرفته ليستريح .

اما جيويه مين فقد ذهب الى غرفة شو هوا ، ودعا تشين الى نزهة فى حديقة الدار ، فخرجت معه ، وسارت مستندة اليه ، وقالت فى صوت خافت :

– كنت شديدة القلق عليك حين دعيت انت وشو هوا الى غرفة السيدة تشو . ولم اكن اتصور انك ستواجه الجماعة بذلك

الهدوء ورباطة الجأش . ولكنك لا تدرى كم كان قلبى شديد الخفقان .

– من حسن الحظ ان عمتى لم تساعد المرأتين ، والا لوقعت فى موقف حرج . . لأنى لا احب ان اجرح شعورك .

– مهما عاملتك امى فأنت الرجل الوحيد فى قلبى .

واجتازا باب البدر ودخلا الكهف . فسارا فيه وقد تلاصقا اكثر . وقال جيويه مين فى سرور :

– لولا انت يا تشين لما استطعت ان ابقى فى هذه المدينة ، واعيش فى هذا البيت ! اعرف ان الكثيرين فى هذا البيت يكرهوننى ، ويحقدون على ، وانا بالمثل احقد عليهم . . .

فقاطعته تشين ، وقالت فى رجاء :

– ارجو الا تذكر اليوم كلمة " الحقد " . لأن الحب اقوى من الحقد . انت خلقتنى خلقا جديدا وجعلت منى انسانة جديدة ، فلولاك لبقيت فتاة مسكينة كالاخت شو تشن او كالاخوات الاخريات ، ولولاك لما شاركت فى العمل الذى تقوم به اليوم .

وتوقفت عن الحديث . ثم تشجعت واعربت عن بعض مخاوفها قائلة :

– امى موافقة على امرنا ، ولكنها لا توافق على الغاء مراسم الزواج التقليدية ، لأن الطريقة الحديثة لا تعجبها ، اخاف . . .

فقال ، وقد بلغا نهاية الكهف وخرجا :

– افهم شعورك يا تشين . فلا تخافى . لا احد يقدر على

التفريق بيننا . وبشأن موضوعنا فقد تكلمت ماما مع اخى الاكبر منذ مدة ، وفكرا فى اتمام الزواج فى وقت مبكر ، ولكنهما يريان انه لا يجوز ابدا الاستغناء عن المراسم التقليدية . تصورى ماذا يقول الناس عنا اذا وضعت فى حفل الزفاف اكليلا فوق رأسك ، وشبكت انا زهرة ذهبية اللون فى قبعتى ، وتوشحت بحرير احمر ، وسجدنا للكبار ؟ اذا عملنا برئيهم وانحنينا خضوعا للتقاليد القديمة ، فبأى وجه نظهر ثانية امام اصدقائنا فى المجلة او نتحدث عن الاصلاح والتجديد ؟

ثم اجتازا غابة زهر الشتاء وهما صامتان . وتابعا السير حتى اذا ما اتيا شاطئ البحيرة ، واتجها صوب السقيفة المشيدة فى قلب البحيرة ، قطعت تشين حبل الصمت ، وقالت فى اسى :

– اذا كان الامر كما قلت ، يحسن بنا ان نسافر الى شانغهاى فى وقت مبكر ، جيويه هوى وشو ينغ ينتظراننا هناك .

وتهدج صوتها .

– سنسافر بالتأكيد . ولكن فى المجلة اليوم اعمال كثيرة تتطلب الانجاز . لنكن مستعدين ، سوف نغادر هذه المدينة فى يوم من الايام !

ثم اضاف فى لهجة حازمة :

– ثقى بى يا تشين ! هل نسيت ما حدث قبل سنوات ؟ لم يستطع حتى جدى ان يثنينى عن عزمى ، فما الذى نخافه منهم اليوم ؟ ما دمنا متمسكين بموقفنا ، فاننا سننتصر بالتأكيد ، ولن يستطيع اى عائق او اية قوة التفريق بيننا !

— نعم ، لن يستطيع اى عائق او اية قوة التفريق بيننا !

رددت تشين قوله ، وارتمت فى حضنه . انهما متفاهمان كل التفاهم ، متحابان اعظم الحب ، ويسعيان الى هدف مشترك ، انهما اسعد الناس فى هذا العالم المظلم .

١٩ — يسير فى طريقه الخاص

عقد فى مقر مجلة «من اجل الجماهير» اجتماع بمناسبة مرور عامين على انشاء المجلة ، تكلم فيه مسؤول المجلة عن عملهم فى العامين المنصرمين ، ثم تكلم آخرون ، معلنين امام الحاضرين ، بالاستناد الى وقائع لا سبيل الى انكارها : ان القضية التى ناضلنا معا فى سبيلها قد تقدمت وحققت نجاحا كبيرا .

وزع جيويه مين على الحضور وهو بادى الغبطة ، بعض الكتيبات وعددا خاصا من اعداد المجلة ، اصدروه بهذه المناسبة .

وارتجل بعض المدعوين كلمات تجيش قوة وحماسة . ثم انشد بعض الحاضرين نشيد المرسييز ، ثم نشيد الاممية فى صوت مؤثر احس معه جيويه مين بالدم يغلى فى عروقه . كان كل من النشيدين يهز القلوب ، ويحفز الى النضال والبذل والتضحية .

كان الليل قد انتصف حين عاد جيويه مين الى البيت ، وكان اخوه جيويه شين لا يزال فى انتظاره ، فسأله فى صوت خفيض :

— كنت فى اجتماع ؟

نظر جيويه مين الى اخيه مندهشا ، واجاب بصراحة :



秋
周報

ـ نعم . اقمنا اليوم حفلة بمناسبة مرور عامين على انشاء مجلة «من اجل الجماهير» .

فلم يقل اخوه شيئا ، وانما ظل ينظر اليه نظرة ملؤها الاسى والاكتئاب ، فتحير ، ولم يدر ما الذى يقلق اخاه . وبغتة تذكر موضوع الاخت هوى ، فسأل :

ـ هل دفن تابوت هوى ؟ ألم يتراجع تشنغ عن وعده هذه المرة ؟

فأجابه باقتضاب :

ـ دفنوه .

وسكت وعيناه لا تبرحان وجه جيويه مين . واخيرا قال فى تردد :

ـ لا يجوز لك يا اخى . . .

ازدادت دهشة جيويه مين ، وسأل فى حيرة :

ـ لا يجوز لى ؟ ما الذى لا يجوز لى ؟

فقال جيويه شين بادى القلق :

ـ اعمالكم تنطوى على خطر كبير . لا يجوز ان تخاطر بحياتك !

فقال جيويه مين فى صوت رقيق محاولا طمأنة اخيه :

ـ لم اعمل شيئا فيه خطر يا اخي الاكبر ، فلا تقلق على .

ـ تقول ليس وراء اعمالكم خطر ؟ الا تذكر ان امير الحرب وو بى فو قتل ألوف العمال قبل عدة اشهر فى حادث اضراب عمال سكة حديد بكين ـ هانكو ؟ وان كثيرا من الطلبة

اعتقلوا فى عدة مقاطعات ؟ ارجو الا تذهب الى المجلة بعد اليوم .

تأثر جيويه مين كثيرا حين وجد اخاه شديد القلق على سلامته ، فطمأنه قائلا :

ــ كل عملنا لا يعدو اصدار مجلة ، وليس فى هذا خطر .

كان صادق القول فى ذلك ، الا انه لم يقل كل الحقائق .

ــ ولكن السلطات اذا غضبت لا تتورع عن ارتكاب اية جريمة . ثم انكم تحملون فى مجلتكم دائما على اصحاب العقلية القديمة ، مسيئين بذلك الى كثير من الناس ، فأخشى ان يحدث لكم فى اى لحظة ما ليس فى الحسبان .

ثم اضاف حين لمح النظرة الثابتة فى عينى اخيه :

ــ لا اسأل عن افكارك وعقيدتك ، وانما اتوسل اليك ، اكراما لخاطر ابوينا ، الا تشارك منذ اليوم فى النشاطات الجماعية ، او تكتب مقالات .

اخوان يعيشان فى بيت واحد ، وتربط بينهما عاطفة حب عميق، ولكن احدهما غريب عن الآخر ، كأن بينهما حاجزا غير مرئى !

عض جيويه مين على شفته السفلى ، ولم يجب . وكان جيويه شين قد صمم مسبقا على اقناع اخيه ، لذا استطرد قائلا :

ــ انت وجيويه هوى شقيقاى الوحيدان . اوصانى ابى بكما قبل وفاته . لا شك ان اخى الثالث قد انضم الى حزب ثورى فى شانغهاى . فاذا حدث لك شىء ايضا ، فبأى وجه ألقى ابى تحت الثرى ؟ (ودمعت عيناه ، وتضرع الى اخيه قائلا) اسمع كلامى هذه المرة، هذه المرة فقط ! تعرف انى انما اقول لك هذا لمصلحتك .

كان قلب جيويه شين ينزف دما ، فاضطرب جيويه مين امام اخيه الباكى ، ووقع فى صراع نفسى عنيف ، ولكنه خرج منه ظافرا ، فهو اليوم غيره بالامس يوم كان جيويه هوى لايزال فى البيت . فأجاب وهو يضغط على الكلمات :

ـ اشكرك يا اخى على هذا الاهتمام ، ولكنى لا استطيع الاستجابة الى طلبك ، لا استطيع ذلك مطلقا ! انى اريد ان اسير فى طريقى الخاص !

٢٠ ـ مشكلة الاحياء

سادت الضجة والصخب بيت تشو بوه تاو . فقد تلاسنت زوجة مى مع السيدة الكبيرة ، فرقف تشو الى جانب زوجة ابنه ، واغلظ القول لوالدته ، فغضبت هذه واصرت على مغادرة البيت لتعيش راهبة فى دير بوذى . بينما استمرت زوجة مى فى البكاء والصراخ ، واصرت على العردة الى بيت ابيها .

وجاء الى اسرة قاو من يدعو السيدة تشو لفض النزاع واصلاح ذات البين ، ولكن السيدة كانت غائبة . فذهب جيويه شين ، ولكنه طلب من اخيه ان يرافقه ، فقبل هذا على مضض .

لاحظ الاخوان ان مى شديد النحول لا ينفك يسعل ، وكان وجهه الشاحب اقرب الى وجوه الموتى . كما لاحظا ان التجاعيد قد زادت فى وجه السيدة الكبيرة ، وان رأسها قد شاب تماما او كاد . لقد طرأت على هذه الاسرة تغيرات عظيمة منذ عادت الى

حاضرة المقاطعة منذ اقل من سنتين ، و"كادت اوصالها تتمزق" على حد تعبير السيدة الكبيرة .

اخذ مى يبث شكواه الى الاخوين . اما السيدة الكبيرة فكانت غاضبة على زوجة حفيدها ، لأنها لا تكف عن الخصام والصياح طول النهار ، وعلى حفيدها لوقوفه فى صف زوجته ، وهى غاضبة غضبا اشد على ابنها الذى يحابى زوجة مى ويتستر عليها .

فقال جيويه شين كلاما كثيرا للتسرية عن الجدة . ثم انتقل الحديث الى حالة مى الصحية . فقالت السيدة تشن زوجة الخال بأن مى قد اشتد به السعال فى الفترة الاخيرة ، ولكن اباه يزعم مع ذلك ان صحته قد تحسنت كثيرا عما كانت عليه قبل الزواج ، ويرغمه على كتابة موضوع انشاء مساء كل يوم . وكانت الجدة فى اثناء الحديث لا تفتأ تهز رأسها اسفا وتتنهد لعجزها ازاء ابنها .

وبوغت جيويه شين عندما عرف من مى انه يبصق دما منذ نصف شهر . وعندها تذكر قول هوى قبل الوفاة وهى توصيه بأخيها خيرا . فذهب الى خاله دون تردد ، وحاول ان يقنعه بضرورة استدعاء طبيب للعلاج . ولكن تشو بوه تاو اصر على القول بأن مى ليس به مرض ، فلا حاجة الى استدعاء طبيب . وابدى فى الحديث استياءه الشديد من الطب الغربى . واخيرا رفض اقتراح جيويه شين رفضا حاسما بحجة القول المأثور : "لا يعرف الابن مثل ابيه" .

لقد دفن تابوت هوى ، ولكن استجدت فى هذه الاسرة مشكلة جديدة تتعلق بالاحياء . مشكلة تبدو اكثر صعوبة من

مشكلة الاموات .

غادر الاخوان بيت خالهما . جيويه شين مثقل بالهموم ، واخوه يسير الى جانبه صامتا لا يتكلم . كان جيويه مين يعرف جيدا حقيقة المشكلة فى هذا البيت : تشو بوه تاو هو الحاكم المطلق فى هذه الاسرة ، وان كان الآخرون لا يرتاحون الى آرائه وقراراته ، وواضح ان الرجل يسوق ابنه مى اليوم الى طريق الفناء مثل ما ساق ابنته هوى من قبل .

٢١ – " آن لى ان اتنحى جانبا "

قصد جيويه شين وجيويه مين الى بيت عمتهما المدام تشانغ مباشرة عقب خروجهما من بيت خالهما تشو بوه تاو . فنزلا من محفتيهما ، ودخلا فناء الدار وهما يتحدثان . فقال جيويه شين فى صوت حزين :

– ضاعت جهودنا اليوم سدى . يظهر ان حياة الاخ مى ايضا قد كتب عليها الضياع .

وقال جيويه مين محنقا :

– ما رأيت ابدا مغفلا مثل خالى ! الحقيقة ان المرء يضيع وقته عبثا اذا ناقشه وحاول اقناعه بالحجج . لكن من المؤسف انه صاحب الكلمة الاخيرة فى اسرته .

دخلا القاعة وقدما لعمتهما التحية ، ثم سلما على تشين وجلسا .

فسألت المدام تشانغ ، وهى تأمر الخادمة بتقديم الشاى :

– هل عادت زوجة عمك الرابع كه آن والسيدة تشن الى اثارة المشاكل فى هذه الايام ؟

تردد جيويه شين قليلا فى الاجابة ، ثم ما لبث ان هز رأسه ، وقال :

– لا . ولكن زوجة عمى الرابع صارت تتجاهل امى اذا قابلتها .

– سمعت ان كه آن ينفق على ممثل الاوبرا بلا حساب ، اشترى له فى مرة واحدة ما تزيد قيمته على مئة يوان من الاقمشة . وضع البلد مضطرب ، وايجارات الاراضى التى نستطيع الحصول عليها تتناقص باستمرار . لا ادرى كيف ستكون معيشة هؤلاء الاخوة فى المستقبل . وتنهدت فى حسرة .

فقال جيويه شين :

– صدقت يا عمتى ، وانا ايضا قلق لهذا السبب . ايرادنا من الاراضى يتناقص سنة بعد اخرى ، فاذا استمر الحال على هذا النحو ، فسيصعب الحفاظ على وضع اسرتنا الحالى . ولكن المال يسيل من بين اصابع عمى الرابع وعمى الخامس مثل الماء ، كأنهما يعيشان فى جبل من الذهب والفضة . لقد استأجر عمى الرابع مؤخرا بيتا يعيش فيه مع ممثل الاوبرا تشانغ بى شيو .

راحت المدام تشانغ تهز رأسها فى اسى ، ثم قالت :

– اعتقد ان عمك الخامس له ايضا بيت مستأجر .

– نعم ، يعيش فيه مع بغى تدعى "يوم الاثنين" .

قالها جيويه مين فى برود ، لم يكن يقلقه حال الاسرة كما يقلق عمته واخاه ، اذ كان واثقا من ان هذه الاسرة الكبيرة مصيرها التفسخ والانهيار بكل تأكيد .

ثم انتقل الحديث الى الموضوع الذى يشغل بال المدام تشانغ ، موضوع زواج تشين من جيويه مين . وقالت بهذا الصدد انه لولا انهما يتحدثان امامها دائما عن آراء جديدة وطرق جديدة لزوجتهما من وقت طويل . ثم اضافت : ولكن العصر قد تغير ، فاذا عالجت هذا الموضوع بالعقلية القديمة ، فقد تتصرف تصرفا من شأنه ان يسبب الاذى لهما . وعندئذ وجهت حديثها الى جيويه شين قائلة :

— الشباب يفهمون ما يفكر فيه الشباب . والآن اكل اليك هذا الامر .

فقبل جيويه شين المهمة ، ووعدها وعدا صادقا .

نظرت تشين الى امها مبتسمة ، واثنت عليها قائلة :

— لم اكن اتصور ان ماما صاحبة فكر جديد ؟ المدهش ان ماما امرأة من طراز جديد !

— أنى لى ان اعرف الافكار الجديدة . انتما تملأان اذنى كل يوم بأفكار جديدة ، فأجدنى عاجزة عن فهم هذه الافكار وعن مسايرتكما . ولكنى وجدتكما شابين طيبين ، فى حين ارى اولئك الذين يكبرونكما سنا خائبين ، لا يفعلون الا ما يسرد وجوههم . لقد تقدمت بى السن ، وآن لى ان اتنحى جانبا . انتما شابان ، وامامكما ايام طويلة . وانا صاحبة عقلية قديمة

فلا يصح ان اقف حجر عثرة فى طريقكما .

احست تشين وجيويه مين بالدفء يسرى فى عروقهما وهما يسمعان قول السيدة الوالدة ، وزال آخر ما كان لديهما من مخاوف .

٢٢ ـ دخول المدرسة

شرب مى كثيرا فى بيت حميه ، وما ان ترك المائدة حتى قاء . ولم يكن ما قاءه الا دما . فعادت به زوجته الى البيت ، واسقط فى يد والده تشو بوه تاو ، فأرسل احد الخدم الى اسرة قاو لاستدعاء السيدة الكبيرة وزوجته اللتين كانتا فى زيارة للسيدة تشو .

ورجت السيدة الكبيرة من جيويه شين ان يذهب معها قائلة : " ارى ان خالك لا ينفع شيئا فى مثل هذه الحال . " فذهب معها .

وعندما عاد من اسرة تشو منهوك القوى حدث الاخوة والاخوات عن حال مى الصحية ، ثم قال :

ـ اعتقد انه لا رجاء فى شفائه . لن يعيش اكثر من شهر او شهرين . قال الطبيب انهم لو دعوه للعلاج قبل الآن ، فربما استطاع ان يفعل شيئا .

وحين عرفت شو هوا ذلك ، قالت فى حنق :

ـ الذنب ذنب خالى وحده . انه مصدر كثير من المشاكل .

وقال جيويه مين فى لهجة جادة :

ـ ليس ذنب خالنا وحده ، بل للموضوع علاقة بنظام

المجتمع ، والا لما استطاع خالى ان يمسك بحياة ابنه فى قبضته ويتصرف بها كما يهوى .

لم تفهم شو هوا قول اخيها كل الفهم ، فاستأنفت تقول :

— اذا لم يشف الاخ مى من مرضه ، فان اسرة تشو ستنتهى بانتهائه ، ولا ندرى ماذا سيفعل خالى يومذاك . انه شديد الغفلة رغم بلوغه هذا العمر !

فمنعها جيويه شين قائلا :

— لا تهذرى يا اختى ، اسرة تشو لن تنتهى ، زوجة مى حامل .

— زوجته حامل ؟ لا شك ان المولود المقبل سيكون مسكينا سواء أ كان ذكرا ام انثى . لأن خالى سيعامله معاملته لابنته هوى وابنه مى .

ورأى جيويه شين ان شو هوا تجاوزت الحد فى قولها فخاطبها متعمدا اغاظتها :

— افهم من لهجتك انه لن يستريح لك بال الا اذا اسقطت خالك .

فضحكت شو هوا ضحكة شبه مكبوتة ، وسكتت .

وساد الصمت لحظة ، ثم عادت شو هوا الى الحديث ، وذكرت لجيويه شين انها ترغب فى دخول احدى المدارس من النصف الثانى من هذا العام ، فلم يستطع ان يعدها بشىء ، وانما قال :

— من المؤكد ان عمى الثالث لا يوافق ، فهو رب الاسرة .

— رب الاسرة ؟ ! لقد وقعت فى هذه الاسرة امور غريبة ، فهل استطاع ان يضع حدا لأى امر من تلك الامور ؟ انه عاجز امام السيئات ، ويريد ان يتدخل فى الامور الحسنة ! اذا كنت تخافه ، فأنا لا ابالى به . لا بد ان ادخل مدرسة لأتعلم . واذا رفضت ، فان اخى جيويه مين سيساعدنى !

فسارع جيويه شين يوضح لها الامر قائلا :

— لا داعى لأن تغضبى يا اختى . لم اقل انى لا اوافق على دخولك المدرسة ، ولكن ينبغى لنا ان نتشاور فى الامر فى تؤدة . . .

وقبل ان يكمل حديثه ازيحت ستارة الباب ، ودخلت السيدة تشو . وحين وقع نظرها على جيويه شين ، سألته فى لهفة عن صحة مى . ولما عرفت سوء حاله طفقت تشكو من اخيها الذى جلب على ابنه هذه البلية بعناده وحماقته .

ثم انتقلوا بالحديث الى موضوعات اخرى . فانتهزت شو هوا فرصة رأت فيها زوجة ابيها فى حالة نفسية ملائمة ، فرجت منها ان تسمح لها بدخول المدرسة . فعبست ولم تقل شيئا . فأسرعت تشين وجيويه مين بمد يد المساعدة الى شو هوا ، واشادا امام السيدة تشو بفكرة الدراسة فى المدارس . ومرت لحظات قبل ان تقول السيدة فى لطف :

— لا حاجة الى ان تقولوا اكثر . الحقيقة انى لا ارى فى دخول المدارس شيئا غير جيد . فقد دخلت تشين المدرسة ، وصارت اعقل من غيرها (ونظرت الى تشين مبتسمة) . ولكن لم تدخل

المدرسة اية بنت من بنات اسرة قاو قبل الآن . حتى ان كبار هذه الاسرة لم يكونوا مرتاحين ايام كانت بنات الاسرة يدرسن فى الدار على ايدى المدرسين الخصوصيين .

ثم التفتت الى شو هوا واضافت فى لهجة صادقة :

ـ عمك الثالث رجل مستقيم سليم الطوية برغم انه عنيد . ولكن عميك الرابع والخامس وزوجتيهما من طباعهم الغيبة والاكثار من القيل والقال .

وكان جيويه مين يقدر تماما ظروف السيدة تشر ، فقال لها :

ـ نعرف ايضا صعوبة ظروفك يا ماما . ولكنى ارى انهم لا يقدرون على اثارة اية مشكلة فى وجوهنا . ليسوا موضع احترامنا بسلوكهم المعوج ، وليس لهم الحق فى التدخل فى شؤوننا . . .

وقطعت حديثه صيحات وشتائم من الجناح المقابل ، اعقبها صوت اناء خزفى يتكسر وكراسى تسقط على الارض .

فهمت شو هوا ان عمها الخامس كه دينغ وزوجته قد عادا يتشاجران ، فقالت مغتاظة :

ـ شجارهما لا يهمنا كثيرا ، ولكن اختى شو تشن ستتعرض للظلم لهذا السبب ، فان زوجة عمى اذا انهزمت بعد قليل فستصب نار غضبها على ابنتها . اظن انها لن ترتاح الا اذا عذبت شو تشن حتى الموت !

فقال جيويه شين فى ألم ، وكأنه يخاطب نفسه :

ـ سأذهب واحضر عمى الثالث !

ثم نهض واقفا ، الا ان السيدة تشو اوقفته قائلة :

– لا تذهب ! عمك الثالث لا يستطيع ان يفعل شيئا . لو كان مسموع الكلمة لديهما لما عادا الى الشجار . فاذا احضرته الآن فسيرى ويسمع ما يغيظه لا اكثر ، فضلا عن ان حالته الصحية ليست على ما يرام فى الفترة الاخيرة .

وحين وجدت السيدة ان شو هوا وجيويه مين وتشين يتطلعون اليها فى اعجاب وتقدير ، قالت فى نفسها : ان هذا العصر لهؤلاء الشباب ، هم وحدهم يستطيعون ان يمنحوها شيئا من العزاء والدفء . وعندما مر بخاطرها ذلك ، قالت لشو هوا فى سرور :

– انى موافقة على ان تدخلى المدارس يا بنيتى ، دعوهم يقولوا ما يشاءون ، فلن نبالى بهم ، عليك ان تجتهدى فى الدراسة ، وتبيضى وجهى . وعليكم جميعا ان تكونوا موضع افتخارى .

اضاء حديث السيدة قلوب هؤلاء الشباب . وكادت شو هوا ان تقفز من شدة الفرح ، وقالت :

– ماما ، انت طيبة جدا .

فى حين ابتسم جيويه شين مغرورق العينين من شدة التأثر .

كانوا فى غاية السرور بحيث لم ينتبهوا الى وقع اقدام مألوف امام الغرفة ، ولا الى صوت الجارية تشون لان وهى تنادى سيدتها الصغيرة شو تشن .

ثم ارتفعت نداءات الجارية مرة اخرى ، فانتبهوا الى ان شيئا غير عادى قد حدث ، فاندفع الشباب من الغرفة ، ولكن بعد فوات الأوان ، اذا سمعوا صوت الجارية الباكى وهى تقول :

ــ سيدتى الصغيرة شو تشن . . . قذفت بنفسها فى البئر . . . قذفت بنفسها فى البئر !

بهت الجميع . وكان جيويه مين اول من اندفع نحو الحديقة فى الظلام الحالك .

٢٣ ــ السماء لا تجيب

انتشلت جثة شو تشن ، فحملها الاخوان جيويه شين وجيويه مين ، ونزلا الدرج الحجرى المحيط بالبئر .

كانت شو هوا تصرخ منادية : اختى شو تشن . . اختى شو تشن ، والدموع تسيل على وجهها .

كانت تشين تنتحب واضعة وجهها بين يديها .

اندفعت السيدة شن نحو الجثة ، وهى تصرخ وتعول ، وامسكت بيد ابنتها الباردة ورفعتها الى وجهها وجعلت تمررها عليه . ثم انقضت على الجثة التى تقطر ماء واحتضنتها بقوة .

وجاء كه مينغ يحمل فى يده النارجيلة ، ومعه زوجته الحامل . فوقف صامتا متجهم الوجه ، لقد كان الحادث صدمة قوية له .

اخذت السيدة تشو والسيدة تشانغ واخريات يحاولن تهدئة خاطر السيدة شن ، وهن يجففن دموعهن . واستطعن بعد جهد جهيد ان يجذبنها بعيدا عن الجثة . وحاولت المرأة ان تتملص من قبضتهن ، وهى تصرخ وتولول وتشد شعر رأسها فى شبه جنون ، وقد بح صوتها من البكاء .

كان جيويه شين يحمل جثة الفتاة من جزئها العلوى ، وهو متبلد الشعور ، ودموعه لا تفتأ تتساقط على وجه شو تشن البارد .
وكان جيويه مين يحملها من رجليها وهو يعض على شفته السفلى متجلدا ليمنع نفسه من البكاء . لقد وعدها بالمساعدة ، وكانت تنتظر منه المساعدة ، ولكنه خيب ظنها فيه . ولم يعد بوسعه تدارك ما فات ، فحقد على نفسه ، وعضه الندم ، واحس بالألم ينهش قلبه .

خرج الاخوان من الحديقة حاملين جثة الفتاة ، واجتازا الممر ، ونزلا الدرج الى فناء الدار . وقد حاول الخدم مرارا ان يحلوا محلهما فى حمل الجثمان ، فكان كل منهما يهز رأسه بالنفى دون ان ينبس بكلمة . لقد ابيا ان يتخليا عن هذا العمل ، وهو آخر ما يستطيعان القيام به نحو اختهما الصغيرة التى لم تعش الا خمسة عشر عاما . سارا صامتين ، وقد ازداد الجثمان ثقلا . . .

دخلا مخدع الفتاة ، ومددا جثمانها فوق السرير . ثم غطى جيويه مين جسمها بلحاف خفيف ، فى حين اخرج جيويه شين منديله ، ومسح بخفة بقع الدم عند زاوية فمها .

ارتمت الام على جثمان ابنتها ، وانفجرت تبكى بكاء يفتت الاكباد . فجذب جيويه مين اخاه من كمه ، وقال فى صوت هامس : هيا بنا .

...

وضع جثمان شو تشن داخل تابوت صغير ، ونقل فى موكب صامت الى دير قديم خارج المدينة ، دير ليس غريبا على جيويه

شين وتشين وشو هوا ، فقد اردع تابرت الاخت مى فى هذا المكان قبل ان يوارى التراب .

قال جيويه شين لأخيه :

– انى اعيش فى هذه اللحظة ما عشته قبل عامين ، كأنى فى حلم .

فسأله اخوه فى اشفاق وفى صوت خافت :

– تذكرت الاخت مى ، أليس كذلك ؟

اومأ برأسه ايجابا ، وقال :

– زرت قبرها اول امس بمناسبة مرور عامين على وفاتها . رأيت المقبرة موحشة لا يعتنى بها احد . والقبر تكسوه الاعشاب البرية النامية .

وزفر فى حسرة وألم . ثم رفع بصره بغتة ، وقال فى اسى كأنه يخاطب السماء :

– لا افهم لم يأبى القدر فى كل مرة الا ان ينتزع الحياة من احدى الفتيات ؟ لم يكون الشباب ضحية البغى والظلم دائما ؟

كان صوته يتردد فى الفضاء ، والسماء لا تجيب . فقال جيويه مين :

– ان نظام المجتمع هو السبب !

ثم اضاف محذرا حين وجد اخاه صامتا :

– لا حول لنا ازاء من ماتوا . ولكن من واجبنا ان نفعل شيئا لانقاذ من لا يزالون احياء . لو تدبرنا امر شو تشن وبذلنا بعض المحاولات ربما استطعنا تجنيبها هذه النهاية المحزنة .

بقى جيويه شين صامتا يحملق فى اخيه فى حين اخذ عويل السيدة شن يشتد ويرتفع ، فازداد ألم جيويه شين ، واخيرا قال :

– امر زوجة عمى عجيب ، حزنت حزنا شديدا على ابنتها ، ولكنها لو عاملتها معاملة اقل قسوة . . .

– هكذا الانسان على ما اعتقد ، لا يفيق الا بعد فوات الاوان ، وبعد ان يكون قد ذاق الامرين .

٢٤– بيع دار الاسرة

اشارت السيدة وانغ فى بعض احاديثها الى ان كه آن واخاه كه دينغ ينويان بيع دار الاسرة ، وانهما قد تشاوروا فى الامر .

اغتمت السيدة شن كثيرا حين سمعت النبأ ، لأنها حين فكرت فى انها سوف تنتقل مع كه دينغ من هذه الدار لتقيم مع خليلته المدعوة "يوم الاثنين" انتابها خوف شديد . اما السيدة وانغ والسيدة تشن فقد اشرقت وجوههما بهجة وسرورا ، وعللتا ذلك بقولهما : "سنحصل على حصة من ثمن الدار تساعد على تحسين معيشتنا ."

وعارض كه مينغ ذلك معارضة شديدة . وحجته فى ذلك : "سيسوء والدنا المرحوم ان تتفرق اسرته على هذا النحو ، وقد كتب فى وصيته بعبارة صريحة انه لا يجوز بيع هذه الدار مهما حدث ." وقال لأخويه : "لا يمكنكم ان تبيعوا هذه الدار الا اذا مت !"

ويرى جيويه شين ان هذه الدار الكبيرة هى ثمرة جهود الجد الراحل مدى حياته ، فاذا بيعت الدار ، فتلك اساءة كبيرة الى الفقيد المحترم .

اما جيويه مين فكان يرى بوضوح ان عميه الرابع والخامس انما يبتغيان من بيع الدار الحصول على شيء من المال ، ولن تقلقهما مسألة السكن بعد ذلك اذ ان لكل منهما بيتا آخر فى المدينة .

وكان موقف شو هوا واضحا ، فهى لا تبالى اذا بيعت الدار ، بل ترى ان الانتقال الى مكان آخر قد يمكنهم من ان يعيشوا فى جو هادئ . وعبرت تشين عن موافقتها على رأى شو هوا ، وقالت انه لا ضير فى بيع هذه الدار ، كان ينبغى لنا من وقت بعيد ان ننتقل الى مكان اوسع ، نعم الى مكان اجمل واوسع من الحديقة ومن بيت الاسرة .

لقد صارت دار اسرة قاو اكثر هدوءا فى الآونة الاخيرة .

لزم كه آن بيته الآخر ، مدعيا انه مريض ، ليعيش فيه حياة استهتار وتهتك مع المدعو تشانغ بى شيو ممثل الاوبرا الشاب . ويقول خدمه انه يدخن الافيون طول اليوم وفى خدمته تشانغ ، وقد ساءت صحته ، وصلر شديد الهزال .

اما كه دينغ فقد لجأ الى بيته الآخر ليعيش مع " يوم الاثنين " منذ تشاجر مع زوجته آخر مرة ، فلم يعر انتحار ابنته اى اهتمام ، كأن قلبه من حجر .

ولم تعد السيدة شن تجد اليوم من تتشاجر معه ، ولا من تشتمه او تضربه ، وصارت تتحرك مثل الشبح بوجه مصفر وشفتين

ذاويتين . وذات مرة قالت لجيويه شين انها كلما اغمضت عينيها رأت شو تشن امامها تبكى ، وانها صارت لا تطيق الحياة فى هذه الدار ، ولذا فكرت فى ان تعيش فى بيت اخيها الثانى فترة من الزمن .

حظيت السيدة شن بالعطف الصادق من جيويه شين واخوته ، ولكن احدا منهم لا يقدر على مد يد المعونة اليها ، وكل ما يستطيعون ان يفعلوه لها لا يعدو كلمات تعزية لا تجدى نفعا .

ومرض كه مينغ اخيرا . وذهب جيويه شين للاطمئنان عليه ، فرآه جالسا على اريكة تعلو وجهه صفرة مخيفة . واستفسر عن صحته ، ثم جلس . فتحدث اليه كه مينغ كثيرا وهو يسعل ويلهث من حين لآخر . بدأ حديثه باستنكار شديد لفكرة بيع الدار . ثم تحدث عن سلوك اخويه الشائن ، وهو لا يفتأ يهز رأسه فى حسرة ويتنهد . ثم سأل عن موضوع دراسة شو هوا فى المدرسة . وقال : " ان دخول البنات المدارس شىء غير لائق برغم كل شىء . الحقيقة ان البنات لسن فى حاجة الى ان يقرأن كثيرا ، بل يكفى ان يعرفن شيئا من آداب السلوك . "

حاول جيويه شين ان يقنعه فى اول الامر ، ولكن حين ذكر له كه مينغ ان كه آن رجا منه ان يأمر شو هوا بالكف عن الدراسة ، لم يجد بدا من المقاومة ، فقال : " هذا من رأى ماما " ، حزت هذه العبارة فى قلب كه مينغ ، الا انه عاد فتساءل فى نفسه : لم اصر الآن على التدخل فى موضوع دراسة شو هوا فى المدرسة ، بعد ان وجدتنى عاجزا ازاء استهتار اخوى وفرار ابنتى شو ينغ الى

شانغهای ، كما لم استطع الحيلولة دون انتحار شو تشن ؟ لذا قال لجيويه شين فى اعياء ، وقد آثر عدم التمساك بموقفه :

ــ اذن نترك هذا الموضوع ما دامت امك قد وافقت .

وكان هناك امر آخر يقلق كه مينغ ، هو ما ذكر له كه آن : ان جيويه مين يصدر مع بعض اصدقائه مجلة ، ويكتب مقالات يعبر فيها عن آراء متطرفة ، وقد اساءوا الى كثير من الناس . وفى رأى كه مينغ ان ابن اخيه هذا شاب قويم الخلق ، الا انه شديد المراس مصاب بغرور الشباب . فاذا تابع السير فى هذا الطريق ، فقد يجلب على نفسه المصائب . لهذا طلب من جيويه شين ان يقدم اليه صادق النصيحة .

كان جيويه شين يجيب عمه بكلمة " نعم " بين الفينة والفينة ، وهو يصغى اليه فى خشوع . وكان يوافق على نظرته بشأن جيويه مين ، الا انه كان يخشى من مناقشة اخيه ، فلطالما منى بالهزيمة فى مناقشته .

بقى جيويه شين فى غرفة عمه بعض الوقت ، ثم استأذن بالانصراف . وحين مر امام غرفة شو هوا سمعها تقرأ فى صوت رنان واضح النبرات ، صوت مفعم بالأمل ، مما ادخل على نفسه السرور والانشراح .

ولكن ما ان دخل غرفة السيدة تشو حتى بادرته قائلة فى صوت مذعور :

ــ اسرع ، جاء احدهم من لدن جدتك قبل قليل يقول ان اخاك مى فى حالة خطرة . اذهب معى اليهم فى الحال !

٢٥ ـ المصائب لا تأتي فرادى

مات مى ، وارتفعت اصوات البكاء فى دار تشو ، فالجميع كانوا يبكون : السيدة الكبيرة ، والسيدة تشن والدة مى ، وحتى والده تشو بوه تاو . وكانت زوجة مى اكثرهم حزنا ، فقد ركعت امام السرير ، وامسكت احدى يدى الميت التى قد سرت فيها البرودة ، وطفقت تبكى فى صوت لاهث منقطع .

وقف جيويه شين فى الغرفة حزينا دامع العينين .

واخيرا هدأت النفوس قليلا ، فكفوا عن البكاء ، الا الزوجة الشابة . وعاد تشو بوه تاو الى غرفة مكتبه ، بينما بقيت السيدة تشن والسيدة الكبيرة والسيدة تشو يتشاورن فى ترتيبات الجنازة . وخرج جيويه شين لشراء التابوت .

عاد جيويه شين الى اسرة تشو بعد ان اشترى تابوتا . ولكنه ما ان نزل من محفته حتى اقبل عليه خادم من خدم اسرته ، وبادره قائلا :

ـ شب حريق فى السوق التجارية يا سيدى . حريق كبير !

وقع عليه النبأ وقوع الصاعقة فتسمر مكانه مبهوتا . ثم رفع بصره ونظر ناحية السوق فرأى صفحة السماء مضاءة بحمرة النار . فقال فى سره : انتهى ! التفت الى حاملى المحفة واوصاهما بالانتظار ، ثم هرول الى الداخل بادى الانزعاج والاضطراب ، واستأذن السيدة الكبيرة وغيرها ، ولم تمض دقيقة واحدة حتى ركب محفته ثانية ، واندفع صوب السوق التجارية التى يقع فيها مكتبه .



لم يستطع دخول السوق لشدة الحريق ، فوقف وسط المتفرجين وهو على احر من الجمر . واتفق ان لقى اخاه جيويه مين ، فقال له هذا فى قلق :

— جئت منذ ساعة واكثر لأرى ماذا حدث لمقر مجلتنا ، ولكنى لم استطع الدخول . هل تركت فى مكتبك اشياء هامة ؟ دفاتر الحساب مثلا ؟

فأجابه جيويه شين مقطب الجبين :

— لا شيء ، لأن من عادتى ان احمل اشيائى معى . ولكنى تركت فى الدرج المقفل اسهما لعمى الرابع قيمتها الف يوان ، ووديعة مالية لزوجته ، واخرى للسيدة تشن . . .

— تحب دائما ان تزعج نفسك بشؤون هؤلاء التى لا تهمك فى قليل او كثير !

قالها جيويه مين معاتبا . ولكنه حين رأى سحنة اخيه المهمومة الحزينة ، عاد فطمأنه قائلا :

— ولكن لم الخوف ؟ ليس الذنب ذنبك . أيعقل فى هذه الحال ان يطالبوك بما خسروا ؟

هنا لمح جيويه مين بين جموع الناس صديقه تشانغ هوى رو الذى يعمل معه فى المجلة ، فأسرع اليه بادى الغبطة ، فأخبره صديقه بأن جميع الحاجات نقلت من مقر المجلة فى حالة جيدة ، لأن بعض رفاقهم كان فيه حين شب الحريق . فاطمأن جيويه مين حين عرف ذلك ، والتفت الى جيويه شين ، فوجده لايزال واقفا مكانه ، فتقدم اليه ونصحه قائلا :

— ارى انك متعب يا اخى الاكبر ، ارجو ان تعود الى البيت ، لأنك لا تستطيع دخول السوق فى اى حال من الاحوال .

ثم اضاف :

— اذهب اولا . سأعود الى البيت بعد قليل .

واخذ بيد تشانغ وانصرفا معا .

وقف جيويه شين يحملق فى ظهر اخيه شارد الفكر الى ان اختفى بين الجموع المحتشدة .

عاد جيويه شين اخيرا الى البيت ، فوجد شو هوا وتسوى هوان تنتظرانه فى غرفته . وقبل ان يستقر فى الجلوس ويمسح وجهه بفوطة مبللة اقبلت السيدة وانغ والسيدة تشن . وما ان دخلتا حتى بسطتا يديهما تطالبانه بالمال زاعمتين بأنهما اتفقتا معه على ان يسحب لهما اليوم ودائعهما ، فلم ير بدا من ان يعدهما بأن يدفع لهما تعويضا من ماله .

وحين انصرفت المرأتان قال فى اسى :

— تعالوا اضغطوا على جميعا ! متى دفعتمونى الى الانتحار ، فرحتم !

— لا تقل هذا يا سيدى !

قالتها تسوى هوان والدموع تملأ عينيها .

وقالت شو هوا وهى تصر على اسنانها :

— يا لهما من عجوزين شمطاوين ! كم اتمنى ان اصفعهما ! ولكنك رجل طيب جدا ، ما الذى يلزمك بأن تدفع لهما تعويضا من مالك ؟ من الواضح انهما حين رأتا السوق التجارية قد التهمتها

النيران لجأتا الى هذه الحيلة المخزية معك . ولكنك انخدعت بهما راضيا !

– ولكن ما حيلتي يا اختي ؟ نقودهما اودعت بيدى .

فردت عليه مغضبة :

– لست معك ابدا فى طريقتك هذه . منذ سنين وانت تقدم التنازلات فى اثر التنازلات ، فما كسبته من هذه التنازلات ؟ اخواى جيويه مين وجيويه هوى على حق حين قالا انك بمبدأ المسالمة والاحتمال انما تجنى على نفسك وعلى من تحب !

لم يشأ جيويه شين ان يدافع عن تصرفاته ، فقد كان شديد الاعياء ، وقد دقت الصنوج فى فناء الدار ايذانا بانتصاف الليل .

٢٦ – لا يجوز لك هذا

ذهب جيويه شين الى السرق التجارية صباح اليوم التالى ، فرأى بين الانقاض اناسا يتفرجون . اما البناء الذى يقع فيه مكتبه فلم يعد له اثر .

ثم قصد مصرفا بلديا ، واقترض مبلغا من المال ليدفع منه تعويضا للمرأتين . ومن ثم توجه الى اسرة تشو على عجل .

وجد تابوت الميت موضوعا فى غرفة الاستقبال ، وارملة مى بملابس الحداد راكعة امام التابوت تبكى فى حرقة . وكانت امه منتفخة العينين تتحدث مع زوجها والسيدة تشو للتشاور فى امر اقامة المأتم . ولما وقع نظر تشو بوه تاو على جيويه شين امسك

يلده ، ورجا منه المساعدة .

فأجابه الى طلبه بلا تردد على الرغم من انه كان فى اشد حالات التعب والاعياء .

خرج جيويه شين فى محفته على الفور ليستأجر مكانا يتخذون منه قاعة مأتم . ولما انجز مهمته ، عاد وابلغ السيدة الكبيرة تشو بالنتيجة . وكان فى نية خاله ان يكلفه بعمل آخر ، الا ان جيويه مين الذى كان يقف بجوارهما قال لأخيه فجأة :

— ماذا باك يا اخى الاكبر ؟ وجهاك شديد الشحوب .

فأجاب جيويه شين فى صوت واهن :

— اشعر بدوار . اخشى ان اسقط مريضا .

فخجل تشو بوه تاو من ان يزعجه مرة اخرى ، فى حين حثته السيدة الكبيرة وزوجة خاله على العودة الى البيت للراحة ، واوصت السيدة تشو اخاه جيويه مين بمرافقته .

عاد الاخوان الى البيت ، فوجدا البهو ساكنا كأنهما فى معبد مهجور .

وعاتب جيويه مين اخاه فى صوت رفيق :

— تأبى الا ان تتعب نفسك بهذه الامور التافهة وانت ضعيف الصحة !

لم يهتم جيويه شين بالرد على اخيه ، وانما قال :

— تغير كل شيء ! لا ادرى كم من الوقت يمكننا ان نعيش فى هذه الدار ايضا . اعتقد ان اسرة قاو قد انتهت ، ارى كل يوم نذير شؤم جديدا .

قالها فى اسى وكأنه نائم يهذى .

فرد عليه جيويه مين ، وكأنه يتعمد اغاظته :

ــ كيف لا تنتهى الاسرة ، وابناؤها ينفقون بلا حساب !

ما ان دخل جيويه شين غرفته حتى تهالك على الكرسى الدوار ، ثم اطلق زفرة طويلة وقال :

ــ من حسن الحظ انك سارعت الى نجدتى . كنت فى حالة اعياء شديد .

ثم اغمض عينيه للراحة .

تأمل جيويه مين فى اخيه . فاكتشف لعظم دهشته ان علائم الشيخوخة المبكرة قد زحفت الى وجهه اذ رأى التجاعيد قد ظهرت فى جبينه ووجنتيه وتحت جفنه . فتساءل : ما الذى جعله يذوى فى هذه السن ؟ وفجأة رأى فى هذا الوجه ظلا لوجه مى ، فصرخ فى صوت حزين : " اخى ! " وتوسل اليه قائلا :

ــ لا يجوز لك ان تستمر فى مثل هذه الحياة ، انك تقتل نفسك شيئا فشيئا .

فقال جيويه شين فى تراخ :

ــ هكذا عشت كل هذه السنين .

ــ والنتيجة انك تضحى بنفسك عبثا لا اكثر .

وظل جيويه شين على هدوئه وهو يقول :

ــ لا تهمنى نفسى ما دمت استطيع نفع الآخرين .

ــ فكر يا اخى الاكبر وقل لى اى نفع جلبت للآخرين ؟ مثلا زوجتك ، الاخت مى ، الاخت هوى ، الاخت شو تشن ،

الاخ مى ...

فقاطعه جيويه شين باشارة من يده ، وقال فى ضراعة :

— ارجو الا تتكلم اكثر من ذلك !

ندم جيويه مين على تسرعه حين وجد ان كلامه قد آلم اخاه كثيرا . فقال فى رقة :

— يحسن بك يا اخى ان تذهب الى الفراش لتنام قليلا . لن ازعجك مرة اخرى .

ولكن ما ان نهض جيويه شين من مجلسه لينام فى الغرفة الداخلية ، حتى دخل خادم عمه كه آن ، وقال ان سيده ارسله لأخذ اسهم بقيمة ألف يوان ، فأسرع يقول قبل ان يفتح جيويه مين فمه :

— بلغ عمى تحياتى ، وسأرسل اليه الاسهم غدا بنفسى .

انسحب الخادم من الغرفة فى ادب جم بعد ان حصل على جواب مرض . اما جيويه مين فكاد يتميز من الغيظ ، ولم يتمالك ان عاتب اخاه فى صوت مرتفع :

— لا يصح ان تفرط فى حسن المعاملة بلا تمييز . من الواضح ان الاسهم ذهبت فى الحريق ، فماذا تعطيه اذن ؟

— عندى الاسهم التى حصلت عليها من تركة جدى ، وهى بقيمة ثلاثة آلاف يوان . سأدفع له من هذه الاسهم .

فقال جيويه مين فى حنق اشد :

— تعوض اليوم عن خسارة هذا ، وغدا تعوض عن خسارة ذاك . لا ادرى كم تملك من الثروة حتى تدفع منها على هذا الشكل !

فقال جيويه شين بادى الاعياء :

– متى دفعت كل ما عندى انتهيت انا الآخر !

٢٧ – هذه الاسرة قد انتهت

فى يوم المأتم خرج جيويه شين فى الصباح الباكر لتقديم المساعدة اللازمة لأسرة تشو .

فقضى ذلك اليوم بين المشاهد المحزنة واصوات البكاء والعويل .

وحين رأى ارملة مى فى حزنها الشديد تذكر قول جيويه مين : " جنيت على نفسك وعلى الآخرين ! " نعم ، لقد ساعد فى اتمام زواج مى من هذه المرأة . وقد ادرك الآن انه كان مخطئا فى ذلك .

وعاد الى بيته مع الاصيل . وما ان دخل البهو حتى سمع من بعض الخدم ان عمه كه مينغ قد عاوده المرض ، وذلك ان كه آن وكه دينغ قد حضرا الى اخيهما قبل ساعتين ، وجادلاه جدالا عنيفا . ولما انصرف الاخوان بصق كه مينغ دما اسود كثيرا ، ثم اغمى عليه .

وقال الطبيب لجيويه شين ان عمه كان قد تماثل للشفاء ، فلا يدرى لم اشتد به المرض اليوم فجأة .

كان كه مينغ نائما حين ذهب اليه جيويه شين . ولما استيقظ دعا ابن اخيه الى جوار سريره . وعندئذ سرت فى جسم جيويه شين قشعريرة اذا رأى فى عمه بهذه اللحظة صورة ابيه وجده فى ساعتهما الاخيرة .

— اكبر ظنى يا جيويه شين ان لا امل لى فى الشفاء . فاذا مت انتهت اسرتنا فى الحال . تشاجر معى عمك الرابع وعمك الخامس قبل قليل من اجل بيع هذه الدار ، فلم اوافق . ولكن متى مت لا يسعكم الا ان تتركرهما يفعلان ما يشاءان . زوجتى امرأة طيبة وهى على وشك الولادة . وانا اخشى اذا مت ان يعودوا الى الحكاية القديمة فيحتالوا عليها بحجة الحرص على سلامة جثمانى لتلد فى مكان بعيد بالضواحى . هذا اشد ما يقلقنى . انت طيب القلب سليم الطوية . اوصيك الآن بزوجتى وبأولادى ، ارجو ان تعامل عمتك كأنها امك ، وسأكون شاكرا لك حتى فى مثواى الاخير . . .

قال كه مينغ ذلك فى جهد ، فانفجرت زوجته باكية . فقال جيويه شين بصوت خنقته العبرات :

— سأعمل برأى عمى بالتأكيد . ارجو ان تهتم بصحتك . اسرتنا لا تستغنى عنك . لا يمكنك ان تتركنا . . .

اومأ كه مينغ برأسه فى رضا من وعد جيويه شين . وانتابته نوبة سعال فى هذه اللحظة ، ثم اخذ يلهث . وحين استرد انفاسه دعا اليه الجارية تسوى هوان ، وامرها بأن تسجد لابن اخيه ، ففهمت قصد سيدها اذ ان سيدتها كلمتها فى الموضوع قبلا ، ففعلت كما امرها كه مينغ . اما جيويه شين ، فلم يفكر فى ذلك من قبل . ثم وجه حديثه الى جيويه شين وقال :

— اذا رزقت منها بولد او بنت ، فان والدك الراحل سيجد من يحرق له البخور بعدك . ان امل اسرتنا كلها معلق بك وحدك . . .

وتساقطت الدموع من عينى كه مينغ ، وهو يفوه بالعبارة الاخيرة . ولم تتمالك تسوى هوان ان شاركت جيويه شين فى البكاء .

على هذا النحو رتب لجيويه شين كل شيء ، بيد عمه كه مينغ ، وهو فى حالة لا يملك معها الا الطاعة .

لم يعد جيويه شين الى غرفته الا بعد ان نام عمه . وكانت السيدة شن فى انتظاره . فقالت انها قررت السفر ، لأن زوجها قال لها منذ لحظة انه متى مات السيد الثالث باعوا هذه الدار مباشرة . وانه سيسكن "يوم الاثنين" معها فى بيت واحد بعد ذلك . وقالت انها تخاف خوفا شديدا من ذلك اليوم ، لهذا قررت ان تبكر فى الرحيل . وقالت ايضا انه قد مضى اكثر من شهر على موت شو تشن ، ولكن صورتها تتخايل دائما امام عينيها .

بقى جيويه شين مطرق الرأس يستمع الى حديثها الذى طالما سمعه منها فى هذه الايام . ثم استغرق فى التفكير عقب انصراف المرأة ، وساد الغرفة سكون شامل الا من تكتكات ساعة الحائط التى اخذت تشتد وتتعالى . ثم افاق بغتة على وقع اقدام مضطربة ، فاذا بالجارية تسوى هوان ظهرت عند الباب بادية الذعر لاهثة الانفاس ، بادرته فى صوت مرتعش :

ـ اسرع يا سيدى ! ساءت حال السيد الثالث مرة اخرى !

هتف فى نفسه :

ـ آه ، لقد انتهت اسرتنا هذه !

ثم سار وراء تسوى هوان تائه اللب .

٢٨ ـ اليقظة

مات السيد الثالث فى النهاية .

كان التابوت الذى يرقد فيه جثمان الميت موضوعا فى قاعة الدار . واصوات الرهبان ترتفع حينا وتهبط حين آخر ، وهم يترحمون على روح الفقيد بأدعية بوذية ، يتلونها على ايقاع رتيب من السمكات الخشبية * ، فى حين كان كه دينغ جالسا امام جناحه ، ومعه محظيته شى ار ، وهما يداعبان ابنهما الصغير الذى لم يستكمل عامه الاول .

غادرت زوجة كه دينغ الدار بلا ضجيج ، ولم يذهب لتوديعها عند الميناء الا جيويه شين وجيويه مين وتشين . وحين رجعوا الى الدار ، ومروا امام جناح كه دينغ ، ضحك هذا فى وجوههم ضحكات ساخرة ، وقال لابن اخيه جيويه شين :

ـ يبدو انك لا تجد ما تعمله طول النهار ، فرحت تبحث عن اى عمل تملأ به فراغك . لم اردع زوجتى ، ولكنك ذهبت لتوديعها . قالت لى انك لا ترافق على بيع الدار ، فهل هذا صحيح ؟

فوجئ جيويه شين بهذا السؤال ، فلم يحر جوابا . واخيرا قال متسائلا :

ـ من اين هذا الكلام يا عمى ؟

قال كه دينغ فى عجرفة وصلف :

---

* السمكة الخشبية : آلة مجوفة على شكل سمكة مصنوعة من الخشب ، يقرعها الراهب البوذى عند تلاوة الكتب الدينية او الادعية .

– لا اظنك تجرؤ على المخالفة مهما تكن الحال . عمك الرابع هو رب الاسرة الآن . من حقه ان يقرر . كلنا فى حاجة الى المال .

لم يتمالك جيويه مين ان قاطعه فى لهجة ساخرة :

– وهل هناك رب لاسرة ستبيع الدار التى تقيم فيها ؟

فسأله كه دينغ فى حدة :

– ماذا تقول ؟

فأجاب جيويه مين فورا قبل ان يحاول اخوه التستر عليه :

– اقول لو كان رب الاسرة لا مهمة له الا بيع الدار لما تأجل الامر الى اليوم لنتعب عمى الرابع .

احتقن وجه كه دينغ غيظا ، وقال متوعدا :

– حسنا ، تجرؤ على السخرية بنا ؟ سيأتى عمك الرابع ، وعندها سنحاسبك !

فقال جيويه مين فى برود :

– فى هذه الحال من الافضل ان يحضر معه الممثل تشانغ بى شيو !

فاستولى على جيويه شين الذعر والقلق والغضب معا من قول اخيه ، قال له فى ضراعة :

– يا اخى !

واتفق ان اقبل كه آن فى تلك اللحظة ، فتقدم اليه كه دينغ ، وحدثه بما جرى . وما ان كلم هذا ابن اخيه بضع كلمات حتى صاح :

ـ تجرؤ على السخرية من تشانغ بى شيو ؟

قال هذا ورفع كفه ، فأمسك جيويه مين بذراعه ، وابعدها بقوة ، وقال له غاضبا :

ـ تجرؤ على ضربى ؟

ـ يا لك من وغد لا يملأ عينيك من يكبرونك سنا ! ...

واتبع قوله هذا شتيمة بذيئة لامرأة ابى جيويه مين .

ـ لا تغضب يا عمى . اخى صغير السن قليل العقل . ارجو ان تعود الى غرفتك . سأؤدبه انا .

جعل جيويه شين يعتذر الى كه آن ، فزاد ذلك من غرور الرجل وشراسته وصاح :

ـ لن اعود ابدا ! لا بد ان يسجد لى ويعتذر الى !

ثارت ثائرة جيويه مين من تصرف اخيه ، فدفعه جانبا وصاح فيه :

ـ انت جبان تحتمل الظلم . أفلا تخجل من التدخل فى امرى ؟!

ثم تحول الى كه آن ، وامسك به ، وقال فى حدة :

ـ تجرؤ على شتم امى ؟ اذا شتمتها مرة اخرى ، صفعتك ! أفهمت ؟

لان كه آن امام وعيد جيويه مين ، الا ان هذا الاخير استرسل فى لهجة قاسية :

ـ من منا لا يملأ عينيه من يكبرونه سنا ؟ ومن منا يجب ان يسجد ويعتذر ؟ هيا ، لا بد ان تركع امام لوح اسم والدى

المرحوم لتعتذر اليه ! لا بد ان تعتذر الى امى شخصيا !

صار كه آن فى حالة يرثى لها يحمر وجهه حينا ، ويشحب حينا آخر ، ثم قال فى مسكنة :

ـ لم اشتم امك ، اتركنى !

ـ لم تشتم ؟ أتحاول الانكار امام الملأ ، وقد شتمت منذ لحظة ؟ انتم من الجيل المتقدم ، والجيل المتقدم يجب ان يكون قدوة للصغار ! هل يمكنكم ان تنكروا انكم لاهم لكم الا زيارة بيوت الدعارة ، ومعاشرة ممثلى الاوبرا ، وشرب الافيون ؟

واضاف بعد ان ترك ذراع كه آن :

ـ تتشدقون دوما بمراعاة الاصول والقواعد السلوكية ، وتنعتون الآخرين " بعدم احترام الكبار" ، ولكن العجيب انكم انتم الذين تسببتم فى موت جدى بسلوككم المشين ، وضغطتم على عمى الثالث وهو على فراش المرض حتى مات ، بعضكم اتخذ محظية قبل ان تنتهى مدة الحداد على جدى الراحل ، ومع ذلك تقولون بكل وقاحة انكم الكبار المحترمون ؟

وهكذا سقطت هيبة " الكبيرين المحترمين " امام اقوال جيويه مين ذات الحجة الدامغة .

وحاول كه آن وكه دينغ انقاذ ماء وجهيهما ، فذهبا ومعهما زوجة الاول والسيدة تشن الى جيويه شين ، وهددوا بأن كه آن سيدعو بوصفه رب الاسرة الى عقد اجتماع للأسرة ، ويعاقب جيويه مين بالضرب عملا بتقليد الاسرة المتبع ، ولم يخطر ببالهم على الاطلاق ان يرد عليهم جيويه شين قائلا :

— اعقدوا الاجتماع اذن . لست خائفا ! وان شئتم المقاضاة ذهبت معكم الى المحكمة !

لقد استيقظ الجبان الذى تعودوا منه الصبر على المظالم .

خاتمة

ماذا جد فى قصة اسرة قاو بعد ذلك ؟

نستطيع من الرسائل التى كتبها جيويه شين الى اخيه جيويه هوى والى ابنة عمه شو ينغ ان نعرف ان الدار قد بيعت اخيرا ، وان الاسرة قد انتهت ، وان بعض شباب الاسرة قد بدأ حياة جديدة .

وفيما يلى نبذ من هذه الرسائل :

" انتقل فرعنا الى بيت قريب من بيت عمتنا ، كما اتخذت زوجة عمى الثالث مسكنا فى نفس الشارع . الاسر الثلاث على صلة طيبة وثيقة .

" ثم تمت الخطبة بين جيويه مين وتشين فى حفل بسيط ، وهذا حدث عظيم لم يسبق له مثيل فى اسرة قاو . اما الزواج فلن يتم الا بعد مدة من الزمن . فى نيتهما مغادرة حاضرة المقاطعة بعد الزواج ، يريد جيويه مين ان يشتغل بالتدريس فى مدرسة متوسطة ، او يعمل فى احدى الصحف ، وفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وهو ان يعول نفسه بالاعتماد على نفسه .

اختى شو هوا مجتهدة فى الدراسة .

" تكاثر فى حاضرة المقاطعة عدد الفتيات اللائى قصصن ضفائرهن ، وهكذا فعلت شو هوا وتشين ايضا بتشجيع شو ينغ اياهما فى رسائلها .

" ماما فى صحة جيدة وحالة نفسية طيبة .

" ارملة الاخ مى ولدت بنتا . هى الآن اهدأ واقل حدة بعد ان اصبحت اما . السيدة الكبيرة بخير ، الا انها شاخت كثيرا . اما خالى فقد اصر على اتخاذ جارية زرجته محظية له ، بحجة ان الاسرة فى حاجة الى ولد ذكر يخلفه بعد ان مات ابنه مى ولم تلد ارملته الا بنتا . وقد تشاجر مرارا مع زوجته بهذا الشأن ، واخيرا لم يسع السيدة الكبيرة وزوجته الا ان تنزلا عند رغبته . وقد غضبت عليه امى لتصرفه هذا .

" زوجة عمى الثالث وافراد العائلة بخير ، وهى تشتاق الى شو ينغ كثيرا ، ولا تفتأ تردد قول عمى قبل وفاته بأنه يوافق على ان تعود شو ينغ الى البيت . يحسن بالاخت شو ينغ ان تكتب الى امها كثيرا . شقيقاها الصغيران دخلا المدرسة الابتدائية ، واختها الصغرى بلغت الشهر السابع من عمرها ، وهى كثيرة الشبه بأبيها ، وامها تحبها كثيرا . ازور زوجة عمى كل يوم تقريبا برا بوعدى لعمى الراحل .

" عمى الخامس اسكن ' يوم الاثنين ' وشى ار فى بيت واحد . عادت زوجته من بيت اخيها فى الشهر الماضى ، ولكنها لم تحتمل الاساءة ، فبقيت اقل من عشرة ايام ، ثم غادرت عائدة الى بيت اخيها عقب شجار عنيف مع زوجها .

" صار عمى الخامس مدمنا للافيون بشكل فظيع مثل عمى الرابع .

" لعمى الرابع الآن بيتان : بيت تعيش فيه زوجته واولاده ، وبيت آخر يؤوى فيه تشانغ بى شيو . وهو يقعد عاطلا ، ولكنه ينفق بلا حساب . وقد باع اكثر اراضيه . وكذلك حال عمى الخامس ، لا نتزاور واياهما الا نادرا .

" السيدة تشن مضمخة بالعطور كعهدها السابق . وهى تتردد دائما على الاوبرات والمطاعم ومعها حفيدها . سمعت ان السيدة وانغ هى الشخص الوحيد الذى له صلات بها .

" اما فيما يخصنى فانى احب ان اقول لكم انى اتخذت تسوى هران محظية لى فى الشهر الماضى عملا بوصية عمى الثالث . اعلمها القراءة والكتابة كل يوم ، رهى شديدة العناية بى ، وانا احبها كثيرا . زوجة عمى الثالث اتخذتها ابنة بالتبنى . وماما تعاملها كأنها زوجتى ، وكذلك جيويه مين وتشين وشو هوا . وجملة القول ان اسرتنا تعيش فى جو من الوفاق والوئام .

" بدأ العمل فى اعادة بناء السوق التجارية مؤخرا ، الا انى قد تركت عملى فى الشركة . منذ انتقلنا من الدار الكبيرة وانا اعيش حياة اخرى . ازور الاقارب او اقرأ فى البيت . واعرف انى كنت مخطئا ، وانى اليوم لست صاحب همة عظيمة مثلك او مثل اخى الثانى ، ولكنى ارجو الا تنبذانى بسبب خيبتى وقلة نفعى . والحقيقة ان جذوة الطموح لم تنطفئ فى قلبى . "

نستطيع ان نرى من رسائل جيويه شين ان اسرة قاو قد انهارت ،

شأنها فى ذلك شأن شجرة تساقطت اوراقها الذابلة فى اواخر الخريف ، ولكن الحياة لم تمت فيها ، اذ ان اوراقا خضراء كثيرة ستنمو عليها من جديد . وصدقت تشين اذ قالت : " الربيع قادم اذا انقضى الخريف . "

الفهرس

توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
٢١ شارع تشه قونغ تشوانغ الغربى ، بكين ، الصين
ص . ب ٣٩٩ بكين — الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٤٤
مطبعة اللغات الاجنبية بكين

巴金的"激流三部曲"
«家»、«春»、«秋»（简写本）
刘麟瑞译
陈晋容插图
凤 凰丛书
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
邮政编码100037
北京外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司发行
（中国北京车公庄西路21号）
北京邮政信箱第399号 邮政编码100044
1990年（36开）第一版
（阿）
ISBN 7-119-01142-1/I·176（外）
00705
10—A—2474P

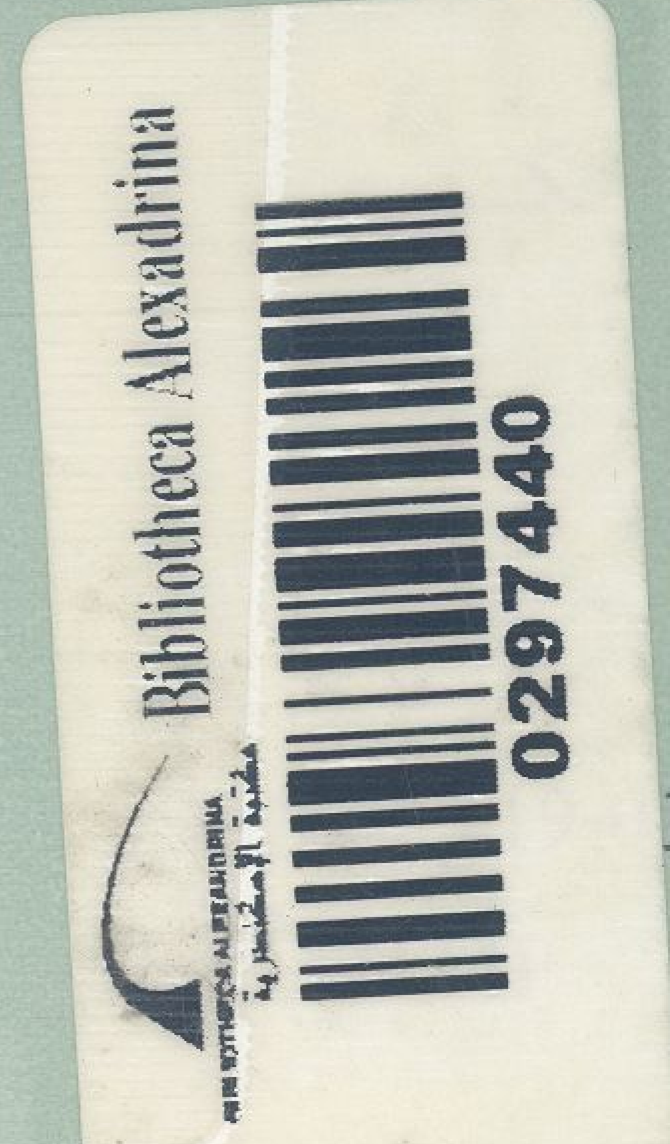


هذا الكتاب

تضعه دار النشر باللغات الاجنبية فى بكين بين ايدى القراء العرب، وهو مختصر لثلاثية«التيار الجارف»، ويقع فى مئة الف مقطع صينى من أصل مليون مقطع فى الروايات الثلاث. وقد راجعه با جين، فحافظ فى ايجازه على معالم الروايات من حيث شخصياتها الرئيسية ومصائرهم، وما تخلل حياة الاسرة الكبيرة مس افراح واتراح، ومن حيث المراحل التى مرت بها الاسرة فى طريقها الى التصدع والانهيار. ويستطيع القارىء الكريم من خلال هذا المختصر التعرف على عمق الموضوع الذى عالجه الكاتب فى ثلاثيته، كما يستطيع تذوق جمال اسلوبه.



دار النشر باللغات الاجنبية



1142-1